الأندلس الإسلامية
سياسياً وحضارياً

الدكتور
عبد اللطيف عبد الهادى
أستاذ التاريخ الإسلامي والوسيط
كلية الآداب - جامعة غريان

المكتب الجامعي الحديث

الأندلس الإسلامية
سياسياً وحضارياً

دكتور
عبد اللطيف عبد الهادي السيد
أستاذ التاريخ الإسلامي والوسيط
كلية الآداب - جامعة غريان

٢٠١١م

رقم الإيداع : ١٤٦٥٦/٢٠١٠

الترقيم الدولي : ٩-٩٤٠-٦٥٤-٥٥٨

مقدمة

لما كانت الأندلس إحدى ولايات الدولة الإسلامية التابعة للدولة العربية، منذ الفتح العربى لها عام ٩١هـ/ ٧٠٨م، على يد زعيم البربر طارق بن زياد والوالى العربى فى أفريقية موسى بن نصير، وفى عهد الخليفة العباسى الوليد بن عبد الملك؛ فإن هذه البقعة من أرض الاسلام قد أثارت نهم المؤرخين فى البحث فى تاريخها وحضارتها على السواء، خاصة تلك الحقبة التاريخية لتلك البلاد فى ظل الحكم الإسلامى لها.

إن تاريخ الأندلس الإسلامى - رغم ما كتب عنه من قبل المؤرخين أو الكتاب أو حتى الفلاسفة- فى حاجة إلى مزيد من البحث والتنقيب فى تلك الحقبة التاريخية للمسلمين هناك، والتى إمتدت نحو ثمانمائة سنة تقريباً، خلفت وراءها حضارة فريدة أذهلت المؤرخين المسلمين والغربيين على السواء، بإستثناء الحاقدين على الإسلام والمسلمين الجانبين أيضاً.

وقد كان تاريخ وحضارة الأندلس من الأهمية بمكان بحيث جعلتنى أنهض للدفاع عنها أمام أولئك الذين يحاولون طمس هوية هذه الحقبة التاريخية الهامة، ليس فقط فى حياة المسلمين، ولكن أيضاً بما فيه نفع وفائدة للإنسانية جميعاً لما كانت تتمتع به الأندلس من حضارة إسلامية كانت زخراً حقيقياً للحضارة الغربية المعاصرة بشهادة أهل الغرب أنفسهم خاصة المستشرقين المعتدلين منهم، الذين غاصوا فى البحث والدراسة فى جنبات الحضارة الإسلامية على وجه العموم والحضارة الأندلسية على وجه الخصوص ووقفوا على مبادئ الإسلام السامية.

تلك الحضارة رغم أهميتها فى حياة البشرية إلا أنها كانت وراء حقد وكراهية الناقمين عليها منذ أن غزت أرضهم وحتى اليوم. فإن ما يدور بين

الغرب والمسلمين من صدامات يرجع فى الأساس إلى كراهية وخشية الغربيين على أنفسهم من إستعادة المد الإسلامى لبلادهم مرة ثانية.

وعلى هذا قمنا بإعداد هذا الكتاب فى تاريخ الأندلس السياسى والحضارى، فى محاولة ليتعرف الشباب المسلم على تاريخ أجدادهم العظام الذين خلدوا لنا تاريخاً وحضارة سامية لازلنا نفخر بها، وسنظل نزهو بها طالما نتبع كتاب الله وسنة نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه. مثلما كان الحال عليه أيام الجيل الأول والثانى والثالث من المسلمين. تلك الأجيال قد خططت لنا بأحرف من نور طريق الهداية والسلامة والمجد الإسلامى.

الأندلس، تلك البقعة التى أثارت لعاب الكثيرين حول ما أحدثه أجدادنا هنا بين أهل الغرب المخالفين لنا فى الدين والجنس معاً، من حضارة عبرت فى حقيقة الأمر عن سماحة الدين الإسلامى وعدله، حتى أن الأندلسيين أنفسهم دخلوا فى الدين الإسلامى طواعية وعن إقتناع تام، وحتى أولائك الذين لم يدخلوا فى الإسلام وظلوا على عقيدتهم وديانتهم، فضلوا العيش فى ظل الحكم الإسلامى على أن يعودوا إلى ما كانت عليه أسبانيا (الأندلس) قبل دخول الإسلام إليها.

ومن الأمور التى أثارت غرائز المؤرخين من الغربيين على وجه الخصوص، ما حققه المسلمون من مكاسب سياسية وإنتصارات متتالية فى شتى أرجاء الأندلس فى شماله وجنوبه، وشرقه وغربة، حتى كادوا أن يغزوا بلاد غاليا (فرنسا) ذاتها فى شمال الأندلس. وغاب عن معظم المؤرخين الغربيين أن الفتوحات الإسلامية فى أوروبا عامة والأندلس خاصة، كان فى معظم حالاته يلقى قبولاً من أهالى البلاد المفتوحة عندما لمسوا بأنفسهم أن الإسلام دين عدل وتسامح، وأن كرامة الإنسان فى ظل الحكم الإسلامى لا فى غيره. وقد بدا ذلك واضحاً بعد قيام الدولة الأموية فى الأندلس، على يد عبد الرحمن الداخل، وبصورة أوضح فى عهد دولة المرابطين والموحدين فى الأندلس، الذين كانوا يحكمون وفقاً لكتاب الله وسنة النبى محمد ﷺ .

لقد آثرنا على أنفسنا إخراج هذا الكتاب فى صورته المتكاملة عن بلاد الأندلس سياسياً وحضارياً فى ظل الحكم الإسلامى لنوضح للمسلمين وغير المسلمين، أن المسلمين لم يقوموا بالفتوحات الإسلامية لمجرد الغزو والسطو، بل لنشر دين الله الإسلامى، وهذا ما أكد عليه حكام المرابطين والموحدين فى الأندلس إذ كانوا لا يتدخلون فى شئون غيرهم إلا بعد اللجوء إلى القضاة والتثبت من الفتوى فيما يلجأون إليه، وإذا ما إضطروا إلى القتال فكان إما على سبيل الجهاد، أو الدفاع عن النفس.

ولما كان الكتاب يتناول تاريخ الأندلس، فكان لابد من معرفة هذه البلاد وتعريفها للآخرين من حيث طبيعتها السياسية والإجتماعية والدينية قبل الإسلام، لتتضح الصورة فى الفرق لتلك البلاد -الأندلس- قبل الفتح الإسلامى وبعده، وكيف كان الناس يعيشون من قبل ومن بعد. حتى نؤكد للآخرين أن الدين الإسلامى دين حضارة إنسانية تجمع بين الروح والمادة فى توازن وتناغم، لا كما هو الحال الآن فى تلك الحضارة الغربية المادية التى يفتقد فيها الإنسان عنصر الروح. مما يؤكد على سرعة زوالها، لأن بقاءها مرتبطاً ببقاء المادة. فإذا كانت أمريكا أو أوروبا الغربية تفخر بسيادتها على العالم الآن، فلنتسائل كم هو عمر هذه الحضارة التى نراها، ستزول قريباً؟ الإجابة ببساطة أن تلك الحضارة الأمريكية أو الأوروبية لا تتعدى ستين أو سبعين عاماً. فأين هى من سيادة العالم الإسلامى للعالم الغربى الذى إمتد فى بلاد الأندلس ثمانية قرون على الأقل؟!

تلك الحضارة الأندلسية الإسلامية جعلتنا نقدم هذا الكتاب ليقرأه أصحاب تلك الحضارة الزائلة اليوم من الأمريكيين وغير الأمريكيين ونقول لهم حضارتكم هذه إنما تستند فى أصولها إلى الحضارة الإسلامية عامة والإسلامية الأندلسية خاصة.

وعلى هذا قمنا بتقسيم الكتاب إلى خمسة فصول رئيسية هـذا بخـلاف المقدمة والخاتمة وقائمة المصادر والمراجع التى اعتمدنا عليها عند تناول هـذا الكتاب بالبحث والدراسة.

الفصل الأول: وهو عبارة عن تمهيد او مدخل للكتاب تناولنا فيه تعريف ببلاد الأندلس كمدخل طبيعى لابد منه للتعرف على الحدود السياسية والجغرافية لتلك البلاد، وعرضنا من خلاله التقاسيم الطبوغرافية لبلاد الأندلس والتى كانت تبلغ إثنى عشر تقسيماً سياسياً، إذ هى أشبه بالمقاطعات أو الممتلكات السياسية ذات الطابع الإقطاعى على غرار نظم الإقطاع الأوربية. كذلك عرضنا فى هذا الفصل أيضاً التقسيم الديموجرافى لسكان الأندلس والتى تضمنت عناصر عديدة منهم العرب (قبل الإسلام) وأهل البلاد الأصليين وعناصر من الرومان والقوط وكذلك من البربر المجاورين للأندلس والصقالبة وغيرهم، سنتعرف عليهم فـى هذا الفصل. كذلك يعرض هذا الفصل من الكتاب حالة بلاد الأندلس بشكل عـام وكيف كانت الأمور تسير فى صالح المسلمين الفاتحين، ثم نختتم الفـصل الأول بعملية الفتح ولامراحل التى مرّ بها فى بلاد الأندلس حتى دانت لهم تلك البقعـة الهامة للمسلمين رغم ووقوعها فى أقصى غرب البلاد المفتوحة.

أما الفصل الثانى: فق إتفق المؤرخون على تسميته بعصر الولاة، وهى الفترة الممتدة ما بين (٩٥- ١٣٨هـ/ ٧١٢- ٧٥٥م). وفى هذا الفصل نعرض لعدد من الولاة المسلمين الذين تولوا أمر المقاطعات الأسبانية التى خضعت لهم بداية بعهد الوالى عبدالعزيز بن موسى بن نصير الذى إتخذ من أشـبيلية مقـراً لولايته، ثم السمح بن مالك الخولانى، ثم عنبسة بن سحيم الكلبى، ثم عبدالرحمن بن عبدالله الغافقى والذى وقعت فى عهده معركة بـلاط الـشهداء فـى أوائـل رمضان سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م، والتى قتل فيها عدد كبير من المسلمين على يـد قائد الفرنجة شارل مارتيل (المطرقة). ثم يتولى أمر الأندلس بعد ذلـك الـوالى عبدالملك بن قطن الفهرى، ثم عقبه بن الحجاج السلولى، ثم عبدالملك بن قطـن

للمرة الثانية، ثم بلج بن بشر، فثعلبة بن سلامة، ثم أبى الخطار الحسام بن ضرار الكلبى، ثم آخر الولاة: يوسف بن عبد الرحمن الفهرى؛ الذى بلغ عددهم أكثر من عشرة ولاة، ولكننا آثرنا عدم ذكر الولاة الذين لا تتعدى ولايتهم شهراً أو بضعة أيام، حيث أن ذكرهم لا يغنى ولا يثمن من جوع، وفى نهاية هذا الفصل نعرض لأحوال الأندلس قبل قيام الدولة الأموية على يد عبدالرحمن الداخل.

أما الفصل الثالث: فيأتى تحت عنوان "عصر الإمارة". وفيه بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الأندلس السياسية والحضارية، وذلك بدخول عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك الأندلس وينشئ دولة أموية جديدة، متخذاً من قرطبة فى جنوب أسبانيا مركزاً وعاصمة لدولة الأمويين الجديدة فى الغرب، على غرار تلك التى كانت فى دمشق والتى أسقطها العباسيون فى المشرق سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٥م. فكانت هذه الإمارة نواة لقيام خلافة أموية فى الأندلس فيما بعد. ونعرض فى هذا الفصل أعمال عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) سواء فى مجال السياسة والإدارة والحروب أو فى مجال الإصلاح والإنشاء، هذا الشاب الأموى الذى إشتهر بلقب "صقر قريش" حيث جاء هذا اللقب من قبل ألد أعداء الأمويين "أبو جعفر المنصور" المؤسس الحقيقى للدولة العباسية فى بغداد. كذلك نعرض فى هذا الفصل ثورات العرب والبربر والأقارب الحاقدين والناقمين على الإمارة الأموية وكيف تغلب عبد الرحمن الداخل عليها، ومن جاء من بعده من الأمراء، أمثال هشام بن عبد الرحمن الداخل، الذى قام بالتصدى للإضطرابات والثورات، ومع هذا قام بالعديد من الإصلاحات، ثم يتولى الإمارة إبنه الحكم بن هشام، ثم إبنه عبد الرحمن بن الحكم، ثم إبنه هشام بن عبد الرحمن، ثم عبد الرحمن الثانى الذى عرف بالأوسط ثم إبنه الأمير محمد بن عبد الرحمن والذى وقعت فى عهده أخطر ثورة ضد الأمويين قام بها عمر بن حفصون، ثم تولى الإمارة، الأمير عبدالله بن محمد، وكان آخر الأمراء الأمويين فى ذلك العصر الذى إمتد من (١٣٨هـ/ ٣٠٠هـ- ٧٥٥/ ٩١٢م).

أما الفصل الرابع: فيأتي تحت عنوان "عصر الخلافة الأموية في الأندلس" والذى يبدأ من (٣٠٠- ٤٢٢هـ/ ٩١٢- ١٠٣٢م). وهو العصر الذى يؤسس فيه عبد الرحمن الناصر "الخلافة الأموية" بعد أن رأى أنه أولى وأحق بأن يحظى بلقب خليفة عن الفاطميين فى بلاد المغرب، وبذلك صار هناك فى الدولة العربية الإسلامية ثلاث خلائف، هى: الخلافة العباسية فى بغداد، والخلافة الفاطمية فى المغرب، والخلافة الأموية فى الأندلس أواخر سنة ٣١٦هـ/ أوائل سنة ٩٢٩م، بعد ان أقرَّ الأوضاع وقضى على الفتن والثورات وأمنَّ الحدود وإستشعر بأنه أولى بالخلافة من عبدالله المهدى فى المغرب، وأما العمل الثانى الهام فقيامه بإنشاء مدينة الزهراء لتواكب المركز العظيم، على غرار دمشق فى الشام من قبل، وبغداد فى العراق .. وهكذا. ويخلف عبد الرحمن الناصر إبنه الحكم سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م ليواصل كفاح أبيه فى الأعمال الحربية والإصلاحات الداخلية. ويعقب وفاة الحكم حالة من عدم الإستقرار وتنتقل الخلافة إلى بيت آخر عرف بالبيت العامرى "محمد بن أبى عامر" مستغلاً وصاية "صبح" والدة الطفل "هشام" بن الحكم ولى العهد فى تثبيت أقدامه، والتخلص من خصومه وتلقيب نفسه بلقي خليفة - ومع هذا كانت الأندلس فى عهده قد حققت مكاسب كثيرة وكبيرة، ثم يضمن لإبنه "عبد الملك" الخلافة من بعده، ثم إبنه عبد الرحمن بن عبد الملك الملقب "بشنجول" والذى فى عهده تقوم ثورة فى قرطبة ووتحدث ما يعرف بالفتنة الكبرى، وتتطور الأحداث حتى تقع البلاد فى يد حفنة من الملوك الضعاف عرف بعصر "ملوك الطوائف".

أما الفصل الخامس: فيتمثل فى عصر ملوك الطوائف وهو بداية النهاية لملك بنى أمية بصفة خاصة وتضعضع أحوال المسلمين فى الأندلس بصفة عامة، وتفككت أوصال الأندلس الإسلامية وإنتهت كدولة موحدة مهابة، حتى أن أحداكان لا يمكن أن يتوقع نهاية العصر الأموى فى الأندلس على هذا النحو المأساوى، إذ أن هذا الفصل يبرز تمزق المملكة الأموية إلى أشلاء شتى.

وأصبحت الأمور فى طريقها إلى ضياع هـذه القطعـة الغاليـة مـن الأرض الإسلامية وسقوطها فى يد الممالك المسيحية الأسبانية بعد أن كانت هذه الممالك تدور فى فلك الدولة الإسلامية، وتدين لها بالولاء والطاعة؛ وهكذا يمكن القـول أن العرب قد أصيبوا بإنقسامهم بأكثر مما يصابوا بتآلب الأعداء ضدهم.

ومع هذا يقدم هذا الفصل الدور البطولى الذى قام به المرابطون ومـن بعدهم الموحدون فى محاولات عديدة لإنقاذ الممالك الإسلامية، وقد نجحوا فـى بعض أدوارهم، وأخفقوا فى البعض الآخر حتى تكالب عليهم الأعداء مـن كـل حدب وصوب، لدرجة أن الأمر بلغ من التحدى بـين العـرب والأوروبيـين، وتدخلت البابوية نفسها فى هذا الصراع، ودعت كافة الأوربيـين إلـى تجـيش الجيوش للقضاء على هذا الكيان الإسلامى فى الأندلس حتى تحقق لهم ذلك عند نهاية القرن الخامس عشر الميلادى.

أما الفصل السادس والأخير: فيأتى تحت عنـوان "حـضارة الأنـدلس الإسلامية" وفيه نقدم للقارئ إختلاف الآراء حو أصول الحـضارة الأندلـسية، وأيهما أقرب إلى الصواب. كما يبرز الفصل أيضاً مـدى تـصدى المـؤرخين العرب والمسلمين لإبراز عروبة الأندلس، ثم نقوم بتوضيح التطور الحـضارى للأندلس الإسلامية من خلال مرحلة التكوين ثم النمو حتى وصلت إلى مرحلـة الإزدهار كما توضح الدراسة هنا الأسس التى قامت عليها الحضارة الإسـلامية فى الأندلس، وكذلك بعض مظاهرها، فى مجال التشريع والمجال الأدبى وفـى الحياة التربوية والتعليمية ثم أخيراً فى مجال العمران.

أما الخاتمة: فليست مجرد تلخيص ما سبق تقديمه من معلومـات فـى فصول الكتاب، ولكن الخاتمة هنا تبرز أهم النتائج التى توصلت إليها الدراسـة والجديد فيها، ووجهة نظر الباحث فى أوجه الشبه والخـلاف بـين الحـضارة الاسلامية فى الأندلس وبينها فى منطقة المشرق الإسلامى من جهة، ثـم أثـر

الحضارة الإسلامية على الحضارة الأوربية من جهة ثانية، ومحاولة الرد على الحاقدين من المستشرقين الغربيين الذين يزعمون أن الحضارة الأوربية إنما هى وليدة للفكر والعقل الأوربى فقط؟!

وفى النهاية نقدم قائمة لأهم مصادر الكتاب العربية والأجنبية ممن أصحاب شهود العيان والمعاصرين. مما يجعل الدراسة تقوم على أساس وثائقى، ثم إعتمد الباحث على بعض وجهات النظر الحديثة الأجنبية والعربية وإختلاف وجهات النظر فيها.

وفى النهاية، أحمد الله لأن هذا الكتاب يعتبر خطوة أكثر تقدماً على الطريق، والله الموفق والمستعان.

المدخل

- تعريف ببلاد الأندلس.
- طبوغرافية بلاد الأندلس.
- ديموغرافية أسبانيا .
- العرب قبل الإسلام في شبه جزيرة آيبريا .
- الأوضاع السياسية في أسبانيا قبل الفتح الإسلامي.
- فتح العرب والمسلمين لأسبانيا .
- مراحل الفتح العربي للأندلس.
- فتوحات طارق بن زياد في الأندلس.
- العرب وأهل البلاد الأصليين.

تعريف ببلاد الأندلس (أسبانيا):

الأندلس هى شبه جزيرة تقع جنوبى غربى أوربا، وتقابل براً العدوة من بلاد المغرب، وبينهما بحر "الزقاق" الذى هو فم بحر الروم (البحر المتوسط) ملكها الوندال، وهم شعوب الجرمان الأوربية، وقد أطلق عليهم العرب الوندال "الأندلشى" بالشين المعجمة، فسميت البلاد بهذا الأسم، ثم عرب بالسين المهملة فصار الأندلس وسماها العرب أيضاً "القندلش" ثم عرب بإبدال القاف همزة والسين المعجمة سيناً مهملة(١).

وقد عرّفها الإغريق منذ حوالى ٥٠٠ ق.م. بأنها "أيبريا" وإقتصر هذا الإسم على شرقى شبه الجزيرة. أما الجزء الغربى منها فقد عرّفها الإغريق بأنها شبه جزيرة أيبريا من نهر إيبروس أو (إيرو"؛ ولما دخلها الرومان قالوا عنها هسبانيا(٢).

ولكن عندما زارها العرب وحاولوا وصف بلاد الأندلس جاء فى تقويم البلدان اسم "جزيرة الأندلس" على شكل مثلث ركن جنوبى غربى، وهناك جزيرة "قادس" وفم بحر الزقاق، وركن شرقى بين طركونة وبين برشلونة، وهى جنوبية وبالقرب منه بلنسية وطرطوشة وجزيرة ميورقة وركن شمالى بملية إلى المحيط والبحر وبالقرب منه مدينة شنتياقوه، وحد الأندلس الشمالى يمتد على الجبل المعروف بجبل إلبرت الحاجز بين الأندلس وبين أرض تعرف بالأرض الكبيرة (فرنسا). وفى وسط الأندلس جبال تعرف بجبال الشارة وهى تمتد من الشرق إلى الغرب.

أما أهم التقاسيم الطبوغرافية فى بلاد الأندلس فهى:

أولاً: غرناطة: وهى تقع فى جنوب الأندلس ومملكتها فى الجنوب والشرق عن مملكة قرطبة وبينهما وبين قرطبة مسيرة خمسة أيام. وهى تشبه

دمشق فى الشام من حيث الحصانة والروعة والجمال؛ وتشرف على غوطتها (أى حديقتها) وأنهارها تصب من جبل الثلج ولها أشجار وبساتين وأنهار وثمار ومياه مسيرة يومين؛ ولها ثلاثة عشر باباً منها: باب الكحل وباب الرخاء وباب المرضى وغيرها. وحولها أربعة أرباض: ربض الفخارين وربض الأجل وهو كثير القصور والبساتين وربض البيازين وهو كثير العمارة يخرج منه نحو خمسة عشر ألف مقاتل وهو مستقل بحكامه وقضائه، وبها ربض الرملة. كما يوجد بغرناطة مسجداً من أروع وأبدع المساجد فهو محكم البناء، قام سقفة على أعمده حسان. وتجاور المسجد هذا دكاكين وأماكن للعطارين[٣].

ورغم أن غرناطة شديدة البرد فى الشتاء إلا أن طبيعتها الجبلية وكثرة بساتينها وحشائشها تزيدها جمالاً. ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن غرناطة كانت قاعدة ومركزاً لملك الإسلام بالأندلس. فهى مركز الحكم فى العصر الإسلامى فى الأندلس.

وفى غرناطة القصبة الحمراء؛ وهى قاعدة عالية شديدة الإنحدار والإمتناع وبمسجدها الثريات الفضية معلقة. وبحائط محرابه أحجار ياقوت مرصعة منمقة بالذهب والفضة ومنبره من العاج والأبنوس.

ومن مدن غرناطة: "**المرية**"؛ وهى مدينة مسورة على حافة بحر الزقاق. وأرضها وساحلها وبحرها غاية فى الأناقة والجاذبية، فهى على الترتيب: فضى، تبرى، زبرجدي.

وتتميز غرناطة عن غيرها من بلاد الأندلس بكثرة أشجارها من العنب والتين؛ ومنها "**مالقة**" على بحر الزقاق وبها دار صناعة لإنشاء المراكب وبها الفخار المذهب. ومنها أيضاً "**لشبونة**" وجبل الفتح وهو الذى نزل به طارق بن زياد عند فتح الأندلس[٤].

ثانياً: لشبونة: وبها بساتين ورساتيق وتقع غرب بلاد الأندلس، وتشتهر بكثرة ثمارها. وهى قاعدة لمملكة البرتغال؛ ومن مدنها "باجة" وهى أرض زرع وضرع.

ثالثاً: بطليوس: وهى مدينة عظيمة تقع على جانب أحد الأنهار فى غرب الأندلس، وأرضها سهلة وليست وعرة، وتتميز أرضها بالطبيعة الخضراء.

رابعاً: **أشبيلية:** ومعناها المدينة المنبسطة ومملكتها غربى قرطبة ومن كورها "شريش" وإليها ينسب الشريشى، ومنها كورة "طريف" وأيضاً شلب وبها قصر الشراخيب.

خامساً: قرطبة: ومملكتها جنوب طليطلة وشرقى أشبيلية، وهى أعظم مدن الأندلس، وعليها سور ضخم من الحجارة، ولها سبعة أبواب؛ وبلغت مساجدها ألف وستمائة مسجد وحماماتها تسعمائة حمام؛ وبها مدينة "الزهراء" بناها الناصر الأموى غربى قرطبة فى سفح جبل ومنها سفح مراد وكورة غافق.

سادساً : **طليطلة:** وكانت مقراً للملك لزريق قديماً وهو آخر ملوك القوط قبل الفتح الاسلامى لها. وهى من أروع البلدان الأندلسية فوق قمة جبل مرتفع؛ بها أشجار وبساتين والمسافة بينها وبين جبل إلبرت نصف شهر تقريباً.

ومن ملحقاتها: مدينة "وليد"؛ وتقع غربى طليطلة ومن أحسن المدن بها مدينة "الفرج"، وبها ووادى يعرف بوادى الحجارة ومدينة "سالم" وبها قبر المنصور بن عامر.

سابعاً: جيان: وهى تقع بين طليطلة وغرناطة وتتميز أرضها بالخصوبة، وكانت بيد بنى الأحمر أصحاب غرناطة حتى أخذتها الفرنجة منهم

بالسيف بعد حصار طويل. ومن مدنها "آبدة" وقد حدثتها دولة بنى أمية بالأندلس وأقامت بها عين تسمى عين الزعفران.

ثامناً: مرسية: وهى إسلامية النشأة بنيت فى أيام حكم الأمويين بالأندلس، تكثر بها البساتيين والراستيق ومن متنزهاتها الرشاقة وجبل "إيل" وتحته البساتين وبسط تسرح فيها العيون.

تاسعاً: بلنسية: تقع شرقى مرسيه وغربى طرطوشة حفت بها الأنهار والحدائق والبساتين، فلا ترى إلا مياهاً تتفرع ولا تسمع إلا أطياراً تسجع وهى على جانب بحيرة حسنة. ومن متنزهاتها الرصافة ومدينة إبن عامر ومن ملحقاتها مدينة شاطبة وإليها ينسب الشاطبى صاحب القصيدة المعروفة بالشاطبية فى القراءات السبع.

عاشراً: سرقسطة: وهى قاعدة الثغر الأعلى، وهى مدينة قديمة بيضاء فى أرض طيبة تحيطها بساتين زمردة خضراء، وإلتفت عليها أربعة أنهار، فأصبحت بها مرصعة مجزعة ولها متنزهات منها قصر السرو ومجلس الذهب.

حادى عشر: طرطوشة: وكانت مقراً لملك شرق الأندلس وإليها ينسب الطرطوشى صاحب "سراج الملوك".

ثانى عشر: برشلونة: وتعرف أيضاً برشنونة ولكن تم إبدال النون لاماً فى الوقت الحاضر.

ديموجرافية بلاد الأندلس :-

لقد سكن بلاد الأندلس قبل الفتح الإسلامى عناصر وأجناس من جهات مختلفة لعل أبرز هذه العناصر السكانية هى:

هاملكار (٢٣٨/٢٢٩ ق.م.) وخازد روبال (٢٢٨/٢٢١ ق.م.) وهم من القرطاجيين الذين سكنوا شرقى تالأندلس حتى نهر إبرو؛ وأسس هازدروبال مدينة قرطاجنة الجديدة وقد فزع الرومان بتقدم القرطاجيين مما دفعهم إلى التقارب معهم لتفادى خطرهم وتهديدات القرطاجيين لهم.

ولما آل ملك قرطاجنة إلى هانيبال استولى على مدينة ساجنتم سنة ٢١٩ق. م.؛ وكانت للرومان، فقامت الحرب البونية الثانية بسبب ذلك الإعتداء وإنتهت الحرب بإنتصار روما فى معركة "زاما" الفاصلة سنة ٢٠٢ ق.م.(٥).

وآلت أملاك قرطاجنة فى الأندلس إلى الرومان الذين واصلوا الحرب لإخضاع بقية البلاد؛ وتم لها ذلك بعد قرنين من الزمان. وممن كان لهم شأن فى هذا الفتح كيتو الأكبر الذى إستولى على وسط البلاد سنة ١٩٥ق.م.، وتايبرياس (تيبريوس) جراكوس وسيبيو الأفريقى سنة ١٣٣ ق.م. وأخضع القبائل التى كانت تعيش جنوب "التاجة". وفى عام ٦٠ ق.م دخلها يوليوس قيصر وأخضع الأقاليم الواقعة شمال التاجة وأتم أوغسطس إخضاع مناطق كانت لإبريا وإستورقة (ميورقة).

وقد قسم الرومان الأندلس إلى ولايتين يفصلهما نهر "إبرو" وقالوا عنها هسبانيا الخارجة وهسبانيا الداخلة. وهذا التقسيم هو الذى أدى بالرومان إلى تسمية البلاد هسبانيا. وأرادوا بتلك المملكة ذات الولايتين أو المقسمة إلى قسمين او نصفين، وحكم كل ولاية نائب قنصل. ولما كان حكم أوغسطس، قسم أسبانيا إلى ثلاث ولايات أكبرها ولاية طراقونة فى شمال شرقى أسبانيا. وفى غرب أسبانيا كانت باتيكا وعاصمتها (قرطبة). وأما القسم الثالث فهى لوزيتانيا.

وظلت أسبانيا تابهعة للدولة الرومانية حتى عهد الامبراطور قسطنطين سنة ٤٠٩م. وفى تلك السنة دخلها القوط الغربيون (الوندال) وإنتزعوها من أيدى الرومان دون أن يلقوا مقامة تذكر عام ٤٢٩م؛ وعبر بعضهم المضيق ودخلوا

أفريقية. وظلت أسبانيا تابعة للقوط الغربيين (الوندال) حتى جاء العرب وغلبوا القوط الغربيين فى بداية القرن الثامن الميلادى (٧١٠م/٩هـ).

العرب فى شبه جزيرة أيبريا :

فى الوقت الذى داهمت فيه جيوش الاسكندر الأكبر ممالك آسيا الصغرى وبلاد الشام، ظل العرب يتمتعون بحريتهم فى شبه الجزيرة العربية وظل حالهم كذلك ألف سنة أخرى وهم فى عزلتهم وصحراواتهم يرتعون؛ لهم عاداتهم وتقاليدهم وأخبارهم خاصة بهم داخل بلادهم.

هذا فى الوقت الذى أقام الاسكندر لنفسه وخلفائه من بعده ممالك لهم فى مصر والشام وآسيا الصغرى. وهذا فى الوقت أيضاً الذى توج أغسطس إمبراطور فى روما، وكذلك قسطنطين إمبراطوراً فى بيزنطة (تركيا حاليا). ثم قيام برابرة شمال وشرق أوربا بإسقاط روما والسيطرة على أملاكها فى أوربا وحوض البحر المتوسط. كل هذا والعرب فى جزيرتهم فى غيهم يعمهون، لا أحد يعرف عنهم شيئاً ولم يفكر أحد ممن عرضنا فى فتح بلادهم أو غزوهم. وظل أمرهم مجهولاً حتى بداية القرن السابع الميلادى. وإذ ذاك حدث إنقلاب عظيم فى تاريخ العرب.

ما هو هذا الإنقلاب؟ وما أثر ذلك على جزيرتهم والشعوب المجاورة لها؟

للإجابة على الأسئلة هذه، يمكننا القول: أن خروج العرب من عزلتهم، ومحاربة الأمم المجاورة لهم وفتح تلك البلاد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب إنما يعزى إلى رجل واحد هو النبى محمد ﷺ .

تم الإنقلاب وظهر الإسلام وإطمأنت القلوب، وعمل القوم على تنفيذ تعاليمه بنفس خالصة وبذل فى الجهاد، ليس على سبيل الإعتداء أو الجور كما فعلت الأمم الأخرى، بل من أجل نشر الدعوة الإسلامية التى هى للناس جميعاً

وليس للعرب وحدهم؛ حيث أن محمداً ﷺ إستطاع أن يجمع كلمة العرب في شبه جزيرتهم، وأن يخلصهم مما كانوا فيه من جهالة وسوء حال وأوضاع مزرية، فأصبحوا بفضل الله إخواناً وكانت دهشة الأمم المجاورة لهم عظيمة جداً، وقد رأوا العرب يخرجون ويفتحون(٦).

وفي عهد خلفائه الراشدين تمكن العرب من إخضاع بلاد فارس وحتى الصين شرقاً، ثم الشام ومصر وشمال أفريقيا وبلاد الأندلس – التي هي موضوع الكتاب – وحتى بلاد وجبال البرانس جنوب فرنسا غرباً؛ وكان الفاتحون يقيمون ويشيدون المساجد وبيوت العبادة في كل مكان ينزلون فيه ويرفع فيها صوت الأذان "الله أكبر"(٧). وكان كل مكان ينزلون فيه يلاقون مقاومة شدسدة من أهالي البلاد خاصة في بلاد المغرب الأقصى وقوط أسبانيا (الأندلس) التي فتحت أخيراً على أيدي العرب.

الأندلس قبل الفتح العربي الإسلامي :

قبل الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، كان يحكمها – كما ذكرنا – القوط الغربيين (الوندال) وهم قبائل من البرابرة(٨) الذين إستولوا على أملاك الدولة الرومانية الغربية (روما). وقد كان ذلك في القرن الخامس الميلاد، وعلى وجه التحديد سنة (٤٧٦) ميلادية.

وكان المجتمع الأسباني يتبع آنذاك نظاماً عرف بنظام الإقطاع، حيث أن السكان كانت تنقسم إلى طبقة الأغنياء أو الملاك، وطبقة العمال أو الرقيق (الأقنان) وهم رقيق الأرض، وطبقة ثالثة بين الإثنين وهم الطبقة الوسطى التي لا ترقى إلى الطبقة الأولى وولا تتدنى إلى الطبقة الدنيا، وإن كانوا ليسوا – في ظل هذا المظام – أحسن حالاً من الطبقة الدنيا. وكان من جراء هذا النظام الظالم أن يسَّر الفتح القوطي في الندلس، ففتحت المدن أبوابها أمام القوط الغربيين وسلم الرومان للقوط مدنهم وبلادهم. وعندئذ أحرق الفاتحون المدن

وسبوا النساء والأطفال وذبحوا من بادر إلى ميدان القتال، هذا إلى جانب ما تعرضت له البلاد من قحط وإنتشار الأوبئة والأمراض؛ فعمت الفوضى بلاد الأندلس وإستسلموا للقوط صاغرين(٩).

حكم القوط الأندلس ثلاثة قرون من القرن الخامس الميلادى إلى القرن السابع؛ وفى القرن الأخير (السابع) وصل العرب إلى المحيط الأطلنطى وتطلعوا إلى بلاد الأندلس، وكان حكام القوط الغربيين قد أهملوا أمر التبشير بالمسيحية هناك وكذلك أهملوا أمر الأهالى ولم يحاولوا تحسين أحوالهم، فكانوا بذلك أشبه بالعصور البالية التى كانت عليها أسبانيا فى العهد الرومانى الظالم؛ بل أن الطبقة الوسطى بالذات قد جردت من أموالهم وأملاكهم بحجة ودعوى تسديد الضرائب المفروضة عليهم.

ونعم القوط بما إمتلكوه من الطبقة الوسطى التى تحول معظمها إلى أرقاء يعملون فى أراضيهم لخدمة الحكام القوطيين؛ وأمام هذا الطغيان نهج رجال الكنيسة منهج الوندال فى النهب والسلب فصارت طبقة رجال الكنيسة من الطبقات العليا الغنية، وأهملوا شئون الدين، فكان بذلك الأمر أن فتحت البلاد أمام المسلمين أبوابها؛ وليس معنة هذا أن المسلمين لم يجدوا مقاومة من قبل الأندلسيين، بل كانت المقاومة عنيفة فى معظم جنبات البلاد ولكن كانت من قبل الحكام الغربيين دفاعاً عن أملاكهم وثرواتهم، ولكن موقف الشعب والأهالى الأندلسية الأصل لم يكن بالقدر الذى يحمى بلاده من الغزو الخارجى ظناً منه أن الفاتح الجديد ربما يكون أفضل حالاً من الغازى القديم(١٠).

وهكذا كانت بلاد الأندلس مهيأة تماماً أمام المسلمين لنشر دين الله، الدين الإسلامى الذى جاء به محمد للناس كافة.

فتح الأندلس :

حاول جوليان الحاكم القوطى إقناع موسى بن نصير والى أفريقيا آنذاك من قبل الوليد بن عبد الملك (٨٩هـ/ ٧٠٨هـ) بالعدول عن القتال فى أسبانيا ويكتفى العرب بأخذ ما تحت أيديهم من أسلاب وغنائم ثم يعودون إلى بلاد المغرب، ويعود إلى بلاد المغرب تاركاً أسبانياً لأولاد غيطشة والد زوجه. هذا إلى جانب دعوة جوليان لموسى بالتعاون سوياً للتخلص من لذريق أو (روذريق)[١١].

وفى محاولة من قبل جوليان (يوليان) لكسب ود موسى بن نصير إلى جانبه ضد روذريق الذى أغتصب العرش من أولاد الملك غيطشه، أسهب وأطنب يوليان فى وصف بلاد الأندلس من حيث مزارعها وجمال مدنها ووفرة خيراتها وضعف ملوكها وأخذ يسهل عليه أمر فتحها، وأعلن عن مدى إستعداده لمساندته وأنه سوف يقوم بتجهيز وإعداد السفن اللازمة لنقل جنود المسلمين إلى البلاد وتعريفه بدروب البلاد ومسالكها. مما دفع موسى بن نصير إلى عرض الأمر على الخليفة الأموى فى دمشق الوليد بن عبد الملك، فكانت الإشارة من الخليفة إلى موسى بن نصير بأن يكون على حذر، وألا يزج بجنود المسلمين فى أرض يجهلها، وأكد عليه أيضاً التأكد من إخلاص يوليان القوطى[١٢].

عندئذ رأى موسى بن نصير أن يعتمد على عنصر البربر فى فتح هذه البلاد الأندلسية، فأرسل حملة إستكشافية بقيادة طريق بن مالك فى قوة لا تتعدى خمسمائة رجل، حيث توجه طريف بحملته تجاه الساحل الجنوبى لأسبانيا، وقد عبر البحر على متن أربع سفن من سفن يوليان، وكان ذلك فى عام ٩١هـ/ ٧٠٩م وكان طريف موفقاً فى مهمته. فقد تمكن من دخول مدينة الجزيرة الخضراء واستولى عليها؛ وتأكد من إخلاص يوليان وصحة أقواله. ورغم ذلك ظل بن نصير متخوفاً، ثم وصله جواب الخليفة يحذره المجازفة وتعريض

أرواح المسلمين للخطر وترك له أمر غزوات بسيطة. غير أن حب الفتح وتوسيع رقعة المملكة الإسلامية ونشر الدين الإسلامى دفعه لأن يقوم بأمر الفتح جدياً. وبهذه المناسبة ندفع عن العرب ونندافع عن أنفسنا كمسلمين موقف القيادات الإسلامية فى عمليات الفتح ما ينسبه إليهم مؤرخو الغرب والإفرنج على وجه الخصوص من أن حب المال وحب القتال كان أقوى عامل يشجع الفاتحين المسلمين على فتح البلاد عنوة(١٣).

مراحل الفتح الإسلامى فى بلاد الأندلس :

ففى عام ٩٣هـ/ ٧١١م علم موسى بن نصير أن أموراً داخلية تشغل ملك القوط رونريق فى شمال بلاده، حيث قامت ثورة فى مقاطعة "الباسك" ولقد دونت الأساطير الأسبانية القديمة قصة وأسباب هزيمة رذريق فقالت: "..... كان من أمر فتح الأندلس أن طليطلة كانت دار الملك وكان له بيت مغلق متحامى الفتح، يلزمه من ثقات القوط قوم قد وكلوا به كى لا يفتح يعهد الأول بذلك للآخر. كلما ملك منهم ملك زاد على ذلك البيت قفلاً فلما ولى لذريق الأخير عزم على فتح لاباب والإطلاع على ما فى البيت، فأعظم ذلك أكابرهم وتضرعوا إليه فى الكف فأبى وطن أنه بيت مال ففض الأقفال عنه ودخله فأصابه فارغاً لا شيء فيه إلا تابوتاً عليه قفل فأمر بفتحه أيضاً فوجده أيضاً فارغاً ليس فيه إلا شققى مدرجة قد صورت فيها صور العرب على الخيول وعليهم العمائم وهم متقلدوا السيوف رافعوا الرايات وفى أعلاه كتابة عجيبة فقرئت فإذا هى: "إذا كسرت هذه الأقفال عن هذا البيت وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور فإن الأمة المصورة فيه تغلب على الأندلس وتملكها"(١٤).

صحت النبوءة إن كان هناك نبوءة بهذا الشكل: أرسل موسى بن نصير إلى طارق بن زياد قوة وهو فى بلاد الأندلس، عددها سبعة آلاف من أهل المغرب. ونجح طارق فى مهمته أكثر مما كان يظن. نظل طارق بجنده على

صخرة السبع التى عرفت فيما بعد بجبل طارق، ومن ثم إستولى على مدينة كارتيه وتقدم فى داخل البلاد، حتى لقى جيش عظيم من القوط، يقوده ملكهم لملاقاة طارق ومن معه من الجنود. وتلاقى الجيشان على نهر صغير سماه العرب نهر بقه. وهذا النهر يصب فى المضيق بالقرب من رأس الطرف الأغر، وكان هذا النهر يعرف عند الأفرنج باسم "جواديليت". وكان جيش القوط ستة أضعاف جيش طارق بن زياد. ولكن الرعب كانوا كعادتهم أولى بأس شديد وشجاعة وإخلاص "قوم أغنتهم نفوسهم عن العدة وقلوبهم عن العدد" وكان جيش القوط من رقيق الأرض يعوزهم التدريب والنظام، وقد ملأ الخوف صدورهم وكان الكثير من أشرافخهم ممالئين للعرب ظناً منهم أن فى ذلك وسيلة تعيد الملك والبلاد إلى أولاد غطشة ملكهم المخلوع(١٥).

رأى العرب جيش الغرب فى عدده العظيم ورأوا روذريق يتقدمهم فوجموا، فخطبهم طارق بن زياد خطبته المشهورة فزال ما دخل نفوسهم ووقالوا: قطعنا الآمال ما يخالف ما عزمت عليه فإحضر إليه فإننا معك وبين يديك؛ وإنقضوا على أعدائهم وبدأ القتال الذى إستمر سبعة أيام صبر فيها جيش المسلمين صبر الكرام، ثم خرج آل غيطشة على ملكهم فوقع الخلل فى صفوف القوط فى اليوم التالى، ووجد القوم حذاءه وجواده على ضفة النهر مما يدل على إنتحاره غرقاً وحملته المياه إلى مصب النهر فى المحيط الأطلسى؛ وإعتقد الأسبان أنه سيعود يوم يبرأ من جروحه ويقود العالم المسيحى لقتال المسلمين. ويقول بعض المؤرخين أن الذى قتله طارق بن زياد إذ ضربع بالسيف على رأسه فهشمه(١٦).

عندئذ، كتب موسى بن نصير يبشر الخليفة الوليد بن عبد الملك بالنصر الذى أحرزه المسلممون على روذريق. والواقع أن المسلمين لم يلقوا من المقاومة – كما أسلفنا – إلا الأمر الخفيف فسهل عليهم إمتلاك البلاد بعد إخضاع ثورات متفرقة قامت بها بعض البلدان؛ وما كان طارق بن زياد ليضيع

وقته سدى فمد فتوحاته وتوالت إنتصاراته ولم يعبأ بأمر مولاه موسى بن نصير، عندما أرسل إليه ألا يتقدم أكثر مما وصل إليه، ولم يكن من باعث لهذا الأمر سوى ما دخل قلب مموسى من حسد وغيرة، على ما ناله طارق من نصر لم ينله هو من قبل أو يدون له[١٧].

فتوحات طارق داخل الأندلس :

أرسل طارق رجل من رجاله إلى قرطبة يدعى مغيث على رأس سبعمائة فارس، وإنتظر مغيث حتى أسدل الليل ستاره وإتخذ من ظلمة الليل حجابا وقصد المدينة فوصلها قبل أن يعلم أهلها بقدومه، وعند قدومه بدأت السماء تمطر ثلجاً، أخفى صوته وقع حوافر الخيل فعد المسلمون ذلك مساندة إلهية، وأخذوا يدورون حول أسوار المدينة وباغتوا الحراس وفتحت المدينة أبوابها فدخل الجيش وإمتلك المدينة بدون قتال. ولما تنبه حاكم المدينة لما حدث لجأ إلى دير للرهبان وإختفى به مع بعض رجاله وظل متخفياً ثلاثة أشهر ثم سلم نفسه وجعل العرب الأمر فيها لليهود لما كان من إخلاصهم إلى جانب المسلمين؟!

ومن تلك الحادثة كان اليهود يسيرون فى أثر الفاتحين ويشهد مؤرخوا الإفرنج بحسن معاملة العرب لجميع الأجناس والأديان مما يبين مما يتميز به حكم المسلمين على حكم أمم القرون الوسطى، ومما جعل الأهلين عامة يشتركون فى إقامة حضارة الأندلس من علوم وفنون وهندسة.

إستمر طارق بن زياد فى فتوحاته فى الأندلس، فلم يتوقف فاستولى على أرخيدونيا وكان أهلها قد خرجوا منها وإعتصموا بالجبال ثم سقطت مالقة بعد ذلك فى أيدى المسلمين. ثم هاجم البيرة وكان يثودمير القوطى يدافع عن ممرات مرسية دفاعاً مستميتاً حتى التحم بالمسلمين فى معركة فاصلة نصر الله فيها الإسلام، ومات ممن المسيحيين خلق كثير وفرّ ليثودمير وبعض رجاله إلى

مرسية، ولما وجد أن رجالها قد ماتوا فى ميدان القتال جعل النساء يتلثمن وأعطاهن عصياً طويلة وأقامهن على الأسوار وذهب إلى طارق وأعلمه باستعداده لملاقاته والدفاع عن المدينة ورأى ومن معه كثرة عدد المدافعين، ثم قال لطارق، لو أنه فضل السلم لسلمه المدينة على شريطة أن يسمح لرجالها بأخذ متاعهم والخروج منها سالمين. فوافقه طارق، زوما لبث أن خرج منها النساء يتعثرن فى أثيابهن، فأراد العرب سبيهن فذكرهم زعيمهم (طارق) بما كان من وعده، فكف العرب عنهم. وسُرَّ طارق لهذه الحيلة وجعله من قبله حاكماً على المدينة (مرسية) وسار الخبر بما كان فلقبهم المسيحيين بفرنسا غرناطة الأفاضل.

ومن مرسية خرج طارق إلى طليطلة عاصمة البلاد حيث أشراف القوط، وكانت غايته تنحصر فى إبادتهم فلما سلم اليهود المدينة لم يعثر فيها على شريف وكانوا قد لجأوا إلى جبال إستورقة، وكان بالمدينة بعض الخونة أمثال يوليان فعينهم المسلمين فى وظائف حكومية. وهنا أصبحت البلاد مفتحة الطرقات أمام المسلمين وصارت من أملاك الخلافة الإسلامية فى دمشق(١٨).

أما فيما يتعلق بموسى بن نصير فإننا نقول: أنه فى صيف ٩٤هـ/ ٧١٢م، دخل الأندلس موسى بن نصير بجيشه العربى فى ١٨ ألف مقاتل لعل التاريخ يدون له شهرة تجعل فضل الفتح الاسلامى لبلاد الأندلس يسند إليه؛ وكان نصيبه من الفتح أن يجعل البلاد تخلد إلى السكينة ونشر الأمن على ربوعها وتوجه إلى طليطلة. وفى طريقه إليها دخل قرمونة وشدونه (سيدونيا) ومارده وأخيراً تقابل مع طارق بن زياد وكان قد خرج للقائه إجلالاً له، ولكن موسى بدلاً من أن يشكره بادره بالسوط على وجهه وأنبه على ما كان منه وعصيان أمره وكانت مقابلتهمتا فى مدينة "ترافيرا" ثم إفترقا فصار موسى شمالاً وعبر جبال الشارة ودخل سلامنكا ثم وصل إلى إستورقه وأخضع إقليم جليقية ثم عاد شرقاً إلى قشتاله ودخل مدينة سرقسطة حيث وجد طارقاً وكان قد

سار شمالاً إلى مدريد ثم إلى تلك المدينة ثم إفترقا ثانية وسار موسى شمالاً مخترقاً أرغونة ونافار ووصل إلى جبال إلبرت وتسلقها وشاهد أرض الفرنجة (غاليا - أى فرنسا) ومياه المحيط وأثناء ذلك كان طارق قد سار من سرقسطة إلى طرطوشة وعبر نهر إيرو ثم قصد طراقونة ثم فتح برشسلونة وجيرونا وأخيراً عاد أدراجه وقصد بلنسية. وهنا عاد إليه موسى بن نصير، وكان الوليد بن عبد الملك أرسل إليه رسولين الواحد تلو الآخر يأمرانه بسرعة العودة إلى دمشق. وفى طريق عودته جنوباً قابل طارق بن زياد فصحبه وسارا معاً جنوباً إلى "قادس" وعبرا البحر إلى بلاد المغرب، وسارا إلى مصر ومنها إلى الشام حيث مقر الخليفة فى دمشق، بعد أن إستخلف على الأندلس إبنه عبد العزيز، وكان خروجه سنة ست وتسعين (٩٦هـ). وفى بعض الروايات أن طارقاً سبق إبن نصير إلى دمشق. وإختلف المؤرخون فى وقت وصولهما إلى دمشق. فيقول بعضهم أن وصوولهما كان آخر أيام الخليفة الوليد بن عبد الملك؛ ويقول آخرون كان وصولهما عقب وفاة الخليفة. وأيما كان الأمر فقد إدعى كل منهما لنفسه فمتح بلاد الأندلس، فطلب الخليفة البرهان فقدم له موسى الأسلاب وفيما بينها مائدة سليمان، وكانت هذه المائدة بطليطلة وطارق أول من إستولى عليها ومنه أخذها موسى لنفسه، وهنا طلب طارق بن زياد إلى الخليفة أن يسأله عن رجل من ذهب للمائدة مفقودة فلم يجبه موسى بشيء، فأخرجها طارق وبرهن على أنه الفاتح للأندلس. ومما يؤسف له نهاية هذين القائدين العظيمين، فقد أمر الخليفة بعزل طارق وسجن بن نصير ثم خلىَّ سبيله وإنتهى تاريخهما ومات موسى بن نصير فى حالة فقر شديد، وقد فرض عليه سليمان غرامة ذهبت بما يملك هو وأفراد أسرته.

أما عبد العزيز بن موسى بن نصير فقد دس عليه سليمان بن عبد الملك من قتله لإتهامه بزواج سيدة مسيحية راقه جمالها وطلب إلى الناس أن يحنواالرؤوس له إجلالاً وإحتراماً فأبت عليهم ذلك عزة نفوسهم فغدروا به.

غير أننا نرى أن نهاية طارق بن زياد وموسى بن نصير على نحو ما سبق لا يمكن تفسيره إلا أن الوليد بن عبد الملك خشى على أن يستقلا الأميرين بالأندلس بعيداً عن الخلافة الإسلامية، خاصة وأن الأندلس كانت بعيدة عن العاصمة دمشق مقر الخلافة الإسلامية[١٩].

العرب وأهل البلاد :

لبث الأندلس فى حكم العرب والمسلمين ثلاثمائة سنة ولم تكن تلك المدة عصر سكون فى كثير من أوقاتها إذ علاوة عما كان بين العرب أنفسهم من شقاق، فكثيراً ما سبب القوط فى الأقاليم الشمالية إضطرابات. ولقد كان من شر ما إرتكبه العرب والمسلمين من أخطاء، أن تركوا بقايا القوط وشأنهم على شيء من الإستقلال، وإكتفوا بما إمتلكوه، وأقاموا مملكة مقرها قرطبة فخار العصور الوسطى والشمس المشرقة الوحيدة فى ظلام أوربا الحالك فى تلك العصور.

لقد حكم العرب بلاد الندلس وفقاً للشريعة والدستور الإسلامى، فأقاموا العدل، وإتبعوا العقل الراجح والحكمة العالية فى إدارة شئون البلاد؛ وجعلوا لهم من الأسبان والأغريق مستشارين، ولقد وجد الأسبان أنفسهم أحسن حالاً مما كانوا عليه فى عهد حكامهم المسيحيين، ووفر لهم العرب أسباب معيشة هادئة آمنة، ولم يتدخلوا فى ديانتهم وتركوا لهم التقاض أمام قضائهم والإنصياع لقوانينهم وجعلوا منهم عدداً ممن يجبون الضرائب وخفضوا الجزية على أفراد الطبقة الوسطى التى عانت من حكم القوط الغربيين (الوندال) من قبل، ورفعوا ما كان عليهم من واجبات، وكان على من إمتلك منهم أرضاً خراجها.

وفرضت الجزية على من يستطع دفعها وكانت فيما بين ١٢، ٤٨ درهماً سنوياً تدفع على أقساط شهرية فسهل دفعها؛ وطبعاً إقتصرت على المسيحيين واليهود. أما الخراج فتساوى فى دفعه العرب واليهود والمسيحيون، وقدر الخراج حسب صلاحية الأرض للزراعة. ولم ينتزع العرب ما كان للقوم

من ملكيات وإكتفوا بمصادرة أملاك الكنيسة وأملاك من فرَّ من أشراف القـوط. ومما يذكر للعرب أنهم حرروا رقيق الأرض وقضوا على نظم العبوديـة فـى العصر الإقطاعى، وإقتصر واجب الزراع على ان يقدم للمالك ثلث المحـصول أو فيما بين ذلك إلى أربعة أخماس. ولقد نالت بعض المدن حرية تامة فى إدارة شئونها مالياً وزراعياً مقابل دفع جزيـة معينـة ونالـت ذلـك مدينـة نـاردة وغيرها[٢٠].

ولقد سمح العرب للأسبان أن يعتنقوا ما ساءوا من ديانات ولم يكرهوهم أبداً على إعتناق الإسلام ما داموا يدفعون الجزية وهم صاغرين. وبفضل مالقيهم من معاملة حسنة وعدالة، دخل الكثير منهم فى الإسلام طوعاً لا كرهاً ومما يدل على رضاهم ان قس "باجة" عقد لعبد العزيز بن موسى بن نصير على أرملـة رونريق (كناها العرب بأم عاصم). ومن ذلك نرى أن فتح العرب لبلاد الندلس كان نعمة على ساكنيها خاصة ونوراً وهدى على أوربا عامة[٢١].

الهوامش :

(١) مجهول المؤلف؛ أخبار مجموعة ص٢٣. طبعة الإبياري، درا الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٢م.

(2) - Gamez Nogales; La Filozofia Musulmana, pp. 7–8.

(٣) إبن عذارى، البيان المغرب، جـ٢، ص٣٧.

(٤) أوجه وألفت نظر القارئ إلى معرفة المقاطعات والمدن الأسبانية بشكل أفضل إلى الأطلسي العربي، خاصة خريطة أوربا الغربية.

(5) – Sanches allbrnoz; Historia de Espana Muslmana, vol, I, pp.19 – 20.

(٦) عبد اللطيف عبد الهادى (دمتور): موسوعة التاريخ الإسلامي، جـ٢، (عصر النبوة). ط. الاسكندرية، ٢٠٠٩م.

(٧) ابن هشام، سيرة بن هشام "سيرة سيدنا محمد ﷺ ، جـ١، ص١٧٩.

(٨) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص٧٨.

(٩) المرجع السابق، جـ١، راجع ما يتعلق بعناصر الوندال فى اوربا ودوافع وجهتهم إلى شمال الأندلس.

(١٠) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، نفس الصفحات.

(١١) إبن القوطية: إفتتاح الأندلس، ٢٢- ٢٣.

(١٢) نفسه، نفس المصدر والصفحات.

(١٣) عبد الرحمن على الحجى، التاريخ الأندلسى، ص٣٧- ٣٨. وراجع كتابى "موسوعة التاريخ الإسلامي، جـ٩، ١٠.

(١٤) ابن القوطية، المرجع السابق، نفس الصفحات.

(١٥) عبد العزيز سالم، تاريخ الأندلس "مراحل الفتح". وراجع كتابى موسوعة التاريخ الاسلامى (جـ٦، ٧).

(١٦) المقرى، نفح الطيب، المجلد الأول، ص٩٢- ٩٣، وراجع أحمد مختار العبادى، ص٨٧ – ٩٣ وتتبع فى هذا الكتاب القيم مراحل الفتح فى بلاد المغرب والأندلس.

(١٧) أحمد مختار العبادى، المرجع السابق، "مراحل الفتح".

(١٨) نفسه، نفس المرجع "مراحل الفتح". وراجع كتاب موسوعة التاريخ الاسلامى، مراحل الفتح فى الجزءين جـ٦، ٧.

(١٩) المراكشى، المعجب فى تاريخ أخبار المغرب، ص٤٣ وما بعدها. وراجع ا لعبادى، المرجع السابق، مراحل الفتح فى الأندلس.

(20) – Sanchez, Espanaun enigma Historico; vol, II, p.21.

(٢١) ابن عذارى، البيان المغرب، جـ٢، ص٤١ – ٤٢.

الفصل الأول
الأندلس فى عصر الولاة

- عبد العزيز بن موسى بن نصير.
- ولاية السمح بن مالك الخولانى.
- عنبسة بن سحيم الكلبى.
- ولاية عبد الرحمن بن عبدالله الغافقى.
- معركة بلاط الشهداء، ١١٤هـ / ٧٣٢م.
- ولاية عبد الملك بن قطن الفهرى.
- ولاية عقبة بن الحجاج السلولى.
- ولاية عبد الملك بن قطن للمرة الثانية.
- بلج بن بشر وثعلبة بن سلامة.
- ولاية أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبى.
- آخر الولاة، يوسف بن عبد الرحمن الفهرى.
- أحوال بلاد الأندلس قبل قيام الدولة الأموية بالأندلس.

الأندلس فى عصر الولاة :

لقد تولى إمارة الأندلس بعد فتحها إلى أن دخلها عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) حوالى خمسة عشر أميراً فى فترة قاربت نصف قرن من الزمان، وكان أولهم عبد العزيز بن موسى بن نصير، الذى ولاه أبوه قبل أن يغادر الأندلس، وكان آخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى.

وقد مكث بعضهم فى الإمارة عدة أشهر، ومكث بعضهم بضع سنوات. وليس المهم هو معرفة أسماء هؤلاء الأمراء جميعهم ومدة حكمهم؛ وإنما المهم معرفة الأعمال المهمة التى حدثت فى عهدهم، والنتائج التى ترتبت عليها ومدى تأثير هذه الأعمال فى إستقرار حكم المسلمين وقوتهم أو فى ضعفهم وتمزيق شملهم. ثم إلقاء نظرة على النزاع المستمر بين العرب بعضهم مع بعض وبين العرب والبربر. وأخيراً محاولة التوصل إلى معرفة أسباب وقوف المد الإسلامى فى أوروبا والنتائج التى ترتبت عليه.

وتجدر الإشارة هنا، أننا سوف نسقط من حساباتنا الأمراء الذين لم تتعد ولايتهم بضعة أشهر ولم يكن لهم دور مؤثر فى تاريخ الإسلام فى الأندلس.

أولاً - عبد العزيز بن موسى بن نصير :

تولى عبد العزيز بن موسى بن نصير إمارة الأندلس بأمر من والده موسى - الذى ربما كان سجنه من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك سببه هذا الإجراء دون الرجوع إلى الخليفة - بن نصير قبل توجهه للمشرق لمقابلة الخليفة. وقد إتخذ عبد العزيز هذا من أشبيلية مقراً لولايته. وقد قام هذا الأمير بأعمال جليلة ثبتت أقدام المسلمين هناك وعبر عنها الرازى بقوله: "...... ضبط سلطانها وسد ثغورها وإفتتح مدائن كثيرة، وكان من خير الولاة، إلا أن مدة ولايته لم تطل لوثوب الجند عليه[1] وقتلهم له الأشياء نقموها عليه ... وقد مكث فى ولايته سنة وعشرة أشهر"[2].

والرازى هنا يجعل سبب قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير أشياء نقمها عليه الجند بينما يذكر بن عبد الحكم "ان عبد العزيز بعد أن تزوج ابنة رذريق ملك الأندلس القوطى الذى قتله طارق بن زياد طلبت منه أن يعظمه الناس ويسجدون له كما كانوا يفعلون مع أبيها. وعند ذلك جعل نقباً قصيراً فى باب الحجرة التى يدخل عليه فيه الناس حتى ينحنوا له أثناء دخولهم، وبلغ الناس أنه إنما نقب الباب لهذا الغرض. وزعم بعض الناس أن إمرأته نصَّرَتْهُ؟! فكان سبب قتله"(٣) وابن عذارى يروى عن الواقدى أنه قتل لأنه خلع سليمان وهم بالإستقلال بالبلاد(٤) وأنه إنتدب لذلك رجلاً من أفريقية وأعطاهم كتاباً بالولاية لمن يقتله .... إلخ".

وسياق الرواية يدل على انها موضوعة، وأن الخليفة كان بإمكانه أن يرسل إلى عبد العزيز بن موسى للشخوص إليه فى دمشق مثل أبيه من قبل. وله أن يرسل خطاباً بعزله فإن أبى كان الطرد والحبس وكان للخليفة حجة قوية فى تصرفه. أما ما تذكره هذه الرواية فشبهة الوضع فيها ظاهرة وجلية.

وقد يكون السبب فى إغتياله أنه ساء التصرف وقسى فى المعاملة مع بعض الجند وأن الذين إغتالوه كانوا يريدون الإستيلاء على الإمارة مما جعلهم يغتالونه أثناء صلاة الصبح(٥) وبعدما أصبح الناس أعظموا ما حدث وأخرج قتلته كتاباً بأن سليمان أمرهم بذلك، فلم يقبله أهل الأندلس لعلمهم أن هذا الكتاب منقول على الخليفة سليمان بن عبد الملك لأنه لا يأمر بمثل ذلك.

ولذلك يقول صاحب أخبار مجموعة: "انه لما بلغ الخليفة سليمان قتل عبد العزيز شق ذلك عليه، وأمر عبيد الله بن يزيد عامله على أفريقية بأن يتشدد فى قضية عبد العزيز بن موسى بن نصير، وأن يقبض على حبيب ابن أبى عبيدة وزيادة ابن النابغة اللذين قتلاه وأن يقفلهما إليه مع من شاركهما فى قتله من وجوه الناس"(٦).

ومما يدل على أن الخليفة سليمان لم يأمر بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير أن الناس فى الأندلس لم يرضوا عن قتله كذلك إختيارهم لأيوب بن حبيب إبن أخت موسى بن نصير والياً على الأندلس، فمكث والياً عليها ستة أشهر حيث خلفه الحر بن عبد الرحمن الثقفى والياً عليها من قبل محمد بن يزيد والى أفريقية فقدم الأندلس أواخر سنة ٩٧هـ/ ٧١٥م فى جماعة من وجوه أفريقية فنظم أمورها ونقل عاصمة الإمارة من أشبيلية إلى قرطبة. ويذكر المؤرخ كوندى الأسبانيولى أن الحر الثقفى هو الذى تجاوز حدود الأندلس إلى بلاد الفرنجة ونواحى أرغونة فسبى وغنم وقفل بالأسرى والغنائم وقد أدى توجيه الجهود إلى بلاد الإفرنج إلى إنتعاش حركة المقاومة المسيحية التى يتزعمها "بلاي" المعتصم فى جبال إستوريا حيث جمع بقايا حزب المقاومة وثار به فى تلك النواحى مما إضطر الحر الثقفى إلى أن يعود أدراجه ليقمع هؤلاء الثائرين". وبينما هو مشغول بذلك عزلة الخليفة عمر بن عبد العزيز وولى على الأندلس السمح بن مالك الخولانى الذى وجه جهوده إلى الاستيلاء على جنوب فرنسا[٧].

ولاية السمح بن مالك الخولانى :

قبل الحديث عن فترة ولاية السمح بن مالك، يجدر بنا أن نعرف الوضع الذى كان سائداً فى تلك البلاد؛ إذ أننا نجد أن فرنسا أو ما تعرف بالأرض الكبيرة كما يسميها العرب، كانت تسمى فى التاريخ الرومانى بـ "غاليا أو غاليس"، وبعد أن زال عنها الحكم الرومانى توزعت فرنسا إلى قوى وكيانات مختلفة. فكانت سبتمانية تابعة للقوط الغربيين، أما مقاطعة أقطانيا (اكوتين) وهو الجزء الذى يحده مهر اللوار شمالاً وإلى جبال البرانس جنوباً، فكانت دوقية مستقلة. كذلك كان هناك أقليم البروفانس الواقع شرقى إقليم سبتمانية. أما أقليم برجنديا فيقع شرقى نهر الرون. فإذا ما نظرنا إلى شمال نهر اللوار حتى ألمانيا الحالية فإننا نجد مملكة تسمى مملكة الفرنجة (الميروفنجية). ومن ذلك يتبين لنا أن فرنسا لم تكن تحت حكم دولة واحدة ذات سلطة مركزية وإنما كانت مجزأة

إلى قطاعات عدة عندما وجه المسلمون نشاطهم نحو الإستيلاء عليها.

وكان القائد الذى وجه جهده إلى مد نشاط المسلمين إلى جنوب فرنسا هو السمح بن مالك الخولانى الذى ولاه الخليفة عمر بن عبد العزيز على الأندلس وأمره "أن يعمل ويحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق او يخمس أى (١/٥) ما غلب عليه ممن أرضها وعقارها ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها[٨].

وكان هدف عمر بن عبد العزيز من تولية السمح بن مالك عليها ان يجعلها ولاية مستقلة تابعة لمقر الخلافة مثل ولاية أفريقية ومصر؛ وذلك إهتماماً بشأنها، ولكى يبذل فيها جهداً كبيراً عندما يشعر بتبعيته مباشرة لمقر الخلافة مما يحمله على بذل الجهد فى الإعتناء بولايته لعدم تبعيته لوالى آخر يعزله بل يتبع الخليفة رأساً. إلا أننا لا نجد هذا الأمر يستمر بعد ذلك، بل نجد والى أفريقية هو الذى يسند إليه أمر الإشراف على والى الأندلس محتفظاً بتبعية الأندلس لوالى أفريقية ما عدا ولايية يحى بن سلمة الكلبى الذى قدم الأندلس والياً من قبل أمير المؤمنين هشام بن علد الملك فى أواخر سنة ١٠٩هـ/ ٧٣٠م.

ويذكر ابن عذارى ان عمر بن عبد العزيز كان يرى "نقل المسلمين من الأندلس وإخراجهم منها لإنقطاعها عن المسلمين وإتصالهم بأعداء الله الكفار". فقيل له: "إن الناس قد كثروا فيها وإنتشروا فى أقطارها فعدل عن رأيه ذلك"[٩].

وإذا كان هذا هو رأى عمر بن عبد العزيز حقاً فربما كان يخاف على المسلمين هناك لتصوره أنهم أقلية قد يتمكن الكفار لكثرتهم من التغلب عليهم وطردهم او قتلهم، فلما وضح له كثرة الناس وإستقرارهم بها أعرض عن رأيه؛ ولذلك طلب من واليه أن يكتب له يصف الأندلس وأنهارها حتى يزيد إطمئنانه على أوضاع المسلمين بها. وقد يقال غير ذلك من الآراء فى تعليل رأى عمر بن عبد العزيز فى نقل المسلمين من الأندلس[١٠].

ولكننا نجد الأمير شكيب أرسلان ينقل عن كرينو "أن عمر بن عبد العزيز كان قد هاله بقاء ذلك العدد الكبير من المسيحيين فى تلك البلاد وإستشعر من ورائهم خطراً على مستقبل المسلمين، ففكر ى إجلاء مسيحى أسبانيا وجنوبى فرنسا إلى أفريقية حيث لا يكون من وجودهم هناك تهلكة على الدولة؛ إلا أن السمح بن مالك الخولانى طمأن مخاوف الخليفة قائلاً: "إن الإسلام ينمو وينتشر وتمتد شماريخه بسرعة فى أسبانيا وأنه لا يعد اليوم الذى تصير فيه تلك البلاد بأجمعها تابعة لدين محمد؛ وهذا الرأى فى نقل مسيحيو أسبانيا إلى أفريقية لا نجد له أصلاً فى المراجع العربية ولسنا ندرى منْ أين جاء به رينو؟ بل إننا لا نقتنع أبداً بهذا الرأى، لأنه لا يعقل أن يطلب أى إنسان وليس الخليفة نقل أناس من بلادهم جملة إلى بلاد أخرى، لأن ذلك أمر مستحيل.

ومبلغ علمى انه لم يسبق فى تاريخ المسلمين أن أجلى قوم من ديارهم لكثرة عددهم بالنسبة لعدد المسلمين الفاتحين. وأنه لم يجل عن دياره سوى اليهود عندما حملوا على ترك الجزيرة العربية لا لكثرة عددهم وأنما لإثارتهم الفتنة والدسيسة والقلاقل ضد المسلمين(١١).

على أية حال، قدم السمح بن مالك إلى الأندلس والياً عليها من قبل عمر بن عبد العزيز فى رمضان سنة ١٠٠هـ/ ٧١٩م، بعد إختبار عملى له من قبل الخليفة عمر ثبت فيه صلاحه وفضله. فقام بعدة إصلاحات داخلية دلت على حنكته الإدارية والسياسية وتمكن بها من نشر الأمن والنظام فى ربوع بلاد الأندلس. فقد قام بتوجيه من الخليفة عمر بن عبد العزيز بإحصاء الأجناس والمذاهب التى كانت تقطن البلاد؛ وقيامه بعملية مسح لمدن الأندلس وجبالها وأنهارها وبحارها، مع بيان لطبيعة الأرض ومنتجاتها ومواردها بالتفصيل. وحدد خراجها بنسبة الخمس. وإهتم بإزالة الخلافات والفتن المنتشرة بين الناس. ووجه جهداً صادقاً لإصلاح الجيش وإدارته، وجعله على درجة عالية من الكفاءة لخوض غمار الحروب. وثبت فيه من روحه الممتلئة بالإيمان وحب الجهاد.

وبعد أن إطمأن السمح بن مالك إلى إستقرار الأمن والأمور فى الأندلس داخلياً وإلى إستعداد الجيش لخوض غمار الحروب، توجه إلى المناطق الشمالية من الأندلس فهزم عصاة المسيحيين وأجبرهم على اللجوء إلى المعاقل الجبليـة فى الإسترياس. ثم زحف على سبتمانيا مخترقاً جبال البرنية من الجهة الـشرقية وتمكن من إستعادة أربونة وقرقشونة ومعظم المدن والحصون التابعـة لإقلـيم سبتمانية وقهر جميع القوى لاتى حاولت مقاومته او الوقوف فى وجهه. ولا شك أنه فقد بعض جنوده فى الإستيلاء على تلك الحصون والمدن. وترك بعضاً آخر من الجنود لبسط الحماية الإسلامية على تلك البلاد والبقاع. ويذكر رينو أنه جاء فى تاريخ الرهبان الذين شهدوا تلك الوقائع "أن العرب هدموا ديـر (جوسـل) بقرب بيزية؛ ودير (بوزيل) بقرب منهما ودير (ضـجيل) بقـرب آل، والـدير المشهور المسمى بدير (التراتيل) بقرب آغيتمورت وغيرها ..." فدهم العـرب هذه الديار كلها بغتة منحدرين عليها إنحدار العقبان بحيث لم يقدر الرهبان الذين فيها على أن يخلصوا نجياً برقابهم وبـبعض ذخـائر قديـسيهم التـى كانـت عندهم(١٢).

وما نظن أن ذلك قد حدث إلا إذا كان الرهبان قـد قاومـت المـسلمين وقاتلتهم فإستولوا على هذه الأديرة عنوة. ورأى المسلمون هدمها حتى لا يتخذها الأهالى معاقل لمقاومة المسلمين مرة أخرى؛ ولو كان الرهبان سـلموا بـدون مقاومة ما حدث لهم ذلك وما إستولى المسلمين على ذخـائرهم او أملاكهـم او أصابوهم فى أرواحهم بسوء. ولذلك نجد رينو (المؤرخ) يعود فيعتـرف بـذلك حين يقول: "وكان هؤلاء (يعنى المسلمين) لا يسيئون معاملة الذين يدخلون فـى طاعتهم بدون مقاومة ويكفونهم القتال"(١٣).

على أن السمح بن مالك بعد أن إنتهى من الإستيلاء على إقليم سبتمانيا الذى كان تابعاً للقوط الغربيين (الوندال)، وبعد أن حـصن أربونـة عاصـمة سبتمانية وعزز حاميتها لوقوعها على البحر؛ توجه ببقية جنوده إلى الغرب نحو

مجرى الجارون باسطاً سلطان المسلمين على كل المدن والحصون التـــى فـــى طريقه حتى وصل إلى طرطوشة (تولوز) عاصمة إقليم اكوتين الذى إستقل بـــه الدوق أودو؛ فضرب السمح عليها الحصار. ولكن قبل أن يتمكن من فتحها توجه له الدوق اودو بجيش عظيم يبلغ عشرة أمثال الجيش الذى مع الـــسمح، فـــإلتقى الجمعان بظاهر طرطوشة فى التاسع من ذى الحجة سنة ١٠٢هـــ/ ٩ يونية سنة ٧٢١م ودارت معركة رهيبة بين جيشين غير متكـــافئين. غيـــر أن المـــسلمين أظهورا من ضروب الشجاعة والجسارة مثلاً نادراً وصمموا على الإنتـــصار أو الاستشهاد وقد نجح كل فريق فى أن يحقق تفوقه حيناً بعد حين؛ غير أن السمح بن مالك أصابه رمح فى رقبته خرَّ على أثره صريعاً فى أرض المعركة فـــأثر ذلك فى نفوس المسلمين الذين أرهقهم طول النضال مع كثـــرة جـــيش عـــدوهم وحسن إستعداده فإضطرب جيش المسلمين وإختـــل نظامـــه. ولكـــن الجـــيش الإسلامى إختار عبد الرحمن الغافقى لتولى القيادة العامة. فتمكن عبد الـــرحمن من الإنسحاب بالجيش إلى المأزق الذى أحاط به بمهارة نادرة منعت عدوه مـــن إلحاق الهزيمة به حتى وصل إلى أربونة التى صارت قاعـــدة للمـــسلمين فـــى الشمال فثبت أقدام المسلمين فيها وظل يدير شئون الأندلس إلى أن قدم عنبسة بن سحيم الكلبى والياً على الأندلس من قبل بشر بن صفوان والى أفريقيـــة؛ حيـــث عادت الأندلس ثانية تابعة لأفريقية فى عهد الخليفة يزيد بن الوليـــد بـــن عبـــد الملك(١٤).

ولاية عنبسة بن سحيم الكلبي :

تولى عنبسة بن سحيم الكلبى قيادة الأندلس فى صفر ســـنة ١٠٣هـــــ / ٧٢٢م، وسار على سنة سلفة فى العناية بالأمور الداخلية فى الولاية أولاً غنظم الخارج؛ وقسم الأراضى بين المسلمين بدون جور على الأراضى التى لها ملاك أصليون ممن الأهالى. وكان يأخذ العشر من الذين خضعوا للمسلمين بدون قتال والخمس ممن لم يخضعوا إلا بالسيف. وطاف عنبـــسة فـــى مختلـــف الـــبلاد

والمقاطعات ينظر فى مظالم الناس وينشر العدل بينهم بدون تمييز بين المواطنين مختلفى الأديان(١٥).

وقد ثار عليه أهالى طرسونة فزحف إليهم وتمكن من إحباط ثورتهم ودك حصونهم وإقتص من زعمائهم. وبذلك إستقرت أحوال بلاد الأندلس داخلياً، وإستتب فيها الأمن والعدل والنظام. وقد قضى فى سبيل ذلك حوالى العامين.

وفى سنة ١٠٥هـ/ ٧١٨م ولى وجهه شطر فرنسا بجيش من خيرة المقاتلين أهل النية فى الجهاد والحسبة فى الثواب أعده لمتابعة الجهاد فاخترق جبال البرنية وإسترد معاقل المسلمين التى فقدوها بعد هزيمة طلوشة وإستولى على قرقشونة ونيمة وغيرهما من الأماكن الهامة وخافته جاليات القوط المجاورة فتحالفوا معه وتركوا محالفة الإفرنج. ولذلك يذكر المؤرخ الفرنسى رينو أن إنتصارات عنبسة تعود إلى اللياقة وحسن الإدارة أكثرها مما تعود إلى القوة. كما أن جهوده التى بذلها لإكتساب ثقة الأهليين قد قوت من مركز ومكانة العرب فى جنوب فرنسا(١٦).

وقد عامل عنبسة الأسرى الذيين أسرهم من المدن الفرنسية معاملة حسنة وأرسلهم إلى برشلونة فساعد ذلك على إيجاد روابط الود بين المسلمين وأهالى بلاد الأندلس.

وقد تابع عنبسة سيره على الساحل حتى وصل إلى نهر الرون، وبذلك إستولى على إقليم ليون ووصل إلى أوتون فى أعالى نهر الرون، وغزا مدينة سانس وقويت شوكتهم فى جنوب فرنسا حتى أن أودو دوق اكوتين خشى أن يهاجمه المسلمون مرة أخرى فطلب مفاوضتهم ومهادنتهم .

وقد نسب إيزدور الباجى هذا النجاح إلى شخصية عنبسة فقال: "كان نجاح عنبسة راجعاً إلى الجرأة ولابراعة أكثر منه إلى القوة والكثرة: وكان لينه

ومرونته وحسن معاملته لأهالى البلاد عاملاً فى تقوية سلطان الإسلام فى جنوب فرنسا.

والحقيقة ان هذا هو طبيعة المد الإسلامى وصفة الجيش الإسلامى عندما يجد الحاكم الملتزم والقائد بأحكام الإسلام(١٧).

وقد أدى توغل عنبسة فى هذه المساحات الشاسعة فى فرنسا بما يفــوق قوة جيشه الذى تناقص عدده فى القتال ويترك بعض الحاميات خلفــه إلــى أن يتعرض أثناء عودته إلى الجنوب مع من بقى من جيشه من جموع كبيــرة مــن الأعداء تربصت له ووقعت بينه وبينها معركة حامية قاتل المسلمين فيها قتــالاً شديداً إلا أنهم فقدوا قائدهم عنبسة فى شعبان سنة ١٠٧هـ/ ٧١٩م؛ فاضــطرب الجيش وإنسحبت فلوله إلى أربونة وفقد المسلمون المدن والحصون التى استولوا عليها من قبل(١٨).

ومن المعروف أن المؤرخين الغربيين نجدهم أثر كل إنتصار للمسلمين فى أى مكان يحاولون أن يصفوا المسلمين بــالقوة والوحــشية والهمجيــة فــى حروبهم، وبإرتكابهم فظائع وجرائم تقشعر لها الأبدان وتشيب لها الولــدان ولا تليق بالإنسانية ولا بالسماحة الإسلامية. وذلك أثناء تغلبهم على الأمــاكن التــى إستولوا عليها.

ولاشك أن هذه الدعاوى الكاذبة لا أساس لها ممن الصحة بالنسبة إلــى المسلمين الذين بهم مثلهم العليا وأهدافهم السامية فى حروبهم ودوافعهم النبيلة فى هذه الفتوح. وإنما يريد المؤرخون الغربيون من هذه الفظائع والجــرائم تلطــيخ دماء المسلمين وتشويه حقائقه الناصعة. وإذا حدث أن إرتكب أحد الجنود الــذين لم يتعمق سلوك الحرب والقتال الإسلامى وتعاليمه فى نفوسهم شيئاً مــن هــذه الفظائع فإنه كان يؤخذ عليه بصرامة حتى يكون ذلك زاجراً لغيره عند إرتكاب مثل هذه الأفعال(١٩).

والحقيقة التى لا مرية فيها أن هذه الأعمال الهمجية التى أطنب فى ذكرها هؤلاء المؤرخون لم تقع من المسلمين وإنما إرتكبها البرابرة البثنيون الذين كانوا لا يزالون غائصين فى لجج الوثنية والقادمين من شمال شرق أوروبا ولذلك قال رينو (المؤرخ) بعد أن أورد الأوصاف البشعة التى ذكرها هؤلاء المؤرخون: "ألا إنه يعترضنا فى هذه الروايات كون المؤرخين الذين ذكروها لم يصرحوا بأن أصحاب هذه الغارات من السرازين. ولا ثمة لفظته تدل على أن الذين فعلوا هذه الأفاعيل هم المسلمون بدون شك بل كان المؤرخون يشيرون إليهم بقولهم: "وندال" أى القوط الغربيين. وطالما كانوا يطلقون هذا الإسم فى النصف الأول من القرن العاشر على المجيار عندما جاء هؤلاء إلى ألمانيا ودخلوا إلى فرنسا وإكتسحوا "الألزاس" و "اللورين" و "فرانشى كونتى" و "برغونيا" و "شمبانيا" وغيرهم.

ومنم العجيب أن يذكر رينو أن المسلمين عندما قدموا إلى فرنسا وتغلغلوا فى أحشاء البلاد لم يكن لهم خطة مرسومة معينة فى مغازيهم ومراميهم؛ وأنهم لم يجدوا فى البداية من أهل فرنسا إلا مقاومة واهية وعزماً مشتتاً. والحقيقة أن المسلمين كانت أهدافهم واضحة وهى بسط سلطانهم على شمال البحر المتوسط مثلما فعلوا فى جنوبه وأن خطتهم كانت متابعة الإغارة مرة بعد مرة مثلما حدث فى أفريقية ولولا الأحداث التى جرت فى داخل الدولة الإسلامية لتحقق لهم فى شمال البحر المتوسط مثل ما تحقق لهم فى جنوبه.

وكذلك فقد لقى المسلمون فى هذه الغزوات المتكررة مقاومة قوية وتجمعات كبيرة. وما حدث إنسحاب أو إستشهاد لقائد من قواد الفتح إلا فى معركة كان تعداد جيش الإفرنج يفوق جيش المسلمين بمرات عديدة. وإن كان المؤرخون العرب بم سذكروا لنا تعداد جيوش المسلمين أو جيش أو جيوش أعدائهم. ولم يذكروا لنا ما قدم المسلمون من الشهداء فى هذه الغزوات المتتابعة؛

وما فقد أعداؤهم من القتلى والأسرى خلال مقاومتهم لتقدم المسلمين في أراضيهم.

ومهما يكن من أمر فقد إنسحب الجيش الإسلامي بعد إستشهاد عنبسة إلى أربونة بقيادة عذرة بن عبدالله الفهرى. وتوقفت تلك الغزوات إلى أن تولى الهيثم بن عبيد الكنانى الأندلس سنة ١١١هـ/ ٧٢٥م، فإستأنف الفتوح في فرنسا. وقد تولى الإمارة فى الأندلس بعد إستشهاد عنبسة إلى ولاية الهيثم ثلاث ولاة: يحيى بن سلمى الكلبى سنة ١٠٧هـ من قبل أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، وحذيفة بن الأحوص الأشجعى سنة ١١٠هـ، وعثمان بن أبى نعمة الخثعمى سنة ١١٠هـ من قبل والى أفريقية[٢٠].

وقد أدى تتابع الولاة مع قصر المدة لكل منهم إلى إضطراب في إدارة الأندلس وإلى إيقاف الغزو مما شجع الإفرنج على مهاجمة المواقع الشمالية. ومكن القوط المعتصمين فى شمال الأندلس من لم شملهم وتقوية صفوفهم وتنظيم قواتهم فإشتدت حركتهم داخل الهضاب النائية حول قائدهم "بلاي" الذى تمكن من وضع أسس لقيام الدولة النصرانية فى الشمال[٢١].

وعندما تولى الهيثم بن عبيد الكنانى إمارة الأندلس بذل جهداً مشكوراً فى بث السكينة والأمن فى ربوع البلاد وتمكن من تدمير حصون القوط ومعاقلهم فى الشمال. وغزا أرض مقوسة أو أرض مقرشة فإفتتحا. ثم توجه وراء البرنية حتى وادى الرون فإستولى على ليون وماسون وشالون وبون وأوتون، وصالحته بعض المدن الأخرى. وقد حدث خلاف بين قوى الجيش أدى إلى عودة الهيثم إلى الجنوب حيث توفى ولم يحتفظ المسلمون بهذا المد وضاع الجهد الذى بذلوه سدى[٢٢].

وتولى إمارة الأندلس بعد الهيثم محمد بن عبدالله الأشجعى وذلك لمدة شهرين حتى اسندت إلى عبد الرحمن بن عبدالله الغافقى إمارة الأندلس من قبل

عبيدة بن عبد الرحمن السلمي والى أفريقية.

على أننا يجب أن نلقى نظرة على "منوسة" الذى حاول الاستقلال بالمنطقة الواقعة غربى البرنية، ثم إنشقاقه على المسلمين ومحاربة الهيثم له. لقد تردد بين المؤرخين الخلاف حول جنسية وأصل هذا المغامر، ما بين كونه عربياً أو بربرياً أو نصرانياً غربياً وأنه من "لامباجيا" إبنه أودو دوق اكوتين أو حتى أنه ابن أخت بلاجيوس زعيم جليقية القوطى .... إلخ. وأنه عقد معاهدة دفاع من أودو وطلب من أمير الأندلس المصادقة عليها. وكذلك يتحدث المؤرخون عن أطماعه السياسية فى الإستقلال ثم رغبته فى المصاهرة من فتاة بارعة الجمال. ويتخذون من ذلك وسيلة لإستقلال الحاكم بما تحت يده، فيأتى والى الأندلس ويكشف القناع ويقاتله ويقضى على لامبجيا ويرسلها إلى دمشق(٢٣).

ومع فرض صحة ما يقولون فإننى أميل إلى أن "منوسة" لم يكن عربياً ولا بربرياً وإنما كان نصرانياً أسند إليه المسلمون إدارة منطقة قرب البرنية، ولا مانع من ذلك، لأننا رأينا فى البداية أن المسلمين أسندوا إدارة بعض المدن إلى النصارى كما حدث فى طليطلة. ومن يدرى فلعله كان أيضاً حاكماً سابقاً لتلك وصالح المسلمين فتركوا له إدارة البلاد مثل تدمير، ثم نقض العد او أخل بالشروط فحاربه المسلمون وذلك لأم المصادر العربية لا تذكر سوى أن الهيثم غزا أرض مقوشة (منوسة)(٢٤).

أما قصة الحب والجمال والقبح والزواج التى يوردها المؤرخون الإفرنج فهى من الأمور تذكر لحبك القصة التى يراد إختراعها. لأننا لا نصدق إنتقاص حاكم مسلم سواء كان عربياً أو بربرياً فى ذلك الوقت المبكر لأن الظروف كانت لا تسمح له بالإستقلال فى منطقة ما زالت ميداناً للغزو ولم تستقر فيها الأمور بعد. ثم لأن الجنود الذين تحت إمرته لا يوافقوه على ذلك. فهو لا يملك القوة

لتنفيذ هذا الإستقلال لا بالنسبة للمسلمين لإنشقاقه عليهم، ولا بالنسبة للمسيحيين لأنه لا يضمن وفاءهم له بالمعاهدة التى عقدها معهم حسب زعمهم(٢٥).

عبد الرحمن بن عبدالله الغافقى :

تولى عبد الرحمن الغافقى إمارة الأندلس فى صفر سنة ١١٢هـ / ٧٢٦م. وكان يتسم بالحنكة السياسية والإدارية، هذا إلى جانب مهارته فى القيادة العسكرية وطموحه وآماله العريضة فى أن يأخذ بثأر من إستشهد من المسلمين وقوادهم فى فرنسا، وكان يأمل فى تحقيق ما عجزوا عنه بالإستيلاء على فرنسا.

وقد بدأ عبد الرحمن أعماله بالإصلاحات الداخلية فى الأندلس، فعمل على نشر العدل ورفع الظلم وقام بجولة فى ربوع البلاد قضى فيها قرابة عامين طاف خلالها معظم بلاد الأندلس مستمعاً إلى شكاوى الرعية وناظراً فى أمورهم ومحققاً لمصالحهم، فعزل كل من ثبت جوره من الحكام المحليين ومن أخل أو أهمل واجباته وعين بدلاً منهم رجالاً إشتهروا بالعدالة وحسن السمعة والنزاهة.

وقد عامل عبد الرحمن المسلمين والنصارى واليهود على قدم المساواة وبدون تمييز، فأعاد للنصارى كنائسهم التى إنتزعت منهم وكان لهم الحق فيها وفقاً للعهود. كما نظم الإدارة المالية وعاقب بشدة ممن أثار شغباً أو أحدث فتنة أضرت بالرعية وبذلك تمكن من توطيد الأمن ونشر السلام فى ربوع البلاد.

ومع إهتمام عبد الرحمن بالإصلاحات الداخلية الإدارية عنى أيضاً بإعداد الجيش وإصلاح أمره وحسن إختيار عناصره وقواده وتدريبهم وتعريفهم بالمهمة الكبرى الملقاة على عاتقهم وأثار فيهم روح التضحية والفداء وأعلن الدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله فإنضم إليه الكثير من خيرة المقاتلين فى أفريقيا والأندلس(٢٦).

وبذلك تجمع لديه جيش كبير كان يأمل أن يحقق به مـــا أعجــز العــدو وعجز عن تحقيقه وإعداده الولاة من قبله فبسط سيادة المسلمين علــى جنــوب فرنسا.

وفى بداية سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م، تحرك ذلك الجيش الضخم بقيادة عبــد الرحمن بن عبدالله الغافقى مخترقاً البرنية عن طريق بنيلونة ودخل فرنسا متجهاً شرقاً إلى مدينة "آرل" الواقعة على نهر الرون لإمتناعها عن آدا ءالجزية ودارت على شواطئ الرون معركة شديدة تغلب فيها المسلمون وإستولوا على المدينــة وزحف عبد الرحمن بعد ذلك نحو الغرب وعبر نهر الجارون مفاجئــاً ولايــة "اكوتين" التى تصدى للدفاع عنها الدوق أودو على رأس جــيش ضــخم فــدار وطيس معركة عنيفة بين الطرفين فى مضيق دوردون هزم فيها الدوق ومــزق جيشه شر ممزق. وتمكن الدوق من الفرار ببعض رجاله إلى الشمال وبهذا بسط المسلمين سلطانهم على ولاية "اكوتين" جميعها(٢٧).

ثم عاد الجنش الإسلامى ثانياً إلى الشرق مخترقاً برجونية وإستولى على "ليون" و "صانص" التى تبعد قرابة مائة ميل من باريس. وبذلك تــم للمــسلمين الإستيلاء على النصف الجنوبى لفرنسا كله من الشرق إلى الغرب ولم يبــق إلا الاتجاه نحو عاصمة الإفرنج. وقد تم هذا فى أشهر قليلة. وترك عبد الرحمن فى المدن التى إستولى عليها حاميات قوية من جيشه للإحتفاظ بــسلطان المــسلمين عليها. ولمت حرصه على تقوية هذه الحاميات مع كثرتها قد أدى إلى ضــعف قوة الجيش الذى معه والذى إتجه به نحو عاصمة الإفرنج حيث اللقاء مع شارل مارتيل (المطرقة) فى معركة عرفت بمعركة بلاط الشهداء نظراً لكثرة القتلــى والاستبسال فى المعركة التى كان لها أثر كبير فى تغيير الأوضاع، وتوقف المد الإسلامى فى أوروبا حسب تقرير المؤرخين(٢٨).

معركة بلاط الشهداء :

عندما هزم الدوق أودو فى مضيق الدوردون، وفقد كل اكوتين تقريبا، إتجه إلى شارل مارتيل، أمير القصر فى دولة الفرنجة وكانت السلطة الحقيقية لدولة الفرنج فى يده – وطلب منه العون والنجدة والوقوف معه فى وجه المسلمين ومحاولة إسترجاع اكوتين التى إستولوا عليها منه فسارع شارل مارتيل إلى إجابته وسار بجيشه حتى إلتقى بالمسلمين فى موقعة بلاط الشهداء فى السهل بين توربواتيه[٢٩].

ولا شك أن شارل مارتيل كان يعلم بتحركات المسلمين فى جنوب فرنسا ويعلم أن المسلمين سوف يقصدون دولته بعد الإستيلاء على اكوتين، فإستعد لذلك اللقاء وجمع جيشاً كبيراً من فرنسا ومن القبائل المتوحشة فى حدود الدانوب والإلب وقفار ألمانيا. ولكنه لم يتحرك للقاء الملسلمين عندما وطئوا جنوب فرنسا ليلتقى بهم فى شمبانيا او اكوتين، وإنما ترك الجيش الإسلامى يذهب شرقاً وغرباً ويفتح المدن ويخوض المعارك ويترك الحاميات هنا وهناك ويفقد بضع الجنود فى المعارك المختلفة التى خاضها ضد أودو وكأنه يريد بذلك أن ينهك جيش المسلمين قبل اللقاء به وأن يحدد الزمان والمكان الذى يلتقى فيه بجيش المسلمين وكان يعد لهذا اللقاء فى السر والكتمان، حتى أن جواسيس وعيون عبد الرحمن الغافقى عجزت عن رصد هذا الجيش او إكتشافه حتى كان اللقاء الحاسم[٣٠].

تجهز شارل مارتيل وإستعد للقاء عبد الرحمن، خاصة وأن جموع جيش مارتيل أخذت تطالبه قائلة: ما هذا الخزى الباقى فى الأعقاب؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم ممن جهة مطلع الشمس حتى أتو من مغربها وإستولوا على بلاد الندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد وبجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم". فقال لهم ما معناه: الرأى عندى أن لا نعترضهم فى خرجتهم فإنهم كالسيل

يحمل من يصادفه وهم فى إقبال أمرهم ولهم ثبات تغنى عن كثرة العدد وقلوب تغنى عن حصانة الدروع، ولكن امهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا على الرياسة ويستعين بعضهم ببعض فحينئذ تتمكنوا منهم بأيسر أمر. وكان ذلك ما أعطى لجيش الفرنجة شيء من الثبات أمام المسلمين. يضاف إلى ذلك أن جيش الفرنجة لم يصاب بالتعب أو الإرهاق الذى تعرض له جيش المسلمين من كثرة المعارك وتعدد الغزوات فى مختلف بلاد الأندلس وفرنسا[٣١].

ولم يكن بين جيش شارل مارتيل (المطرقة) عبد يحارب فى صفوف سادته الممقوتين، بل كانوا على قلب رجل واحد حتى لا يكون مصيرهم كباقى النصارى واليهود الذين تعرضوا للقتل على أيدى جيش وقوات المسلمين من قبل. هذا إلى جانب ما وعدهم شارل مارتيل من منحهم الإمتيازات فى حالة تحقيق النصر على المسلمين. فكان جيش الفرنجة أشبه فى هذه المعركة (بلاط الشهداء) بجيش طارق بن زياد قبل ذلك فى موقعة (شريش). فكانت هذه المعركة (بلاط الشهداء) هى اللقاء الفاصل بين المسلمين والمسيحيين فى أوربا العصور الوسطى[٣٢].

أما جيش المسلمين فكان قد إنتهى من الإستيلاء على مدينتى بواتيه وتور. وعندما أراد عبد الرحمن الغافقى أن يعبر نهر اللوار، كان جيش الفرنجة قد وصل إليه دون أن يشعر المسلمون به. وهنا رأى عبد الرحمن الغافقى أن ينسحب بجيشه من وشاطئ اللوار وإستعد للمعركة فى السهل الواقع بين تور وبواتيه.

وقد حاول عبد الرحمن الغافقى أن يثنى الجنود المسلمين عن التمسك بالأسلاب والغنائم حتى لا تعوقهم فى خوض المعركة، ولكن محاولته لم تحقق النجاح المرجو منها، فرأى أن يخوض المعركة قبل أن يحدث الشقاق فى جيشه،

وبذل كل جهده وطاقته لحمل الجيش على القتال بجدية وإصرار. فلما إلتقى الجمعان وبدأ المسلمون القتال فى أواخر شعبان سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م بمناوشات إستمرت ثمانية أيام رجحت فيها كفة المسلمين، وفى اليوم التاسع خاض الطرفان معركة عنيفة إستمرت إى أواخر الليل، او بمعنى أدق حتى أرخى الليل سدوله. وفى اليوم العاشر استؤنفت المعركة من جديد بشراسة وقسوة وشدد المسلمون حملتهم على الفرنج حتى كادوا أن يقطفوا ثمرا النصر، غير أن فرقة من الفرنجة تمكنت من الوصول إلى المكان الذى فيه الغنائم وأشيع بين صفوف الجيش الإسلامى أن الغنائم سيستولى عليها العدو. وهنا ترك بعض الجنود مواقعهم الأمامية ليدافعوا عن الأسلاب، مما أدى إلى خلل فى صفوف المسلمين. وحاول عبد الرحمن جهده ليعيد النظام إلى صفوفهم وتقدم الصفوف يقودها ويجعل من نفسه سداً منيعاً أمام الأعداء وهنا أصابه سهم قاتل من قبل الأعداء فسقط شهيداً فى ميدان القتال وإضطرب المسلمون لإستشهاد قائدهم وشدد الفرنجة الحملة وإغتنموا هذه الفرصة. إلا أن المسلمين صمدوا فى ميدان القتال وثبتوا لأعدائهم يقاتلونهم حتى حجز الليل بين الجيشين، وعاد كل جيش إلى مواقعه دون أن يحقق أحدهما النصر على الآخر وكان ذلك فى أوائل رمضان سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م.

كان على المسلمين أن يقدروا موقفهم بعد إستشهاد قائدهم عبد الرحمن الغافقى، وهنا إختلف رأى القادة بين مواصلة القتال والإنسحاب. فمواصلة الجهاد قد تأتى بالنصر وقد تأتى بالهزيمة، والإنسحاب لا هزيمة فيه ولا نصر.

وبعد أخذ ورد فى التشاور إستقر الجميع فى النهاية على الإنسحاب، فغادر المسلمون أماكنهم فى ظلام الليل متجهين إلى سبتمانيا مخلفين وراءهم خيامهم وجرحاهم الذين لم يستطيعوا حملهم معهم[٣٣].

ولاحظ جيش العدو فى الفجر الهدوء يسود معسكر المسلمين. فظن شارل مارتين (المطرقة) وأودو أن فى الأمر خدعة فتقدمت فرق من معسكر

الفرنج بحذر نحو معسكر المسلمين فتبين لهم خلو المعسكر من المقاتلين عدا بعض الجرحى فأجهزوا عليهم وفرح شارل مارتيل لذلك ولم يتعقب المسلمين وإنما إكتفى بإنسحابهم وعاد مسرعاً بجيشه نحو الشمال. وقد سمى المسلمون المكان الذى دارت فيه المعركة "بلاط الشهداء" لكثرة من إستشهد فيه من عظماء الرجال مع عبد الرحمن(٣٤).

على أن المؤرخين الغربيين قد أشادوا بهذه الموقعة وقالوا عنها أنها قد أنقذت أوربا من فتح المسلمين، وأنها قد أوقفت المد الإسلامى من أن سنتشر فى أوربا. وأن جيش المسلمين قد مزق فيها شر ممزق، ولذلك بالغوا فى عدد الشهداء من المسلمين حتى وصلوا إلى أضعاف مضاعفة بالنسبة لعدد الجيش الأصلى .... إلخ(٣٥).

ومع هذا يمكننا القول: أنه إذا كانت الرحب قد ظلت طوال هذه الأيام العشرة بدون أن تتحقق هزيمة أحد الطرفين فإن المسلمين فى مساء اليوم العاشر، رغم إنسحاب عدد كبير من جيش الإسلام ومقتل قائدهم عبد الرحمن الغافقى، إلا انهم تمكنوا من الصمود فى مساء ذلك اليوم، وكان من الممكن لهم أن يحققوا النصر وأن يصمدوا أمام شارل مارتيل إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً(٣٦).

وكان من جراء مقتل عدد من القادة المسلمين إلى جانب القائد العام عبد الرحمن الغافقى أن أدى إلى عدم الإتفاق على رأى فى إختيار من يقود الجيش فى المعركة؛ وكان الإرهاق من الحروب التى خاضوها قبل المعركة فى أرجاء جنوب فرنسا والجهد الذى بذلوه خلال المعركة ان أدى ذلك إلى أن تدور الدائرة عليهم، وإضطروا إلى الإنسحاب الذى فضلوه على الهزيمة فى المعركة(٣٧).

وإذا نظرنا بعين الحقيقة إلى إنسحاب المسلمين من معركة بلاط الشهداء لوجدناه مثل إنسحابهم من طولوشة منذ إثنتى عشرة سنة، وليس هناك فرق

بينهما. فقد إنسحب المسلمون عقب مقتل القائد فى كلا المعركتين. غير أن الفرنجة فى الثانية كانوا أكثر عدداً وتجمعوا من أماكن كثيرة، لكن فى طولوشة كان المسلمون يقاتلون قائد دوقية اكوتين وحدها. بينما فى موقعة بلاط الشهداء كان شارل مارتيل قد وجد مساندة من كل من إقطاعيات فرنسا وجيرانها، بالإضافة إلى تأييد بابا روما لهم مجتمعين لقتال المسلمين.

أما السبب فى عدم مواصلة المسلمين الفتوحات فى فرنسا بجيش كبير فيرجع إلى شيوع الفرقة بين المسلمين، وإنشغال السلطة بمقاومة الخارجين عليها، ثم سقوط الدولة الأموية بعد ذلك فى دمشق، وإنفصال الاندلس عن السلطة المركزية فى بغداد، هذا فى الوقت الذى كان المسلمون فى الاندلس يعتمدون على عناصر شتى فى الجيش ليسوا من أصل عربى مثل البربر فى شمال أفريقية. يضاف إلى ذلك بعد الشقة عن العاصمة الإسلامية فى دمشق ثم بغداد، حيث أن الامدادات كانت تصل متأخرة أحياناً[٣٨].

ويرى بن خلدون، ويتفق معه المؤرخ الانجليزى الشهير أرنولد توينبى ومن سار على دربهما من المؤرخين - أن كل فتح، خاصة فى تلك العصور لم تكن الإمكانيات العسكرية المتقدمة موجودة، والإمكانيات البشرية محدودة[٣٩].

بينما نرى أسباباً أخرى لم يتعرض أحد من المؤرخين لهما ألا وهى: أن الأندلس لم تكن هدفاً فى الحقيقة عند العرب عندما قرروا عملية الفتح ناحية الغرب، ولم يكن يعرفون شيئاً البتة عن الأندلس اللهم أن البربر فى شمال أفريقية قد لوحوا للعرب وعلى رأسهم طارق بن زياد بضرورة فتح بلاد الأندلس. كذلك ما كان من خلاف وإنتزاع السلطة من البيت الحاكم فى الأندلس - كما مر بنا - دفع جوليان (يوليان) إلى الاتفاق مع موسى بن نصير لقتال رذريق المغتصب للعرش فى أسبانيا.

وعلى هذا، وبعد دخول العرب بلاد الأندلس وجدوا أرضاً ومناخاً مناسباً للإستمرار للفتح العربى. وطالما كانت الأمور تسير على هذا النحو، فليس هناك

غضاضة فى عدم التوقف اللهم إذا حدث تحالف وتكاتف ول غرب أوربا ضد المسلمين فى الندلس، أو فرنسا، هنا يتوقف الفتح وليس من المفيد للإسلام والمسلمين حينئذ مواجهة هذا التحالف. والانسحاب هو الأسلوب الأمثل هنا للحفاظ على الأقل بما تحت أيديهم فى بلاد لم يكن للمسلمين فيها خبرة بدروبها وطبيعة أهلها، وحرص الملسمون على البقاء فى الأندلس على مغامرة غير مأمونة فى فرنسا (غاليا)(٤٠).

ولاية عبد الملك بن قطن الفهرى :

كان لإستشهاد عبد الرحمن الغافقى ومن معه وإنسحاب المسلمين من بلاط الشهداء دون تحقيق النصر هزة كبيرة فى نفوس المسلمين فأرسل والى أفريقية فى رمضان سنة ١١٤هـ/ ٧٣٣م عبد الملك بن قطن الفهرى والياً على الأندلس فى جيش من خيرة جند أفريقية وأمره بالعمل على حماية الأندلس وإسترجاع هيبة المسلمين وتثبيتها فى جنوب فرنسا(٤١).

وكان بعض السكان فى المناطق الشمالية فى شبه جزيرة الأندلس قد حاولوا أن يستفيدوا من إستشهاد عبد الرحمن الغافقى ومن معه ويتخلصوا من الحكم الإسلامى، فوجه إليهم عبد الملك بن قطن الفهرى جهوده فسار إلى كتالونيا وأرغون ونافار وهزم الثوار فى عدة معارك وأجبرهم على طلب الصلح والإنصياع للمسلمين، ثم توجه عبد الملك إلى إقليم لانجيدوك فثبت أقدام المسلمين هناك، ونظم أمور الدفاع عنها حتى تتمكن من الصمود فى وجه الإفرنج المتمردين(٤٢).

وكان حكم البلاد فى مقاطعات سبتمانيا وبروفانس يتبع بعضهم شارل مارتيل، ويتبع بعضهم دوق اكوتين؛ ولكنهم كانوا يميلون إلى التخلص من هذه التبعية والإستقلال ببلادهم. ولذلك نجد بعضهم يحالف حكام المسلمبن ليتقى بأس ملوك الإفرنج ومن هؤلاء "موروند" دوق مرسيلية. وفى سنة ١١٦هـ/ ٧٣٤م

إتفق يوسف أمير أربونة المسلم مع موروند دوق مرسيلية حيث زحف المسلمون بجيش كبير تمكن من الإستيلاء على مدينة آرل ثم تقدموا فى مقاطعة البروفانس وحاصروا مدينة مرينا المعروفة بسان ريمنى وإستولوا عليها، ثم توجه المسلمون إلى أفينون وتمكنوا من الإستيلاء عليها بعد قتال عنيف مع حاميتها، وبقى المسلمون يسيطرون على بلاد البروفانس أربع سنوات(٤٣).

وبعد أن تمكن عبد الملك بن قطن الفهرى من إسترجاع هيبة المسلمين بهذه الغزوات فى أرض فرنسا (غاليا) عاد إلى جبال طبرنية لتأديب العصاة فيها. غير أن عواصف شديدة وأمطار غزيرة وطبيعة الجبال الوعرة، أجبرت عبد الملك وجيشه من المسلمين على التراجع(٤٤).

ولاية عقبة بن الحجاج السلولي :

لقد عزل ابن قطن الفهرى عن إمارة الأندلس فى رمضان سنة ١١٦هـ/ ٧٣٤م؛ وكان عقبة بن الحجاج يعرف بالشجاعة وحسن تدبير الأمور والتمسك بالعدل والتقوى، ولذلك إستبشر المسلمون بولايته. وقد حقق عقبة خلال ولايته إمارة الأندلس الهدوء والأمن فى ربوع البلاد، فنشر العدل ورد الظلم وحاسب العمال وعزل من ثبت ظلمه وجوره وعاقبهم حسب جرمهم وولى مكانهم من إتصف بالعدالة والنزاهة والحرص على مصلحة الرعية. وأمر العمال فى الولايات بتجنيد فرق لحماية الأمن والضرب على أيدى العابثين به. وإهتم بدور العلم والعبادة فأسس كثيراً من المساجد والمدارس وعين لها من يقوم بشأنها وبتعليم الناس فيها ورصد لهم الأموال للإنفاق منها. وكان لا يفرق فى المعاملة بين الرعية، فلا يحابى أحداً لإسلامه او قرابته او يظلمه لمخالفته له فى الدين فإطمئن الناس فى عهده وفرحوا بولايته(٤٤).

وقد وجه عقبة بن الحجاج السلولى جهوده الحربية اولاً إلى شمال الأندلس عازماً على تثبيت أقدام المسلمين فيها وجعلها سكناً لهم ففتح بنيلونة

ومعظم جهات جيلقية. غير أن الصخرة التى لجأ إليها ملك جيلقية وكان بها ثلاثمائة رجل، فما زال المسلمون يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلاً وحتى فنيت مؤنهم، ولم يتقوتوا إلا بعمل يجدونه فى شقوق الصخرة ووعى المسلمون أمرهم فتركوهم. ولعلهم أستصغروا شأنهم وظنوا أنهم يهلكون ولا يكون لهم شأن؛ فعاد عقبة بن الحجاج السلولى ومن معه موجهاً جهوده تجاه جنوب فرنسا دون أن يتم القضاء عليهم، كما رجع عنهم من قبل موسى بن نصير عندما إستدعاه الخليفة. وإذا كنا نلتمس لموسى بن نصير عذراً فى رجوعه والقضاء علي "بلاى" وعصابته المعتصمة بالصخور بتلبيته أمر الخليفة، فإننا لا نجد هنا عذراً لعقبة بن الحجاج السلولى فى رجوعه عن بلاى وعصابته دون ان يقضى عليهم. فقد كان القضاء على بلاوى وعصابته خيراً مما قام به من بعد ذلك من تثبيت سلطان المسلمين فى جنوب فرنسا. ذلك أن سلطان المسلمين سوف ينكمش ثم ينسحب من جنوب فرنسا، كما سينكمش ثم ينسحب من شمال الأندلس. غير أن الفرنسيين سوف لا يستطيعون مقاومة المسلمين فى الندلس، بينما سيتمكن خلفاء بلاوى وعصابته مقاومة المسلمين فى الندلس، بل سيحملون أحفاد المسلمين بعد ثمانية قرون على مغادرة الأندلس؛ او البقاء مع ترك عقيدتهم الإسلامية وإعتناق المسيحية وزادوا الطين بلة بسلبهم لحريتهم فصاروا عبيداً بعد أن كانوا سادة وحكاماً(٤٥).

ومهما كان الأمر، فقد وجه عقبة جهود المسلمين الحربية بعد توطيد الأمن فى شمال الأندلس تجاه جنوب فرنسا فتابع الجهاد خلال فترة ولايته التى إستمرت أكثر من خمس سنوات فصارت أربونة موطناً للمسلمين ومكاناً لسكانهم. أما مواقع القتال والحروب فكانت فى الأماكن المكشوفة حتى نهر الرون حيث أقام المجاهدون فى المراكز العسكرية "الرباط" من أجل الدفاع والإستكشاف فقط(٤٦).

وفى سنة ١١٨هـ/ ٧٣٦م توجه الجيش الإسلامى للإغارة على إقليم دوفينة فإستولى على سان بول "ودونزور وفلانسى" وفيين وليون وغيرها، وإنتشرت طلائع الجيش الإسلامى فى بوغونيه مهددة عاصمة فرنسا ومحاولة إسترجاع هيبة المسلمين والأخذ بثأر الجيش الإسلامى الذى إستشهد قائدة وبعض جنوده فى معركة بلاط الشهداء(٤٧).

وكان شارل مارتيل مشغولاً بمقاتلة الثائرين عليه فى الشمال فأرسل أخاه هيلدبراند بجيش لصد المسلمين وإستنجد بصهره وحليفه لوتيراند ملك اللومبارديين فى إيطاليا ليعاونه على قتال المسلمين الذين تمكنوا من جبال دوفينة وبيمونت.

وقد ضرب شلد براند بجيشه الحصار على المسلمين فى أفينون ولحق به شارل مارتيل بجيش ثان، وجاء لتوبراند ملك اللومبارديين بجيش آخر من إيطاليا حيث تمكنوا من الإستيلاء على أفينون بعد حصار طويل وقضوا على حاميتها المسلحة مما إضطر الحاميات الإسلامية المنتشرة فى بعض الأربطة أمام هذا الجيش الهائل من الإنسحاب والإعتصام فى أربونة فتقدم شارل مارتيل بجيشه الضخم وحاصر بيونة فصمد المسلمون فيها وردوا كل هجماته. ورأى عقبة السلولى إنقاذ المدينة حتى لا تقع فى أيدى شارل مارتيل فأرسل إليها مدداً عن طؤيق البحر غير أن شارل تمكن من منعه من الوصول إلى أربونة وأنزل به خسارة كبيرة ولم ينج منه سوى عدد قليل لجأ إلى السفن وذلك فى سنة ١١٩هـ/ ٧٣٧مـ ومع عدم تمكن هذه النجدة من الوصول إلى أربونة إلا أن المسلمين حالوا دون وصول شارل إليها(٤٨).

وقد حاول المسلمون بقيادة عقبة بن الحجاج السلولى إسترجاع هذه البلاد ثانية سنة ١٢٠هـ/ ٧٣٨م غير أن الفرنج بقيادة شارل مارتيل تكاثروا عليهم وإضطروهم إلى الإنسحاب من بروفانس ومعظم مدن سبتمانيا ولم يبق للمسلمين سوى أربونة ورقعة من الأرض بين أربونة والبرنية. ومع هذا، فإن المسلمين

واصلوا غزواتهم وفتوحاتهم البحرية على المدن الواقعة على الشواطئ الجنوبية لفرنسا وكذلك على الجزؤ الغربية منها.

فقد أنشأ المسلمون منذ الفتح دوراً لصناعة وبناء الأساطيل البحرية في كثير من موانئ الأندلس عدا دار الصناعة المقامة في تونس. وكان للمسلمين في الأندلس قائد للبحر يسمى "أمير الماء" وقد حرف بعد ذلك إلى أميرال(٤٩).

ومع كل هذه الجهود الضخمة فلم يتمكن المسلمون من تحويل جنوب فرنسا إلى أرض إسلامية سنتحدث عنها فيما بعد.

ويبدو أن حالة المسلمين في جنوب فرنسا وعدم ثبوتهم هناك دفع أهالي الأندلس على الثورة ضد عقبة بن الحجاج السلولي، فعزلوه وولوا مكانه عبد الملك بن قطن للمرة الثانية. وقال بن القطان: إن عقبة بن الحجاج لما حانت وفاته إستخلف عبد الملك بن قطن على الندلس للمرة الثانية سنة ١٢٢هـ/ ٧٤٠م.

ولاية عبد الملك بن قطن للمرة الثانية :

كانت ولاية عبد الملك بن قطن للمرة الثانية فترة لقيام الثورات وإنتشار الفتن وإضطراب الأمور في الأندلس. وقد كانت أسباب الإضطراب من خارج الأندلس وداخلها معاً. ففي الخارج نجد أن المغرب الأقصى إضطربت الأمور فيه لإنتشار مذهب الخوارج الصفارية وتزعم ثورة المغرب ميسرة المدغري، إذ قام البربر ضد الحكام المسلمين العرب حيث قتلوا حاكم طنجة وحاكم السوس ودعوا لميسرة بالخلافة وقاتلهم والي أفريقية. ولكن المسلمين هزموا في معركة الأشراف سنة ١٢٣هـ/ ٧٤١م بعد أن قدموا كثيراً من الشهداء فولى الخليفة هشام بن عبد الملك على أفريقية كلثوم بن عياض القشيري وأرسل معه جيشاً بقيادة بلج بن بشر القشيري لقتال البربر والقضاء على فتنة الخوارج في أفريقية وإنضم إليهم جنود أفريقية وساروا نحو المغرب الأقصى حيث إلتقوا بخوارج

البربر تحت قيادة خالد بن حميد الزناتى فى وادى سبو ودارت بين الفريقين معركة شديدة الوطيس إنتصر فيها البربر وإستشهد كلثوم بن عياض وتشتت جموع العرب المسلمين فلحق بعضهم بالقيروان ولجأ بلج بن بشر فى عشرة آلاف من أهل الشام إلى سبته فتحصنوا بها فحاصرهم البربر وإشتد عليهم الحصار فطلبوا من عبد الملك بن قطن أن يساعدهم فى العبور إلى الأندلس فماطلهم فى البداية خوفاً على مركزه وسلطانه(٥٠).

ولكن أحداث أفريقية التى إنتصر فيها البربر فى المغرب الأقصى كان لها تأثير فى داخل الأندلس بين البربر والعرب فتطاول البربر فى الشمال فى جيلقية وغيرها وقاتلوا العرب وطردوهم من المناطق. وكان أن يحدث فى الأندلس ما حدث فى أفريقية. عند ذلك إضطر عبد الملك بن قطن أن يسمح لبلج بن بشر وأصحابه ويعاونهم فى العبور إلى الأندلس ليستعين بهم فى القضاء على ثورة البربر فى الأندلس وشرط عليهم مقام سنة بالأندلس ثم يخرجوا عنها فرضوا بذلك وأخذ منهم رهائن أنزلهم بجزيرة أم حكيم.

وعبر بلج ومن معه إلى الأندلس سنة ١٢٣هـ/ ٧٤١م وقدم لهم ما يحتاجون إليه ممن الطعام واللباس وإجتمعوا إلى جيش عبد الملك ثم إتجهوا إلى البربر المجتمعين فى شذونة فهزموا البربر وغنم بلج منهم غنائم كثيرة. ثم إتجهوا إلى قرطبة حيث ردوا جموع البربر عنها بعد قتال عنيف، فإجتمعت جموع كثيرة للبربر قريبا من طليطلة فزحف إليهم عبد الملك وبلج بعرب الأندلس وتمكن العرب من هزيمة البربر بوادى سليط وقتلوا منهم عدة آلاف، وبذلك قضى على ثورة البربر فى الأندلس وإشتد ساعد بلج وأصحابه(٥١).

لم يكن القضاء على فتنة البربر بالأندلس بشيراً باستقرار الأوضاع بالأندلس، ولكن أعقب ذلك فتنة بين العرب أنفسهم. فقط طلب عبد الملك بن قطن من بلج وأصحابه الرحيل من الأندلس حسب الشرط الذى أخذه عليهم فقال

بلج بن بشر أحمانا إلى ساحل البيرة أو ساحل تدمير، فقال لهم عبد الملك ليس لنا مراكب إلا بالجزيرة. قال له: إنما تريد أن تردنا إلى البربر (أى المغرب الأقصى) ليقتلونا فى بلادهم. فلما ألح عليهم عبد الملك فى الخروج ثار بلج ومن معه من أهل الشام وقبضوا على عبد الملك وقتلوه مع بعض الرهائن التى كانت تحت يده وتولى بلج بن بشر بلاد الأندلس فى أول ذى القعدة سنة ١٢٣هـ/ ٧٤١م(٥٢).

ولاية بلج بن بشر وثعلبة بن سلامة :

وفى فترة ولاية بلج بن بشر بدأ الصراع بين العرب أنفسهم فقد حشد أمية وقطن إبنى عبد الملك جموعاً كثيرة فى سرقسطة بلغت أكثر من مائة ألف، وإنضم إليهما عبد الرحمن بن حبيب الفهرى وعبد الرحمن بن علقمة اللخمى حاكم أربونة وفارس الأندلس وكل من أنكر قتل عبد الملك بن قطن، وسارت هذه الجموع إلى قرطبة حيث خرج إليهم بلج فى شعرين ألفاً من أنصاره ودارت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها أحد عشر ألفاً – وهو من وجهة نظرنا عدد مبالغ فيه – وإنتصر فيها الشاميون رغم قلتهم إلا أن بلجاً هذا أصيب بجراح توفى على أثرها بعد أيام. فولى أهل الشام فى شوال سنة ١٢٤هـ / ٧٤٢م ثعلبةبن سلامة الجذامى إمارة الأندلس وقالوا أن ذلك كان بعهد هشام بن عبد الملك او من كلثوم بن عياض كما ذكروا ذلك فى ولاية بلج قبل ذلك وقد حاول ثعلبة إصلاح البلاد ونشر العدل بين العباد. إلا أن سلطة الحكومة المركزية فى الأندلس كانت قد ضعفت، وحاول حكام الولايات الوسطى والشمالية الإستقلال والإنفراد بالنفوذ. ونشبت الحرب مرة ثانية بين الشاميين بقيادة ثعلبة وبين أبناء عبد الملك بن قطن ومن إنضم إليهم، ودارت بينهما معارك حامية حول ماردة قتل فيها خلق كثير وإنجلت الحرب عن إنتصار ثعلبة على خصومه وأسر ألفاً منهم وعاد بهم إلى قرطبة فى بلاد الأندلس.

ولاية أبى الخطار الحسام بن ضرار الكلبي :

وفى مطلع سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م أرسل حنظلة بن صفوان والى أفريقية أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبى والياً على الأندلس فقدم إلى قرطبة وتسلم السلطة من ثعلبة وأعفى عن الأسرى الذين كان يريد ثعلبة قتلهم. وقد حاول أبو الخطار أن يعيد الأمن والسكينة إلى البلاد وتمسك بالتسامح والعدل فأحبه الناس وإجتمع عليه أهل الشام وعرَّب البلد وإنقاد له الحكام الخارجون على سلفه فأحسن إليهم ومن أبى الانقياد له خرج من الأندلس. وقد فرق أبو الخطار جند الشام وأنزلهم فى مدن مختلفة حسب المدن التى قدموا منها. وكأنه يراعى هنا رابطة البلد والمكان الذى ينتسب إليه الفرد لا رابطة القبيلة، وأنهى الحكم الذاتى الذى كانت تتمتع به تدمير (مرسية) بعد وفاة ثيودمير لأنه رأى أن تلك المعاهدة التى عقدت معه كانت تتعلق بفترة حياة ثيودمير ولا تتجاوز إلا أبنائه من بعده. وبذلك ضمت تدمير إلى باقى الإمارات فى الأندلس وتم للمسلمين بسط سلطانهم على جنوب الأندلس كله(٥٣).

كان شعور المسلمين بالمساواة من أبى الخطار بين جميع القبائل عاملاً أدى إلى الرضا عنه وتأييده وطاعته من الجميع. ولكن يذكر المؤرخون أن أبا الخطار مال بعد ذلك إلى اليمنيين وحاباهم على حساب المضريين مما أدى إلى إشتعال نار الفتنة بين العرب من جديد.

وقد أدى اشتعال النار بين الطرفين بإساءة أبى الخطار إلى زعيم من زعماء المضرية يدعى الصمويل بن حاتم بن شمر ذى الجوش، وجده شمر من أهل الكوفة وممن إشترك فى قتل الحسين بن على ﷺ . وكان الصمويل بن حاتم هذا، شجاعاً سخياً فإلتف حوله المضرية وبعض الناقمين على أبى الخطار من اليمينية كجذام ولخم، فلما أهانه أبو الخطار بعث الصمويل إلى خيار قومه فشكا إليهم ما حل به من هوان فثأروا معه وأيدته لخم وجذام من اليمينية، فقدموا

عليهم ثوابة بن سلامة الجذامى - أخو ثعلبة السالف ذكره - وإتجهوا نحو قرطبة فخرج إليهم أبو الخطار فهزموه وأسروه؛ وإتجه ثوابة ومن معه نحو قرطبة فدخل قصر الإمارة؛ وأعلن إختيار ثوابة وهو يمنى أميراً على الأندلس سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٧م بدلاً من أبى الخطار. ووافق على ذلك والى أفريقية عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الذى إنتزع ولاية أفريقية من حنظلة بن صفوان. وقام ثوابة بضبط الأمور فى الأندلس يعاونه الصمويل فإجتمع عليه جند الأندلس. وهنا نشير إلى ما يذكره معظم المؤرخين من أن العصبية القبلية بين اليمنيين والمضريين كانت هى السبب الدائم فى إثارة الخلاف والفتنة والحرب بين العرب فى الأندلس. وإن هذه الدعاوى قد تقبل على إطلاقها إن لم نجد شيئاً يدحضها. ومن ذلك إسناد الأندلس إلى ثوابة بن سلامة الجذامي وهو يمنى، مع أن معظم المنتصرين كانوا من مضر وفيهم الصمويل بن حاتم، ومن هنا كان قتال جذام وهى يمنية مع الصمويل قائد المضرية لأبى الخطار اليمنى والإنتصار عليه. فإسناد إمارة الأندلس إلى ثوابة بن سلامة الجذامى اليمنى بعد أن تحقق الإنتصار ينفى ان الثورة سببها العصبية القبلية. إذ المتوقع حينئذ، ان يتولى الإمارة الأندلسية رجل من مضر ولكن ذلك لم يحدث. وهذه الظاهرة تبين لنا أن هناك أسباباً أخرى كان يدور من أجلها الصراع فى الأندلس فى هذه الفترة الحرجة، وأن كل فريق أو حزب كان يخوض الحرب لأنه يرى أن يولى الرجل الذى يطمئن إليه ويرتضيه ويحقق له مطالبه سواء كانت هذه المطالب تتعلق بالدين أو بالسياسة او بالشرف والكرامة وسواء أكان الشخص يمنياً أو مضرياً(٥٤).

وقد تمكن أبة الخطار من الفرار من أسره وتمكن من حشد جمع كبير من اليمنية لقتال المضرية وإسترجاع الإمارة وقدم إلى قرطبة فخرج إليه ثُوَابَةُ بمن معه من اليمنيين والمضريين، ولكن جند أبى الخطار تفرقوا عنه، فإنسحب أبو الخطار ولم يلبث أن توفى سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٨م.

وعقب وفاة ثوابة إشتعلت نار الفتنة من جديد وعادت الحرب إلى ما كانت عليه، حيث حرص اليمنيون على إعادة أبى الخطار إلى إمارة الأندلس ورفض ذلك المضريون بقيادة الصمويل بن حاتم وإستعرت نار الفتنة والقتال بين اليمنيين والمضريين أربعة أشهر على خلافة الأندلس حتى تولى عبد الرحمن بن كثير اللخمى من الفريقين.

آخر الولاة : يوسف بن عبد الرحمن الفهرى :

لما تفاقم الأمر وإشتد الخلاف خاف الزعماء من تطور الفتنة إلى أسوأ مما كانت عليه فإتفقوا على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى المضرى الإمارة فى ربيع الثانى سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٨م لمدة عام يتولى بعده أمير من اليمنية. وهكذا تتبادل القبيلتان أو الحزبان الإمارة فيكون الحكم لكل منهما مدة عام. ولما إستقام الأمر ليوسف عزل يحيى بن حريث أحد الحكام اليمنيين، فغضب ودعا اليمنيين إلى الثورة معه وكاتب أبا الخطار فأجابه وحشدت جموع اليمنية التى تؤيدها وزحف على قرطبة مقر الحكم فخرج إليهما يوسف والصمويل فى جموع المضرية وإلتقوا فى مكان يعرف بـ "شقندة" قريباً من قرطبة سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٩م، ودارت رحى حرب ومعركة رهيبة إنتهت بهزيمة اليمنية وقتل فيها أبى الخطار وابن حريث وكثير من زعماء اليمنية وإستتب الأمر ليوسف الفهرى بعد موقعة شقندة فرضى عنه جند اليمن والشام ومضر وعلا شأن الصمويل فخشى منه يوسف على إمارته فأسند إليه ولاية سرقسطة ليبعده عن مقر الإمارة التى إضطربت شئونها، وزاد فى إضطراب الأمور أحداث المشرق وأفريقية وسقوط الخلافة الموية فى دمشق سنة ١٣٣هـ/ ٧٥٢م وعجز سلطان العباسين عن الوصول إلى أفريقية والأندلس آنذاك(٥٥).

وقد وجه يوسف الفهرى جهده إلى إصلاح شئون الإمارة بعد هذه الفتن التى مرت بها وأدت إلى ضعف السلطة المركزية لمحاولة إستقلال كثير من

العمال بولاياتهم، مما شجع النصارى فى الولايات الشمالية إلى السعى لإسترجاع السلطة فى أقاليمهم. وزاد الطين بلة حلول القحط بالأندلس لفترة زادت على أربع سنوات من ١٣١- ١٣٥هـ/ ٧٥٠- ٧٥٤م. مما حمل كثير من الناس على ترك الأندلس إلى أفريقية وخاصة الولايات الشمالية للأندلس؛ فكان ذلك مشجعاً للنصارى فى الشمال على الاستقرار والإستقلال فى البلاد التى رحلوا عنها(٥٦).

ولكن ذلك لم يفت فى عضد يوسغ فأبدى همة عالية قاوم بها الصعاب والمحن وطاف بالأقاليم ينظر فى شئونها ويقضى على الفوضى ويرد المظالم ويعزل الحكام الجائرين، ومهد الطرق ووأصلح نظام الضرائب وأمر بأن تجبى الضرائب عن الأحياء فقط وتسقط عمن توفواوأن تعدّل السجلات تبعاً لذلك فأحبه كثير من النصارى لهذه الإصلاحات كما إهتم بالجيش وتدريبه وإصلاحه حتى يثبت سلطان إمارته. وقد وجه يوسف الفهرى جيشاً إلى جنوب فرنسا بقيادة أحد أبنائه ليسترد هيبة المسلمين ولكنه عاد دون أن يحقق الهدف الذى أرسل من أجله. وما نظن أن ذلك كان أمراً ممكناً إذا علمنا الثورات التى قامت فى وجه يوسف الفهرى وعمل على إخمادها. فقد ثار عليه عبد الرحمن بن علقمة اللخمى حاكم أربونة، وأزنع الخروج إليه فلم يلبث إلا يسيراً حتى نال الله منه. وثار عليه عروة ابن الوليد بباجة وإلتف حوله العرب والبربر وتحالف مع النصارى وتمكن من الإستيلاء على أشبيلية وإتسع نطاق ثورته فخرج إليه يوسف الفهرى ودارت بينهما معارك إنتصر فيها يوسف وقتل عروة وكثير من أصحابه. وكان أشد الثورات وأخطرها ثورة تزعمها تميم بن سعيد وعامر بن عمرو بن وهيب الذى يقال أنه كاتل الخليفة أبا جعفر المنصور وطلب منه مرسوماً بإمارة الأندلس حتى يدعو له بالأندلس ويحكمها بإسمه وإنضم إليهما الحباب بن رواحه الزهرى وإجتمع عليهم كثير من المضرية واليمنية والبربر وإتجهوا إلى سرقسطة حيث كان الصميل بن حاتم وضربا عليه الحصار

ودارت معارك بينهما إنتهت بإنسحاب الصمويل من سرقسطة ووقوعها فى يد الثوار سنة ١٣٦هـ/ ٧٥٣م. وأعلن عامر أنه أمير الأندلس حسبما إدعى انه تمت بموافقة الخليفة أبو جعفر المنصور وبسط سلطانه على ما حول سرقسطة فسار إليه يوسف فى سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م بجيش كبير أعده لذلك وتمكن من حصاره وهزيمته وقتله. وبذلك قضى يوسف الفهرى على كل الثورات التى قامت ضده فى الأندلس. ولكنه لم يكد ينتهى من ذلك حتى فوجئ بخطر جديد جاءه من المشرق فى مطلع ربيع الأول سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م وهو الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (الملقب بصقر قريش) الذى تمكن من إنتزاع الإمارة الأندلسية منه والإستقلال بها. وكان ذلك فى نهاية عهد الولاة[٥٧].

أحوال بلاد الأندلس قبل قيام الدولة الأموية بها :

إذا كان الولاة الأول قد وجهوا جهودهم إلى متابعة الفتح فى جنوب فرنسا وقدموا الشهداء وحرصوا على الاحتفاظ بما فتحوه، فإن آخر عصر الولاة وما شاع فيه من الفتن والإضطرابات والثورات قد فقد المسلمون فيه تلك المناطق التى رووها بالكثير من دمائهم.

فبينما كان يوسف الفهرى يهم بالقضاء على هذه الثورات الضارية التى قامت ضده إغتنم الفرنج تلك الفرصة وإساولوا على أراضى ومدن سبتمانيا ولانجودك، وكانت ما تزال فى أيدى المسلمين فقد سار ببين بن شارل مارتيل سنة ١٣٥هـ/ ٧٥٢م بجيش إلى لانجودك وإستولى على نيم وأفست وماجلون وبيزيه وغيرها وخرب مساجدها وهدم مستشفياتها وقتل من فيها من المسلمين. ولم سجل المسلمون من هذه البلاد فى جنوب فرنسا فى سهولة فقد دافعوا عن كل شير فيها بدمائهم وقدموا الأبطال من شهدائهم.

ورغم عجز حكومة الأندلس آنذاك عن مساعدتهم فقد ظلوا ثلاثة أعوام يقاومون وينسحبون لعجزهم عن الصمود حتى لم يبق فى أيديهم سنة ١٣٨هـ/

٧٥٥م سوى مدينة أربونة التى وصل إليها بجيشه القوى وضرب عليها حصاراً طويلاً صمد له المسلمون طيلة أربعة أعوام. إذ أن أربونة كانت فى حصانة ومنعة وصمم المسلمون على الدفاع عنها حتى آخر جندى وتمكنوا من رد كل هجمات العدو والمحاصر لهم مع عدم تحكم الحكومة المركزية من إمدادهم بما يحتاجونه. ولم يصلهم سوى بعض المؤن والإمدادات عن طريق البحر(٥٨).

وأمام هذا الصمود الإسلامى، لجأ بيين إلى الخيانة والخديعة ووجد فرصته فى سكان المدينة من القوط المسيحيين الذين أرهقهم طول الحصار فإتفقوا معه على الغدر بالمسلمين ومساعدته جيشه على أن يكونوا مستقلين فى بلدتهم وتكون لهم إدارة أمورهم بحسب قوانين القوط وأعطاهم بيين المواثيق والعهود على ذلك فإتفقوا ووافقوا. وتم ذلك فى غفلة من المسلمين وإذ بالثورة تشتعل ضرامها فى داخل المدينة وينقض بعض القوط على حراس الأبواب فيفتحوها ويقتلوا المسلمين؛ ويتدفق جيش الفرنج على المدينة ويعمل الفرنج سيوفهم فى رقاب المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً، ويهدموا مساجدها ويدكوا معالمها وذلك سنة ١٤٢هـ/ ٧٥٩م. فكان ذلك إيذاناً بسقوط آخر معقل للمسلمين فيما وراء جبال البرنية (البرانس) بعد وجود دام قرابة نصف قرن وأبقى الملك بيين جيشاً كبيراً لحراسة البلاد(٥٩).

وبناء على ما تقدم إستغل نصارى الأندلس من القوط الحالة المزرية التى تعرض لها المسلمون وإلتفوا حول زعيمهم "بلاي" فى جيليقية وما حولها من المدن وتمكنوا من إقامة إمارة يبسطون منها سلطانهم على بلاد المسلمين فى الشمال، وساعدهم القحط الذى حل بالأندلس فى سنة ١٣١هـ وإستمر أربع سنوات - كما ذكرنا - وجعل المسلمون يجلون عن تلك البلاد ويتوغلوا فى الأراضى الإسلامية فإستولوا على استرقة وغيرها من البلاد ولم ينته عصر الولاة حتى كانت تلك الولاية شوكة قوية تنغص على المسلمين حياتهم نقلق

وجودهم فى الشمال، وأخذت تعمل بلك ما تملك لطرد المسلمين والإستيلاء على البلاد منهم(٦٠).

على أنه يجب أن نلفت النظر هنا، أن أحداثاً قد وقعت فى بلاد الأندلس، وكانت لها نتائج خطيرة على مستقبل المسلمين فى الأندلس منها: أن السمح بـن مالك ومن جاء بعده من الولاة الذين خاضوا الحروب فى فرنسا ربما قد خـانهم الصواب فى التخطيط لها بدقة ومهارة كما ينبغى. فلم يلتق الجـيش الإسـلامى بجيش العدو فى موقعة من المواقع إلا بعد أن يكون الجيش الإسلامى قد خاض بعض الحروب التى قد أنهكت قواه وترك بعض الحاميات منه فى النواحى التى استولوا عليها، ثم أصبح مشغولاً بالغنائم التى حصلوا عليها؛ وكل ذلك كـان ذا تأثير سىء فى القوة التى يتمتع بها الجيش الإسلامى.

ولعل الوضع السليم كان يتمثل فى أن يعد الجيش لخوض غمار القتـال فى المعارك الكبيرة مثل الموقعة التى وقعت عند طلوشة وموقعة بلاط الشهداء. ثم يرسل القائد سرايا لفتح البلاد المجاورة والإستيلاء عليها.

ولا شك أن المسلمين كانوا يملكون جيشاً إحتياطياً كبيراً إذا نظرنا إلـى إمتداد رقعة البلاد الإسلامية فى الأندلس وحتى دمشق ومن دمشق إلى السند فى الهند. كما يجب أن نشير هنا إلى أن العرب وحدهم لم يكن لهم من القـوة مـا يمكنهم من التوسع والمد على هذا النحو فى الشرق والغرب بل يجب ألا نبخس للعناصر غير العربية حقوقهم وفضلهم فى هذا الفتح. إذ أن الجنس الفارسى فى آسيا والبربر فى شمال أفريقيا كان لهما فضل كبير إلى جانب العرب فى عملية الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً. ولم يكن بإمكان العرب وحدهم التوسـع فـى الشرق أو الغرب دون الإعتماد على أصحاب البلاد المفتوحة فى تحقيق ذلك(٦١).

يضاف إلى ذلك القيادة التى قد أرسى قواعدها النبـي العظـيم محمـد صلوات الله وسلامه عليه فى خوض تلك المعارك والحروب بأكثر من قرن من

الزمان. وذلك عندما ترك خلفاء ضربوا أروع المثل في التضحية والفداء والطاعة والتواضع أيضاً.

مثال ذلك ما حدث في مؤتة في بلاد الشام حيث كان هناك قائداً أعلى يطيعه من هم دونه. فكان ذلك درساً واضحاً أمام المسلمين للسير على نهجه في فتوحاتهم المقبلة. ولما خالف ذلك بعض القواد في أفريقية والأندلس، تعرض الجيش الإسلامي في معظم معاركه للخشارة، إذ أن القيادة العليا هنا لم تكن على غرار أسلافهم الذين إلتزموا أوامر النبي الكريم.

ومع ذلك فإننا نرى أن العيون أو الجواسيس التي كان يرسلها القائد للوقوف على أحوال العدو وإستطلاع حقيقته ربما كانت تخطئ التقدير في غالب الأحوال، وبالتالي لم يكن بمقدور القيادة الإسلامية هنا تحديد كيفية إدارة المعارك على نحو سليم(٦٢).

ولذلك كان أخذ المسلمين على غرة قبل الوصول إلى الدرجة المطلوبة في الإستعداد. وبالتالي لم تكن النتيجة في صالحهم عند اللقاء. وغالباً ما كان يقتل القائد الأعلى هنا.

وإذا أضفنا إلى ذلك عامل الطبيعة التي لم يكن للمسلمين دراية بها من حيث وجود أراضي تتقطعها النهار أو جبال وعرة صعبة المراس، كان يصعب على المسلمين في غالب الأحيان تحديد المكان المناسب لإدارة المعركة ولقاء العدو فيها. بينما كان العكس في صالح العدو الذي كان على معرفة ودراية كاملة بكل سهوله ودروبه وجباله، إذ كان يستدرج الجيش الإسلامي في المكان المناسب له - أي للعدو - .

ومثل هذه الأحوال هي التي حالت دون تقدم المسلمين بعد معركة بلاط الشهداء في مواصلة الفتح.

ولا شك أن إنفصال الأندلس عن جسم الدولة الإسلامية كان أكبر عامل فى إيقاف مواصلة الفتح فى أوربا. ويدل ذلك على تمكن المسلمين من مواصلة الفتح فى شمال أفريقية وحوض البحر المتوسط والإستيلاء على صقلية بعد حوالى قرن من الزمن، وكانت القيادة الفاتحة هنا تابعة للخلافة المركزية فى بغداد، وهو بخلاف الوضع فى الأندلس الذى آل إلى القائم على شمال أفريقية.

وإذا كان هناك رأى يقول: بأن كثرة الولاة فى الأندلس وتعاقبهم قد جعل المسلمين لايبذلون جهوداً فى مواصلة الفتح، فإن ذلك غير صحيح، لأن ما حققه المسلمون فى شمال أفريقية والأندلس والجنوب الفرنسى كان أشبه بالأسطورة التى أذهلت الأوربيين أنفسهم، وأن التضحية والجهاد الإسلامى الذى أدى إلى السيطرة على شبه الجزيرة الأسبانية دليل على دحض هذه الفكرة.

وبذلك نخلص إلى عهد الولاة فى الأندلس وجنوب فرنسا فىجبال البرانس إتسم بأنه كان أكثر جدية بإستثناء الحالات الفردية العصبية التى وقعت هناك، وهى بلا شك كان لها دور فى شغل المسلمين عن مواصلة الفتح تجاه الشمال ولكن كان غالباً ما يمكن التغلب عليها: وإن كان قد ترتب عليها آثار سلبية وخطيرة بالنسبة لمستقبل المسلمين فى بلاد الأندلس[٦٣].

هوامش الفصل الأول :

(١) لين بول: العرب فى أسبانيا، ص٥٧- ٥٨.

(2) – Camp. Med. Hist. vol. 3, p. 309.

(٣) إبن عذارى، البيان المغرب، جـ٢، ص٣٧- ٣٩.

(٤) نفسه، نفس المصدر والجزء والصفحات.

(5) – Diehl, Marcais; Le Monde Orient. pp. 360- 361.

(٦) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص١٧- ١٩، ط. الابيارى، دار الكتاب المصرى، القاهرة، ١٩٨٢م.

(7) – Camp. Med. Hist. vol. 2, pp. 303– 304.

(٨) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٧٩.

(٩) عبد اللطيف عبد الهادى السيد (دكتور)، موسوعة التاريخ الاسلامى، جـ٤، إقرأ ما يتعلق بعمر بن عبد العزيز.

(١٠) المؤرخ، رؤية من خلال متابعة الأحداث والتاريخ الإسلامى.

(١١) برنارد لويس، العرب فى التاريخ، ص٢١- ٢٣.

(١٢) ابن عذارى، المصدر السابق، جـ١، ص٤١- ٤٢.

(13) A. History of Medievol Spaion, I Thaea and London; 1975, pp. 112– 113.

(١٤) أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس، أنظر ما يتعلق بالفتوحات الإسلامية، والفصل الخاص "بعصر الولاة".

(١٥) ابن عذارى، البيان المغرب، جـ٢، ص١٧- ١٨ وما بعدهما.

(١٦) إبن عذارى، المصدر السابق، جـ٣، ص١١٢، وراجع أحمد مختار العبادى، المرجع السابق، (عصر الولاة فى الأندلس).

(17) - Dozy, R; Histoire des musalmans D'Espagne, to. 9, Leyde, 1932; pp. 13– 15.

(١٨) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص٢٧، وراجع: العبادى، المرجع السابق (عصر الولاة فى الأندلس).

(١٩) الحميدى، جذوة المقتبس، ص٢٣- ٢٥، وراجع :

– Dozy R., op. cit. tom. 9, pp. 17- 18.

(٢٠) عن عصر الولاة فى الأندلس، أنظر: ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٣، ص١٢٥ وما بعدها٣. وراجع؛ ابن بسام، الذخيرة، القسم الثانى، المجلد الأول، ص١٤ وما بعدها.

(٢١) ابن عذارى، المصدر السابق، جـ٢، ص١٧٠ وما بعدها.

(٢٢) نفسه، نفس المصدر والصفحات، وراجع؛ ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، م/٣، ص١٩٨٥م.

(٢٣) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٧، ص٢٧٠، وراجع:
- Dozy; op. cit. tome; 9, pp. 19- 20.

(٢٤) ابن القطان؛ نظم الجمان، ص٢١٣، وأنظر أيضاً: النباهى، المرقبة، ص٩٧- ٩٩، وراجع: ابن عذارى: المصدر السابق، جـ٤، ص٣٤.

(25) – Gaspar Remiro, Murcia musulmana, pp. 157– 158. and see also; Huici Miranda, A; Historia musulmana de Ralencia, t. III, pp. 100– 103.

(٢٦) أحمد مختار العبادى، المرجع السابق، (عصر الولاة فى الأندلس).

(27) – Dozy, R; op. cit, t., 9, pp. 113– 114.

(٢٨) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص٥١٧-٥٢٩.

(29) - Comp. Med. Hist. vol. 3, p. 309.
وراجع أيضاً، سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ١، ص٥١٧ وما بعدها.

(30) - Comp. Med. Hist. vol. 3, p. 309– 310.

(32) Diehl, Marcais, Le Monde Orientalis, p. 396.

(32) Cam. op. cit. p. 309.
وراجع أيضاً، سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ١، ص٥١٧ وما بعدها.

(٣٣) إبن عذارى، المصدر السابق، جـ٣، ص١٤٠، وراجع عاشور، المرجع السابق، والصفحات.

(٣٤) ابن القطان، نظم الجمان، ص٢١٧. وابن عذارى، المصدر السابق، نفس الصفحات.

(٣٥) إبن القوطية، إفتتاح الأندلس، ص٧٥، أخبار مجموعة، ص٤٧.

(٣٦) ليفى بروفنسال: الإسلام فى المغرب والأندلس، ص٢٤٥- ٢٥٠.

(٣٧) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، نفس الصفحات.

(٣٨) ابن عذارى، المصدر السابق، جـ٣، ص١٥٦- ١٥٧، وراجع :
- Gaspar Remiro, op. cit., p. 142.

(٣٩) ابن خلدون ، المقدمة، ص٨٠٥- ٨٠٦، وراجع النباهى، المرقبة العليا، ص٧-٨.

(٤٠) ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الصفحات.

(٤١) ابن قوطية القرطبى، تاريخ إفتتاح الأندلس، نشر دون غليان ويبرا، ومدريد ١٩٢٦م، ص٣٧- ٣٩.

(٤٢) نفسه، نفس المصدر والصفحات.

(٤٣) إبن عذارى، المصدر السابق، ص٥٧- ٥٨ وما بعدهما.

(٤٤) أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس (عصر الولاة فى الأندلس).

(٤٥) نفسه، نفس التاريخ والصفحات، وراجع: مؤلف مجهول، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، تحقيق ابراهيم الابيارى، دار الكتاب المصرى، القاهرة، ١٩٨١م، ص١٩٣- ١٩٥.

(٤٦) أخبار مجموعة، المرجع السابق، ص١٩٦؛ وراجع ابن عذارى، المصدر السابق، جـ٤، ص٣٧ وما بعدها.

(٤٧) أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس، أنظر ما يتعلق بمراحل الفتح فى الأندلس.

(48) – Camp. Med. History, vol. 3, pp. 309– 311.
وراجع: سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص٥١٧ وما بعدها.

(٤٩) حسن على حسن، الحضارة الإسلامية فى الأندلس على عصر الموحدين، القاهرة ، ١٩٨٠م، ص٥٧- ٥٩. وراجع كتابى "موسوعة التاريخ الإسلامى" جـ٩، ١٠، الاسكندرية، ط/١، ٢٠١٠م.

(٥٠) ابن القوطية؛ إفتتاح الأندلس، ص٤٧- ٤٨ وما بعدهما، وراجع ابن عذارى، المصدر السابق، جـ٣، ص١٤٧.

(٥١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود على مكى، ص٢٨- ٣٠. وراجع: مؤلف مجهول، مجموعة فى فتح الأندلس، ص١١٤- ١١٥.

(٥٢) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص١١٨- ١١٩، وأنظر: ابن عذارى المراكشى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الثانى،

تحقيق كولان وليفى بروفنسال، دار الثقافة ببيروت، بدون تاريخ، ص٦٥- ٦٦.

(٥٣) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، ص١٢١- ١٢٢.

(54) Mahmud Makki, Ensayo saber Los aportaciones orienta les en la Espana Musulmana, icos en Madrid, V. IX-X, Madrid, 1961, pp. 129– 154.

(٥٥) المقرى؛ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الأندلس، المجلد الثانى، بيروت (ب – ت)، ص٤٣- ٤٥.

(٥٦) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبيارى، القاهرة، ١٩٨١، ص١٢٧- ١٢٩.

(٥٧) مؤلف مجهول، المصدر السابق، نفس الصفحات، وأنظر: ابن القوطية، المصدر السابق، ٤٦- ٤٧، وراجع: ابن عذارى، المصدر السابق، جـ٢، ص٧٥- ٧٧.

(٥٨) محمد بن عبد الله عنان، دولة الإسلام فى الأندلس، العصر الأول، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٦٩م، ص٢٤٣ وما بعدها.

(٥٩) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين فى الأندلس، ص٢٢٢- ٢٢٣، وراجع: أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس، ص١٢٨- ١٢٩ وما بعدها.

(٦٠) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص٢٢٥ وما بعدها، وراجع: العبادى، المرجع السابق، ص١٣٠ وما بعدها.

(٦١) ابن عذارى، المصدر السابق، جـ٢، ص٧٩.

(٦٢) كمال السيد محمد أبو مصطفى، تاريخ مدينة بلنسية الإسلامية حتى سقوطها فى أيدى المرابطين، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب الإسكندرية، ١٩٨١م، ص١١٧ وما بعدها.

(٦٣) نفس المرجع والصفحات.

الفصل الثانى

قيام الدولة الأموية فى الأندلس

(عصر الإمارة)

- سقوط الدولة الأموية فى دمشق .
- هروب عبد الرحمن بن معاوية إلى أفريقية.
- عبد الرحمن يتطلع إلى الأندلس .
- عبد الرحمن الداخل وإحياء الدولة الأموية فى الأندلس
- الصعوبات التى واجهت عبد الرحمن وكيف تغلب عليها :

١- موقعة المصارة والإستيلاء على قرطبة .

٢- قضاء عبد الرحمن بن معاوية على كل من يوسف الفهرى والصميل .

٣- موقف عبدالرحمن من ثوار العرب والبربر والأقارب .

٤- موقف عبد الرحمن من المؤامرات التى تحاك له فى الداخل والخارج .

- عبد الرحمن بن معاوية وإصلاحاته الداخلية .
- أمراء الأندلس من بنى أمية بعد عبد الرحمن بن معاوية.

- سقوط الدولة الأموية في دمشق :

فى سنة ١٣٢ هـ /٧٤٩م تمكن العباسيون من اسقاط النظام الأموى فى دمشق وقيام الخلافة العباسية فى بغداد واتخاذها حاضرة لها بدلا من دمشق، واضطر آخر الخلفاء الأمويين إلى التوجه نحو نهر الزاب (مروان بن محمد)، ولكنه لم يتمكن من مواجهة العباسيين وفرّ هارباً يتتبعه الجيش العباسى فى بلاد الشام وفلسطين فمصر حيث لقى حتفه هناك. وبذلك تنتهى الخلافة الأموية فى المشرق فى ١١ من جمادى الأخرة سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م . وحاول العباسيون متابعة أفراد البيت الأموى فى كل مكان للقضاء عليه نهائيا. ولكن واحد من الأمويين يدعى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن مناف تمكن من أن ينجو بنفسه ويصل متخفيا إلى مصر ثم شمال أفريقية حتى وصل بلاد المغرب ليقيم فيها ثم ينتقل إلى الأندلس ويقيم دولة .

ويشير بن عذارى أن اتصال دولة بنى أمية فى المشرق لم ينقطع عنها فى المغرب إلى سنة ٤٢٤هـ/ ١٠٤١م. غير أن هذا الرأى غير صحيح ذلك أنه يمكن أن تكون الدولة الأموية فى المشرق والمغرب متصلة لو أن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى إنقاد لعبد الرحمن بن معاوية عند وصوله إلى الأندلس وسلم إليه إمارة الأندلس دون أن ينازعه عليها حتى تراق الدماء بينهما. ولكن الحرب التى قامت بينهما تدل على أن الدولة الأموية فى المشرق قد انتهت؛ وأن عبد الرحمن بن معاوية قد استطاع بمجهوده الشاق أن يعيدها فى الأندلس بعد ست سنوات من إنتهائها فى المشرق .

لذلك نجد أن محمد بن حزم يذكر انتهاء الدولة الأموية فى المشرق بمروان بن محمد، ويصفها بأنها كانت دولة عربية لم يتخذ ملوكها قاعدة لأنفسهم وأنما كان يسكن كل أمير فى داره وضيعته اللتان كانتا له قبل الخلافة،

وأنهم لم يطلبوا مخاطبة الناس بالعبودية لهم والملك ولا تقبيل الأيــد أو الأرض تحت أرجلهم إنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة؛ والتولية والعزل فى أقاصــى بلاد الدنيا، فكانوا يعزلون العمال ويولون غيرهم فى السند والهند وفى خراسان وأرمينية وفى العراق واليمن والمغرب الأدنى والأقصى وبلاد الــسوس وبــلاد الأندلس، وبعثوا إليها الجيوش وولوا عليها من ارتضوا من العمال وملكوا أكثر الدنيا فلم يملك أحد من الملوك الدنيا ما ملوكوه من الأرض إلى أن تغلب عليهم بنو العباس فى المشرق وانقطع بها ملكهم. فابن حزم يذكرانقطاع ملكهم وهــو الرأى الذى أميل إليه [1].

ولكن كيف انتهت الدولة الأموية فى المشرق بسرعة وهى تتصف بهذه الصفات القوية التى يذكرها بن حزم، وأن عصر هذه الدوة يمثل العصر الذهبى فى تاريخ الاسلام قاطبة .

وهنا نجد أنها مع تمتعها بهذه الصفات القوية فى سلطانها فــإن هنــاك أيضا عوامل فساد قوية استطاعت أن تهدم هــذا الــصرح القــوى المترامــى الأطراف .

فمن تلك الظروف التى قامت فيها الدولــة الأمويــة والأثــار الدينيــة والمعنوية التى أثارتها السياسة الأموية فى أنحاء الدولة الإسلامية بالحد من مبدأ الشورى الذى هو من أهم مبادئ وأسس الدين الإسلامى .

يضاف إلى ذلك، الصراع الذى قام بين الأمويين وبين العلــويين، وأدى مقتل الحسين بن على وكثير من آل بيته فى كربلاء سنة ٦١ هـــ. ثم الحــرب التى قامت بين الأمويين وعبدالله بن الزبير استنفذت كثيــراً مــن قــوة الدولــة وشبابها .

كما كانت لثورات الخوارج المتعددة والمنتشرة فى أنحاء الخلافــة فــى المشرق والمغرب أكبر الأثر فى ضعف وانهاك الدولة وتشتت قواها .

هذا بالاضافة إلى اضطرام العصبية بين القبائل المغربية ثم شيوع التنافس بين العرب وغيرهم من أبناء البلاد المفتوحة مع عدم الالتزام فى غالبية الوقت بتحقيق مبدأ العدالة التى ينشدها الإسلام. كل هذه العوامل تضافرت فى ضعف الدولة الأموية ثم انهيارها بسرعة(٢) .

هذا إلى جانب تصارع البيت الأموى نفسه فى داخله على السلطة، فقد كانت من العوامل القوية التى شغلت الخلفاء عن مواجهة الخطر العباسى لها.

فقد مكنت كل هذه العوامل السابقة العباسيين من أن يخططوا ويدبروا فى كتمان وسريعة تامة مستغلين الأسباب والعوامل السابقة فى بعضها أو جميعها، متخذين من بعض الأعوان والأنصار من أمثال أبو مسلم الخراسانى الذى اعتبره من وجهة نظرنا صاحب الفضل الأول فى قيام الدولة العباسية خاصة فى اقليم خراسان، والذى تنكر له العباسيون فيما بعد بل ودبروا أمر قتله بتدبير من أبى جعفر المنصور. وعلى هذا قامت الدولة العباسية على أكتاف الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ .

هروب عبد الرحمن بن معاوية إلى أفريقية :

بعد زوال الدولة الأموية على أيدى العباسيين سنة ١٣٢هـ حاولوا القضاء على آخر خليفة أموى ليقطعوا دابر الأمويين وكان هذا الخليفة هو مروان بن محمد، وبذلك يضمنوا عدم إثارة الشغب ضدهم. فيذكرالمؤرخون أنهم - أى العباسيون - أخذوا يقتلون كل من يقع فى أيديهم، مما حمل أفراد البيت الأموى على التخفى والهرب(٣) .

وكان ممن تمكن من الفرار والهرب من البيت الأموى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان. ومعظم المؤرخين القدامى والمحدثين يذكرون قصة هروب عبد الرحمن هذا بصورة أسطورية. كما يذكرون نبوءات

تدور حول أنه سيجد ملك بنى أمية فى المغرب. وسوف أورد رواية صاحب أخبار مجموعة التى يوردها على لسان عبد الرحمن بن معاوية عن هذا الأمر ثم أعلق عليها بالنسبة لهروبه والنبوءة بمستقبله يقول: أخبرنى من سمع عبد الرحمن بن معاوية يحدث طائفة من بدو حديث هربه قال: لما أمنا وشاع ذلك ركبت متنزها فوقع بهم وأنا غائب فرجعت إلى منزلى فنظرت فيما يصلح أهلى ويصلحنى وخرجت حتى صرت فى قرية على الفرات ذات شجر وغياض وأنا والله ما أريد إلا المغرب وكنت قد بلغنى رواية كان والدى رحمه الله قد هلك فى زمن جدى رحمه الله كنت صبياً إذ هلك فأقبلت وأخوتى إلى الرصافة إلى جدى مسلمة بن عبد الملك رحمه الله ولم يمت بعد فنحن وقوف ببابه على دوابنا إذ سأل مسلمة عنا فقيل أيتام معاوية فإغرورقت عيناه بالدمع ثم دعا بنا الإثنين فالإثنين فأقبل يدعونا حتى قدمت إليه فأخذنى وقبلنى ثم قال لقيّم هاته وأنزلنى عن دابتى وجعلنى عن أمامه وجعل يقبلنى ويبكى بكاءً شديداً فلم يدع بعد من كان أصغر من أخواتى وشغل بى فلم يفارقنى فأنا أمامه على سرجه حتى يخرج جدى فلما رآه قال ما هذا يا أبا سعيد فقال بنى لأبى المغيرة رحمه الله ثم دنا من جدى فقال له تدانى الأمر وهو هذا قال أهو؟ قال: أى والله قدعرفت العلامات والأمارات بوجهه وعنقه. قال ثم دعا القيّم فدفعت إليه وأنا بن عشر سنين يومئذ أو نحوها فكان جدى رحمه الله يؤثرنى ويتعاهدنى بالصلة والبعثة التى فى كل شهر وكنا بكورة قنسرين بيننا وبينه مسيرة يوم حتى مات مسلمة أبو سعيد قبله لسنتين فكانت تلك فى نفسى مع أشياء كانت تذكر فإنى لجالس فى القرية كنا فيها ولم يبلغنا بعد إقبال المسودة (السودة) فكنت فى ظلمة البيت وأنا أرمد شديد الرمد ومعى خرقة سوداء أمسح بها قذا عينى والصبى سليمان – أى ابنه- يلعب وهو ابن أربع سنين أو نحوها إذ دخل من باب البيت فترامى فى حجرى فدفعته لما كان إلىّ ثم ترامى وجعل يقول لى ما يقول الصبيان عند الفزع قال فخرجت فإذا أنا برايات مطلة فلم يرعنى إلا دخول أخى فلان فقال يا أخى رأيت السودة

وكنت لمافعل بى الصبى ما فعل قد خرجت فرأيتهم فلم أدرك شيئا أكثر من دنانير تناولتها ثم خرجت أنا والصبى أخى وأعلمت أخواتى أم الأصبع وأمه عبد الرحمن بتوجهى وأمرتها أن يلحقنى غلامى بما يصلحنى إن سلمت فخرجت حتى اندست فى موضع ناء عن القرية وأقبلوا فأحاطوا بالقرية ثم بالدار فلم يجدوا أثراً ومضينا حتى لحقنى بدر ثم خرجت حتى آتيت رجلاً على شاطئ الفرات وأمرته أن يبتاع لى دواباً وما يصلحنى فأنا أرقب ذلك إذ خرج عبد له أو مولى فدل علينا العامل فأقبل إلينا فوالله ماراعنا إلا بجلبة الخيل إلينا فى القرية فخرجنا نشتد على أرجلنا وأبصرتنا الخيل فدخلنا بين أجنة على الفرات واستدارت الخيل فخرجنا وقد أحاطت بالأجنة فتبادرنا وسبقناها إلى الفرات فترامينا فيه وأقبلت الخيل فصاحوا علينا. ارجعا لا بأس عليكما فسبحت وسبح الغلام أخى فلما سرنا ساعة سبقته بالسباحة وقطعت قدر نصف الفرات فإلتفت لأرق وأصيح عليه ليلحقنى فإذا هو والله لما سمع تأمينهم إياه وعجل خاف الغرق فهرب من الغرق إلى الموت فناديته أقبل يا حبيبى إلىّ فلم يأذن الله بسماعى فمضى ومضيت حتى عبرت الفرات وهم بعضهم بالتجرد ليسبح فى أثرى ثم بدا لهم وأخذوا الصبى فضربت رقبته وأنا أنظر وهو ابن ثلاث عشرة سنة رحمه الله. ثم مضييت. فهذا حديثه رحمه الله(٤) .

تلك هى القصة التى ذكرتها المصادر القديمة ورددتها المراجع الحديثة للمؤرخين المسلمين والمستشرقين وهم يحرصون على ذلك كل الحرص .

كان هروب عبد الرحمن بن معاوية من الشام إلى المغرب ثم الأندلس أمر واقع ولا شك فيه، ولكن ما نسج حوله من قصة الهرب التى ذكرناها بطلب خيل العباسيين له وأنهم عثروا عليه فألقى بنفسه فى نهر الفرات وسبح حتى عبر إلى الشاطئ الآخر. وأن أخاه كان معه. فعندما سمع الأمان المقدم إليه وعجز عن السباحة عاد إليهم فكان نصيبه القتل على مرأى من عبد الرحمن الذى كان قد وصل إلى الضفة الأخرى. فذلك أمر يدعو إلى الريبة والشك فى

الصورة التى نسجتها القصة حول الهرب. لأن حرصهم على القبض عليه يدعوهم إلى أن يؤخروا قتل أخيه أمام عينيه حتى يطمئن إليهم ليقضوا عليه. كما كان من الممكن أن يعبر خلف عبد الرحمن من يريد القبض عليه خاصة وهو عار ولا يحمل سلاحاً. كما أن اختفاءه بعد خروجه من النهر أمر صعب عليه يسهل مهمة القبض عليه. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ولم يفكر فيه مما يدعو إلى الشك فى حادث وقصة الهرب بهذه الصورة التى يصر المؤرخون عليها. ولذلك نجد ابن قتيبة لا يشير إلى شئ من هذا القبيل وإنما يقول: إن عبد الرحمن ولى ذاهباً وخرج لا يدرى متى خرج فلحق بالمغرب. أى أن خروجه وهروبه كان فى سرية وكتمان شديدين، ولم يعلم به أحداً. ويقول ابن عذارى: خرج متخفيا من موضع إلى موضع وهمه الأندلس(٥).

ومن المثير للدهشة أيضا؛ أن المؤرخين يصرون على الإشارة إلى قرب زوال الدولة الأموية، والبشارة بأن بعد الرحمن بن معاوية هو محى دولتهم فى المغرب. وكأن كل شئ يحدث فى الدولة الأسلامية يقترن بنبوءة من النبوءات ولولا ذلك ما كان هناك تحرك ذاتى وأنه لولا هذه البراءة ما حرص عبد الرحمن بن معاوية على أن يقوم بما قام به وهو أمر غير مقبول. لأن العزيمة والصبر والحنكة والإصرار وتحدى الصعاب الذى كان يتحلى به عبد الرحمن هو الذى مكنه من الوصول إلى ما وصل إليه من تأسيس دولة أموية بالأندلس. وعلى هذا يجب أن ننقى تاريخنا من تلك الشوائب العالقة به حتى يكون هناك تاريخا أقرب إلى الصواب منه إلى الأساطير والخرافات(٦) .

على أية حال تمكّن عبد الرحمن بن معاوية من أن ينجو من تعقب بنو العباس للبيت الأموى ويصل إلى فلسطين فمصر حيث لحق به مولاه بدر وسالم مولى شقيقته وكانا يحملان مالاً وجواهر أرسلته إليه أخته أم الأصبع وقد توجه بذلك إلى برقة ونزل على أخواله من نفزة وهم من بربر طرابلس، وكانت أمه بربرية منهم تدعى"راح" وكان يحكم أفريقية وقتذاك عبد الرحمن بن حبيب

الفهرى الذى سبق أن تحدثنا عنه فى ولاية افريقية. وقد ثار الفهرى على حنظلة بن صفوان حتى رحل عن أفريقية وقدم الفهرى طاعته للأمويين ثم العباسيين عند قيام دولتهم وحاول أن يقوم بأفريقية مستقلاً تحت هذه الطاعة الإسمية. ولذلك نراه يتتبع الأمويين الذين لجئوا إلى أفريقية هرباً من العباسيين فقتل بعضهم وهما ولدا الوليد بن يزيد. كما تتبع بقية الأمويين ليقضى عليهم حتى يأمن خطرهم الذى يحذوه وهو محاولتهم الثورة عليه وأخذ أفريقية منه لأنهم أصحاب ملك، سيعملون على استرجاعه أو إحياءه فى منطقة من مناطق دولتهم المسلوبة[٧] .

ويعود المؤرخون فيذكرون نبوءة أخرى على لسان يهودى له بأن معاوية سوف يملك أفريقية. وهكذا يحاولون أن يجعلوا أحداث التاريخ الإسلامى قائمة على النبوءات وذلك بعيدا كل البعد عن حقيقة التاريخ الإسلامى الذى يربى أبناءه على أن الغيب لا يعرفه إلا الله وحده سبحانه وتعالى، مما يجعلنا نميل الى الروايات التى تتعلق بالنبوءات، روايات ملفقة ولا اساس لها من الصحة. وربما الذين يقومون بها يحاولون الوصول إلى مأرب يتطلعون إليه فى المستقبل عندما تقوم الدولة الأموية؛ فهم أصحاب أغراض وأطماع شخصية بطبيعة الحال[٨].

وعلى العموم حاول عبد الرحمن بن معاوية أن يبتعد عن هذا الوالى الذى يتتبع الأمويين فأخذ ينتقل من قبيلة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر. فيذكرون أنه ذهب إلى موضع يقال له "بارى" فى بلاد المغرب، فنزل فى قبيلة مكناسة وقد أصابه حينئذ بعض الضيق. وقيل أنه نزل فى قبيلة "مغيلة" عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانوس فعملوا على تفتيش منزله ولكن زوجة الشيخ البربرية عملت على إخفائه عنهم بحيلة ما. ولكن ليس بالضرورة الذى يذكرها المؤرخون من أنها خبأته تحت ثيابها لأن ذلك غير ممكن بالنسبة لرجل جاوز العشرين من عمره. وقد أحس عبد الرحمن وأنوس وزوجته بعد أن صار أميراً للأندلس. ويأبى المؤرخ "المقرى" إلا أن يورد طرفة عن الهيئة التى ذكرها

لإخفاء بعد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك آنذاك فيـذكر: أن عبـد الرحمن قال لتكفأت - أى زوجة الشيخ - مداعيا حين استظلت بظله فى الأندلس بعد ن صار أميرا لقد عذبتنى ... فتكفأت علىّ ما كان بى من الخوف ... فكان جوابها له بسرعة. بل ذلك كان اوالله يا سيدى منـك ... فاسـتظرف جوابهـا وأغضى من مواجهتها بمثل ذلك وهذا من آفات المزاح(٩).

ويذكر ان الأثير وابن خلدون والمقرى أنه عندما اشتد عبدالرحمن عامل أفريقية فى طلبه أتى مكناسة فلقى عندهم شدة، ثم هرب من عندهم فأتى نفزارة وهم أخواله، وقيل أتى قوماً من الزناتيين فأحسنوا قبوله وأطمأن فيهم ثم لحـق بمليلة وأخذ فى تدبير المكاتبة إلى الأمويين من أهل الأندلس(١٠) .

تلك هى الأماكن التى تردد عليها عبد الرحمن بن معاوية خـلال فتـرة إقامته فى أفريقية. ويخطئ "دوزى" عندما يقول: أنه لاذ حيناً آخر بـبلاط بنـى رستم ملوك تاهرت لأن الدولة الرستمية لم تكن قد قامت بعد فكيف يلوذ بها.

عبدالرحمن يتطلع إلى الأندلس :

مكث عبد الرحمن بن معاوية يتنقل فى أفريقية خمس سنوات لقى فيهـا كبير عنت. ولكن عبد الرحمن الفهرى حاكم أفريقية الذى كان يطارده لم يستطع أن يقبض عليه. وقد نزل عبد الرحمن بن معاوية أخيراً عند قوم من زناته على شاطئ البحر قرب سبته. وكان أثناء اقامته فى أفريقية يتطلـع إلـى الأنـدلس ويدرس أحوالها وأخبارها ويرقب فرص العبور إليها .

كانت الأندلس فى ذلك الوقـت يـسودها الاضـطراب بـسبب الفـتن والعصبيات القبلية بين المضرية واليمنية. ورأى عبد الرحمن بن معاوية هذا أن يستغل الوضع القائم بالأندلس بأن يحذب بعضهم ليؤيدوه حتى يصل إلى تحقيق ما يريد ومن إقامة الدولة الأموية فى الأندلس. فأرسل مولاه بكتاب فى أواخـر

سنة١٣٦هـ/٧٥٣ م إلى موالى بنى أمية فى الأندلس فنزل بدر بقرية طوش من ساحل البيرة. وكانت منزل جند الشام ويجتمع فيها موالى بنى أمية. وكانت رياستهم إلى أبى عثمان عبد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد فاجتمع بدربهما وقم إليهما كتاب عبد الرحمن، ويشكو فيه ما إبتلوا به ويعظم عليهم حقه ونزوعه إليهم وما صنع به ابن حبيب وبقومه بأفريقية ويعلمهم أنه إن دخل يوسف لم يأمنه ويعرض أنه إنما يريد الاعتزاز بهم وأن يمنعوه وأن تهيأ لهم ما فيه طلب السلطان الأندلسى أن يعلموه[١١] .

وقد نشط موالى الأمويين لهذا الأمر واستشاروا الصمويل زعيم القيسية فى معاونة عبد الرحمن بن معاوية وتأييده. ولكن الصمويل بعد أن استجاب لنصرة عبد الرحمن عاد فأبدى تردداً وفتوراً واقترح أن يتزوج عبد الرحمن من ابنة يوسف وأن ينزل آمناً فى ظله ثم صرفهما. وقال: إن عبد الرحمن من نسل قوم لو بال أحدهم فى هذه الجزيرة لغرقنا فى بوله ولكن ستر الله عليكما وعلى مولاكما.

عمل موالى بنى أمية بعد أن يئسوا من مساعدة مضر وربيعة على دعوة اليمنية لمناصرة عبد الرحمن بن معاوية فوجد اليمنيون الفرصة لأخذ ثأرهم من المضرية الذين انتصروا عليهم فى موقعة "شقندة" وليستردوا مكانتهم التى فقدوها فرحبوا باستقبال الأمير الأموى وأبدوا استعدادهم لمناصرته. وكان من الزعماء اليمنيين الذين استجابوا لذلك أبو الصباح اليحصبى شيخ اليمانية فى غرب الأندلس ومسكنه قرية مورة. وعلقمة بن غياث اللخمى. وأما علاقة الجذامى وزياد بن عمر الجذامى جد بن زياد الشذونية وكانوا رؤساء الشاميين بشذونة ومنهم رؤساء القحطانيين بالبيرة وجيان مثل جد بنى أضحى الهمذانى وجد بنى حسان وبنى عمر الغسانيين وميسرة وقحطبة الطائيين بجيان كما انضم اليهم الحصين بن الدجين العقيلى للتباعد الذى كان بينه وبين الصمويل بن حاتم، ولم يمل من المضرية إلى عبد الرحمن بن معاوية غيره[١٢] .

عندئذ طلب موالى الأمويين من بدر أن يجتاز إلى عبد الرحمن ليخبره بذلك. ولكن عبد الرحمن أبدى حذره وقال: ليس تطيب نفسى على دخول الأندلس إلا أن يكون معى واحد منهم(١٣).

عاد بدر إليهم بجواب عبد الرحمن وكانت الأمور مهيئة لقدوم عبد الرحمن، حيث أن يوسف الفهرى خرج إلى سرقسطة لمحاربة عامر القرشى الذى خرج عليه فابتاع موالى الأمويين مركباً ووجهوا فيه أحد عشر رجلاً مع بدر حيث وصل إلى الشاطئ الأفريقى.

ولقى بدر مولاه وقدم إليه تقريراً سريعاً عن ترحيب أنصاره به فى الأندلس من موالى الأمويين وقبائل اليمنيين. كما قدم اليه الأشخاص الذين قدما معه ومنهم تمام بن علقمة الذى قال له عبد الرحمن ما اسمك؟ قال تمام. قال وما كنيتك؟ قال أبو غالب. قال : تم أمرنا وغلبنا عدونا واتخذه بعد ذلك حاجباً له .

هَمّ عبد الرحمن بالدخول إلى المركب، ولكن البربر أقبلت إليهم لتمنعهم من أخذ عبد الرحمن ففرّق عليهم تمّام بعض المال، ثم اتجهوا إلى الأندلس فنزل عن المنكب فى غرة ربيع الأول سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م. وعرف بعد ذلك بعبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل من ملوك بنى أمية إلى بلاد الأندلس(١٤) .

ومن هنا يبدأ عصر جديد فى تاريخ الأندلس عرف بعصر الإمارة ويبدأ بتاريخ جديد ونظام سياسى جديد فى الأندلس للمسلمين، حيث أن الكيان الجديد قام دون سابق إنذار، ألا وهو بداية العصر الأموى بالأندلس كبديل للدولة الأموية الكبيرة التى كانت تتخذ من دمشق حاضرة لها، فالآن صارت الحاضرة هى قرطبة فى أقصى الجنوب الغربى لأوربا .

عصر الإمارة

عبد الرحمن الداخل :

توجه عبد الرحمن الداخل (ابن معاوية) إلى الأندلس مع الركب الذى قدم لصحبته حيث أرسلت السفينة إلى المكنب على شاطئ الأندلس وكان فى استقباله أبو عثمان وعبد الله بن خالد اللذان رحبا به واستقبلاه وصحباه إلى الفونتين منزل عبد الله بن خالد ثم توجه إلى مدينة طوش من كورة البيرة منزل أبى عثمان وفيها يكثر موالى بنى أمية الذين أقبلوا إليه يعلنون تأييده ومناصرته وقد أعد للأمير ما يصلحه من المركب، فغلظ أمر ابن معاوية وأقبل الناس من كل مكان إليه وازداد أمرة قوة بعد أن أخذ يوسف بن يخت البيعة له من جند الأردن. وأخذها تمام بن علقمة من جند فلسطين وعبد الله بن خالد من جند حمص.

وكانت رياسة العرب بكورة زية إلى جدار بن عمر القيسى جد بنى عقيل فذهب إليه أبوعثمان وبعد الله بن خالد وأعلماه بقدوم عبد الرحمن الداخل فقال لهما: توافونى به مصلى أرجذونة يوم الفطر وترون مايكون منى إنشاء الله

فلما تعافوا وجاء الخطيب، قام إليه جدار فقال له: إخلع يوسف بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، فهو أميرنا وابن أميرنا ثم قال: يا أهل زية ما تقولون؟ فقالوا : نقول ما تقول فخطب وبايعوه عند انقضاء الصلاة. وهكذا ابتدأت بيعة عبد الرحمن الداخل أميرا فى كورة "زية" ثم يوم الفطر سنة ١٣٨هـ ثم أتى عبد الرحمن شذونة فبايعه غياث بن علقمة ثم جاء مورو فبايعه أبو صالح يحى بن يحيى (١٥) .

ويصور بن عذارى بدأ تكوين الجيش المؤيد لعبد الرحمن الداخل بأن تمّام بن علقمة قال دخلنا " زية " فى ستمائة فارس فخرجنا منها فى ألفى فارس وخرجنا من أشبيلية إلى قرطبة فى ثلاثة آلاف فارس . وعندما نزل عبدالرحمن

بن معاوية الأندلس كان يوسف يوسف بن عبد الرحمن المتغلب على الأندلس قد لنتصر على الثائرين عليه فى سرقسطة وبدأ يـتخلص مـن خـصومه الـذين يعارضون بعض تصرفاته حتى تكون الأندلس خالصة له ولولده من بعده ولكنه فوجئ بعبد الرحمن بن معاوية فى الأندلس وتأييد موالى الأمـويين والقبائـل اليمنية له وكان عليه أن يضع الخطط للتخلص منه، وقد شاور الـسموي بـن حاتم فى أمره فأشار عليه بأن يتوجه إليه قبل أن يشتد ساعده بكثرة المناصرين له ولكن جيشه الذى كان قد فرغ من التغلب على الثائرين فى سرقسطة رفـض أن يتابع التقدم نحو عبد الرحمن الداخل مما اضطر يوسـف الفهـرى إلـى أن يذهب إلى قرطبة وينتظر انتهاء فقص الشتاء الذى قد بدأ، ورأى يوسف الفهرى أن يرسل إلى موالى الأمويين يحذرهم ويخوفهم من مناصرة عبـدالرحمن بـن معاوية (الداخل) والخروج عليه فأجابوه بأن عبد الرحمن الداخل إنما أقبل إليهم يريد الذى لجده هشام بن عبد الملك وليس فيما يظن الأمير من الخـروج عليـه وقدموا إليه اعتذارهم ولم يخبروه بحقيقة بيعتهم لعبد الرحمن أميرا عليهم(٦١).

كما أرسل يوسف إلى عبد الرحمن بن معاوية كتاباً يحذره فيه من أتباعه الذين انضموا إليه وأنهم أهل غدر ونقض للأيمان المؤكدة، ويعرض عليه المال وسعة السلطان والحماية وأنه لا يغدر به. وقد جاء فى الكتاب المرسـل إلـى عبدالرحمن بن معاوية "أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب، وتـأبلش من تأبلش إليك ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ونقـض الأيمـان المؤكدة التى كذبوا الله فيها وكذبونا وبه – جلا وعلا – نستعين عليهم ولقد كانوا معنا فى ذرى كنف ورفاهية عيش حتى غمضوا ذلك واستبدوا بـالأمن خوفـا وجنحوا إلى النقض، والله من ورائهم محيط. فإن كنت تريد المال وسعة الجناب فأنا أولى لك ممن لجأت إليه أكتفك وأصل رحمك، أنزلك معى إن أردت وحيث تريد. ثم لك عهد وذمته فى ألا أغدر بك ولا أمكن منك ابـن عمـى صـاحب أفريقية ولا غيره"(١٧).

وإذا تأملنا هاتين الرسالتين وجدنا أن يوسف يحذر فى الرسالة الأولى أتباع عبد الرحمن من الإنسياق خلفه وتأييده . وفى الرسالة الثانية يحذر عبد الرحمن من الإنسياق خلفهم تأييدهم – أى اتباعه – له ويخوفه منهم وأنهم سينقضون عهده لأنهم أهل غدر ونقض للإيمان، وأنه – أى يوسف الفهرى– أولى ممن لجأ إليهم – أى أتباع معاوية –. وهو بهذا يحذر بعضهم من بعض ويريد أن يبذر الشقاق والخلاف بينهم، حتى لا يقووا عليه"[١٨] .

غير أن هذا التحذير لم يفلح، ولم يأبه به عبد الرحمن بن معاوية أو المؤيدين له .. ولم يترددوا فيما عزموا عليه، مما دفع يوسف الفهرى إلى أن يقدم له عرضا آخر جاء فيه أن يزوجه ابنته ويسكنه فى أى الجهتين شاء من دمشق أو الأردن أو يسكن بينهما ويصير إليه أمر الكورتين، يبعث إليه بكسوتين ومطيتين وخمسمائة دينار، ووجه إليه كاتبه خالد بن يزيد وقال: "أعرف أمره وأى جند عنده وتأمل أخباره وأخبار من معه" فخرج بالليل مع أصحابه وأصبحوا عند ابن معاوية بالمال والكسوة والمطيتين، ووجه أيضا إلى بدر فرساً ومائة دينار وكسوة فقبل ابن معاوية الهدية وكره التزويج، فتكلم خالد بكلام غليظ لابن معاوية إذ أبى التزويج فأمر به فضم إلى وثاق ورد غيره إلى يوسف ولم يرد عليه جواباً .

ومن هذه الرواية التى يذكرها ابن عذارى نجد أن عبد الرحمن رفض التزوج من ابنة يوسف مما دعا خالد بن يزيد رسول يوسف الفهرى أن يتكلم بكلام غير مقبول أدى إلى إخفاق مهمته . وإن كان صاحب أخبار مجموعة يذكر أن خالد بن يزيد عندما قدم الكتاب إلى عبد الرحمن بن معاوية دفعه عبد الرحمن إلى عثمان وقال :" اقرأه وأجب فيه بما تعلم من رأينا ويذكر أنهم كانوا موافقين علما عرضه يوسف غلا أن أبا عثمان عندما تهيأ ليرد على الخطاب قال له خالد : يا أبا عثمان لتعرقن أبطاك قبل أن تخبر فيه جوابا ، فضرب أبو عثمان بالكتاب وجه خالد بن يزيد وقال له : لاتعرقن لى فيه أبط

ولا أجد فيه جوابا، ثم قال : خذوه ، فأخذ وكيل من ساعته وقالوا: "لعبد الرحمن هذا أو الفتح سلطان يوسف كله"(١٩).

وأننى لأميل إلى رواية ابن عذارى لأنه يذكر قبل ذلك أنه عندما أتاه كتاب يوسف الفهرى بما فيه من المال والمطية وتزويجه ابنته أشار عليه كل من آتاه من العرب الأمويين ألا يقبل ذلك منه حتى يعتزل له عن الملك ويبايعه وإلا حاكمه إلى الله . وقالوا له :انما يمكر بك ولايفى لك بشئ لأن وزيره ومالك أمره الصمويل وهو غير مأمون .

وهذا يدل على رفض أنصاره لعروض يوسف وأنهم مصممون على أنه- أى يوسف الفهرى - يتنازل عن الملك لعبد الرحمن بن معاوية (الداخل) وإلا حاكمه إلى الله . وهم يقصدون بذلك القتال . وهكذا فشلت المحاولات التى أبداها يوسف لخديعة عبد الرحمن بن يوسف الفهرى ولم يبق إلا المواجهة فى ميادين القتال والتى تحكم بينهم .

موقعة المصارة والإستيلاء على قرطبة :

بدأ كل من الفريقين يستعد للقتال عندما انتهى فصل الشتاء بعد أن فشلت كل محاولات الصلح والاقناع بينهما، وكان عبد الرحمن بن معاوية عندما وصل إلى أشبيلية كان تعداد جنده قد وصل إلى ثلاثة آلاف جندى، وأقبلت عليه المتطوعة من كل حدب وصوب، من المضرية واليمنية وجند الشام، فعظم جنده وبدأ فى تنظيمه وإعداده للمعركة الفاصلة، وكان يتكون من جند فلسطين وجند الأردن وجند حمص، وكلها يمنية. كما انضم إليه من القيسية جماعة على رأسهم جابر بن العلاء بن شهاب وأبو بكر بن هلال العبدى والحصين بن الرجن؛ ولم يكن لعبدالرحمن لواء بينما كانت الأجناد قد خرجت بأولوتها فلما وصلت إلى قرية قلنبيرة بين اقليم قسانة من كورة أشبيلية قال شيوخ الأجناد "امام لا لواء له خطأ فى الرأى وعزموا على العقد له - فأقبل أبو الصباح يحيى اليحصبى بقناة

وعمامة وهما لرجل حضرمى (أى من حضرموت) ودعوا رجلا من الأنصار تفاءلوا باسمه وعقدوا اللواء لعبد الرحمن بن معاوية بهذه القرية بين شجرتى زيتون وشهد ذلك أبو الفتح الصدفورى العابد المجاهد، كما شهده فرقد السرقطى. وفى أثناء ذلك كان يوسف الفهرى قد جمع جيشه ومعظمه من القيسية والفهرية ثم صار بحذاء الوادى الكبير لمقابلة عبد الرحمن الداخل فى طشافة فى أول ذى الحجة سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م فتناوشا والنهر بينهما وكان ماء النهر زائدا فمنعهما من عبوره وقيل لعبدالرحمن أن عامة من فى قرطبة من موالى بنى أمية وهم يؤيدونه، فرأى أن يسبق يوسف الفهرى إليها وحاول إيهام يوسف بالبقاء، فأوقد ناراً فى معسكره، ثم رحل من جوف الليل وبينه وبين قرطبة خمسة وأربعين ميلاً فلم يسر ميلاً واحداً حتى أتى يوسف من يخبره بأن عبد الرحمن بين معاوية أزمع التوجه إلى قرطبة، فأصبحا كفرسى رهان والنهر بينهما، حتى نزل يوسف الفهرى فى المصارة ونزل عبد الرحمن الداخل ببابش، وكان جند عبدالرحمن فى ضيق من العيش حتى أصبحوا يتقوتون بالفول الأخضر، بينما جند يوسف فى رفاهية من العيش. ومع ذلك فقد انضم إلى عبدالرحمن كل من استطاع اللحاق به من اليمنيين وبنى أمية من أهل مدينة قرطبة [٢٠].

وقد انخفض ماء النهر يوم الخميس ٩ ذى الحجة سنة ١٣٨هـ/٧٥٥، وهو يوم عرفة؛ فقال عبد الرحمن لجنده : فى أى يوم نحن ؟ فقيل له : يوم الخمس، وهو يوم عرفة. فقال: يوم عرفة وغداً الأضحى والجمعة وأمرى مع فهرى أرجو أنها أخت "مرج راهط "[٢١].

ويبدو أن يوسف حاول الصلح وعرضه على عبد الرحمن بن معاوية حقناً لدماء المسلمين ،فدعا عبد الرحمن قواد جنده وقال لهم : أنا لم نجئ للمقام دعانا هذا الرجل إلى ماعلمتم وعرض ما سمعتم ورأى لرأيكم تبع، فإن كان عندكم صبر وجلد وحب للمكافحة فأعلمونى وإن يكن فيكم جنوح إلى

السلم والصلح فأعلموني، فأصفقت اليمن كلها بأسرها على الحرب، رأت ذلك أيضا بنو أمية. وعندما وثق عبد الرحمن من معرفة عزم جيشه على الحرب واطمأن قلبه، تظاهر برغبته في مفاوضة يوسف الفهرى وميله إلى الصلح والمسالمة مما جعل يوسف ينخدع بما أبداه عبد الرحمن بن معاوية من رغبة في الصلح فلم يتعرض لجيشه عندما عبر النهر وعسكر بجواره في المصارة .

كان عبد الرحمن قد نظّم جيشه قبل العبور، فجعل على خيل أهل الشام عبد الرحمن بن نعيم الكلبى، وعلى رجالة اليمن بلوهة اللخمى من جند فسطين، وعلى رجالة بنى أمية ومن جاءهم من البربر عاصم بن عاصم بالعربان، وعلى خيل بنى أمية عبد الملك القرشى وعلى خيل من صحبه من البرير ابراهيم بن شجرة الأودى وناول أبا عثمان اللواء ونزل جماعة بنى أمية فحفوا به (٢٢) .

أرسل يوسف الفهرى إلى عبد الرحمن بن معاوية رسالة في الصلح عشية الخميس ؛ وبات عبد الرحمن يتظاهر بحرصه على الصلح ، وعبر يوسف الفهرى عن رغبته في الصلح بذبح البقر والغنم وإعداد الطعام للمعسكرين مما جعل عسكر يوسف الفهرى لا يشك أن الصلح قد تم. وفي الصباح من يوم الجمعة يوم الأضحى أفصح عبدالرحمن بن معاوية عن نيته في الحرب . وأنه لايقبل المفاوضة إلا على أساس اعتراف يوسف الفهرى له بالإمارة باعتباره وريثاً لبنى أمية على الأندلس . وهكذا أفصح عبد الرحمن بن معاوية عن حقيقة مطلبه وما يسعى إلى تحقيقه . وعند ذلك اشتبك الجيشان في قتال عنيف . وكان على خيل يوسف من أهل الشام ومضر عبيد بن علي، وعلى الرجالة كنانة بن كنانة الكنانة وجوش بن الصمويل وعبد الله بن يوسف الفهرى ، وعلى خيل غلمانه وصنائعه من البربر خالد السودى .

دارت رحى الحرب وكثر القتال ، وكان عبد الرحمن يركب فرساً أشقر وبيده قوسه وحوله مواليه ، فقال بعض رجال جيشه : " غلام حدث فما

يؤمننا أن نطير على هذا الفرس . فنهك ، فبلغه ذلك ، فنادى أبو الصباح فأقبل إليه فقال له ، ليس فى عسكرنا بغل أوفق من بغلك ، وأن هذا الفرس يقلق تحتى فلا أقدر على ما أريد من الرمى من قوس ، فخذ فرسى وهات بغلك وأنى أحب أن تكون تحتى دابة تعرف حال الناس فتبادلا الدابتين : واطمأنت قلوب الخائفين واشتد القتال بين الجيشين حتى انتهى بهزيمة يوسف الفهرى هزيمة شنعاء وقتل ولداهما وقتل عبيد الله بن على وكنانة بن كنانة وغيرهما من وجوه القيسية والفهرية ، وفرّ يوسف إلى طليطلة وفرّ الصمويل إلى جيان واستولى عبد الرحمن على عسكر يوسف وأكلوا الطعام الذى كان قد أعده ، ثم دخل قرطبة منتصرا ولم يقاومه أحد ، وحاول حمل جنوده ما استطاع على الاعتدال والقناعة كما عمل على حماية أسر خصومه وحريمهم وأموالهم من السلب والنهب مما حمل بعض اليمنية على الغضب منه ورموه بأنه متعصب لقومه. وقد صلى عبد الرحمن الجمعة بالناس فى المسجد الجامع وخهطبهم لأول مرة ووعدهم بالعدل والإحسان وبويع فى الحال بالإمارة ، ثم نزل قصر الإمارة ، وذلك فى يوم الأضحى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥ م . ويعتبر ذلك بداية قيام الدولة الأموية فى الأندلس . وقد دعا عبد الرحمن فى بداية إمارته للمنصور (أبى جعفر) عشرة أشهر ، ثم قطع الخطبة للمنصور وحمله على قطعها عبد الملك بن عمر المروانى الذى قال :" تقطع الخطبة وإلا قلت نفسى ، فقطعها .

ولا شك أن الانتصار فى تلك الموقعة يدل على عبقرية عبد الرحمن بن معاوية ودهائه وحسن تدبيره للأمور ومعرفته أيضا لنفسية رجاله الذين التقى بهم فى الأندلس وتمكن من أن يجذبهم إلى صفه بمشاورته لهم وبعث الطمأنينة فى نفوسهم حتى يقوا به ويعتمدوا عليه . وقد أحكم خطة التمويه فى خداعه ليوسف ، حتى اعتقد الأخير أنه يميل للصلح ،بينما هو يخطط ويدبرللحرب حتى تمكن من التغلب على يوسف وجيشه مع ما كان يتمع به

جيش يوسف من تناسق وتآلف ووفرة في العدة والعتاد والإصرار على تحقيق هدفهم [٢٣].

وإذا كان يوم المصارة فاتحة الانتصار، فقد كان فاتحة الكفاح لعبد الرحمن الداخل حيث كانت الأندلس آنذاك تموج بالفتن والعصبيات . ولم تكن الخصومة قاصرة على المضرية واليمنية ، بل أصبحت كل قبيلة وكل بطن تلتف حول زعامتها ، ومصالحها الخاصة وكانت تلك القوى المتفرقة المستقلة برأيها وهواها تتمسك باستقلالها المحلى، وتأبى الخضوع لأية سلطة عامة . كما كان البربر يحصلون على الإحتفاظ بما انتزعوه خلال الفتنة من النواحى والضياع . وكان هناك ما هو أشد خطراً من ذلك على المسلمين فى الأندلس ، وهى المملكة الشمالية للنصارى والتى استطاعت أن تتخطى بسرعة مرحلة الهزيمة والفوضى . وكذلك مملكة الفرنجة التى تمكنته أثناء الفتنة من انتزاع الأراضى الإسلامية فيما وراء البرنية . وقد حاول نصارى الشمال والفرنج الذين يتربصون بالمسلمين فى الأندلس ، أن يستغلوا الفرصة والتفكك فى صفوف المسلمين . ويتصلوا ببعض الزعماء الخارجين عن الإمارة لتحقيق مشاريعهم فى تمزيق الأندلس وانتزاع أطرافها [٢٤].

وكان على عبد الرحمن الداخل المنتصر فى المصارة سنة ١٣٨هـ /٧٥٥م والذى لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره أن يواجه هذه الخطوب ويقارعها؛ فقضى بقية عمره فى كفاح مستمر، يخوض المعارك ويقمع الثورات ويسحق الخارجين عليه، وقد صمد لذلك بعزم وثبات وجلد وصبر حتى قبض على مصاير الأندلس بيده، وازدهرت الحياة فى ظل الإمارة الأموية، وقد مكنه فى ذلك تفرق خصومه إذ انقلب الوضع فى الأندلس. فقد توحد المسلمون وتفكك الأعداء وانقلبوا على أنفسهم. لقد التقى عبد الرحمن بخصومه فى الميدان فرادى منقسمين على أنفسهم فأخمد ثوراتهم وحطم قواهم حتى قضى عليهم جميعاً ؛ وازداد هو حنكة ومنعة وقوة وصلابة .

الصعوبات التى واجهت عبد الرحمن الداخل :

ومع ما توفر لعبد الرحمن بن معاوية من قـوة وثبـات فـى بـلاد الأندلس، ونجاحه فى القضاء على الخصوم من المسلمين والفرنج معاً إلا أنـه كانت هناك صعوبات قوية لازالت تناوئه وتحاول اقصاؤه عن الـسلطة ، ولكنه تمكن من التغلب عليها جميعاً؛ ولعل أول هذه الصعوبات :

أولاً : يوسف الفهرى والصميل والتغلب عليهما : -

لم يكن انتصار عبد الرحمن بن معاوية فى معركة المصارة ودخولـه قرطبة وبيعة الناس له وقيام الدولة الأموية هناك إيذانا بأن الأمور قد تمت له تماماً ،وإنما كان عليه أن يتوقع عودة يوسف الفهرى وحليفه الصميل للانتقام منه باعتباره مغتصباً للحكم ،خاصة وأن يوسف كان قد توجـه إلـى طليطلـة وحشد فيها من استطاع من أنصاره ، وساعده فى ذلك عامله عليها هشام بن عروة الفهرى، كما توجه الصميل إلى جيان وجمع فيها أنصاره والمؤيدين له ثم اجتمعت القوتان وتوجهت إلى البيرة ،وكانت خطة يوسـف والـصميل أن يعملا على جذب عبد الرحمن بن معاوية من قرطبة لقتالهما فى جيان ثم يذهب عبد الرحمن بن يوسف الفهرى ليحتل قصر الإمارة فى قرطبة [٢٥] .

وعندما علم عبد الرحمن بن معاوية بنزول يوسف الفهرى والصميل فى البيرة جمع جنده ، وتوجه إليهما سنة ١٣٩هـ/ سنة ٧٥٦م ، بعد أن ترك قوة صغيرة لحماية قرطبة بقيادة أبى عثمان، ولكنه لم يبعد كثيرا حتى هاجم عبد الرحمن بن يوسف الفهرى الذى كان مقيما فى ماردة قرطبـة واحتـل قـصر الإمارة وتمكن من القبض على أبى عثمان نائب عبد الرحمن فى قرطبة وكبلـه بالأغلال. وصل ماحل بقرطبة إلى عبد الرحمن بن معاوية فعاد مسرعاً إلـى قرطبة ففر ابن يوسف الفهرى إلى أبيه ومعه أبوعثمان. عند ذلـك عـين عبـد الرحمن على قرطبة عامر بن على، وكانت له صولة وسيادة عند اليمنية ثم عاد

لمواجهة يوسف الفهرى والصمويل بالبيرة وحاصرهما فيها فلما شعرا بعدم قدرتهما على الصمود فى وجه عبد الرحمن -فاوضاه فى الصلح أن يعترفا بإمارته ولا ينازعاه فيها على أن يؤمنهما فى النفس والمال والأهل وأن يؤمن حلفاءهما وأعوانهما ويسمح لهما بسكن قرطبة تحت رعايته ورقابته فقبل عبد الرحمن هذه الشروط على أن يقدم يوسف الفهرى ولداه عبد الرحمن ومحمد أبا الأسود رهينة لديه يعتقلهما فى قصر قرطبة حبساً جميلاً- أى اعتقالاً سياسياً - حتى تطمئن النفوس وتستقر الأمور، وأن يفرج عبد الرحمن بن معاوية عن خالد بن زيد فى مقابل أن يفرج يوسف عن أبى عثمان .وتم عقد الصلح بين الفريقين سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م ، وقفل يوسف الفهرى والصمويل مع عبد الرحمن إلى قرطبة ، وانفض جندهما ، ونزل يوسف بشرقى قرطبة فى قصر الحر الثقفى ونزل الصمويل بداره بالربض. وعمل عبدالرحمن الداخل على إكرامهما وتقدير مكانتهما. وأقام يوسف والصمويل على أحسن حال يختلفان إلى عبد الرحمن ويحضرهما الرأى مرة بعد مرة، ودخل يوسف الفهرى فى عسكر الأمير كأحد رجاله فأنزله على ماله وأطلق له عياله[٢٦].

وكان سلوك عبد الرحمن الداخل مع يوسف والصمويل وعفوه عنهما وتسامحه معهما ومحاولته إزاحة الأحقاد من النفوس أثر فى حب أهل الأندلس له ، وإقبال كثير من المشارقة عليه وأقبل من المشرق سنة١٤٠هـ /٧٥٧م من بنى أمية ومواليهم فاستقبلهم الأمير استقبالا حسنا وأكرمهم وأحسن وفادتهم وأسند إلى كثير منهم بعض المناصب والولايات.

مضى عام حاول فيه أنصار يوسف الفهرى السابقون حمله على الثورة على عبد الرحمن الذى أزال عنهم ما كانوا يتمتعن به من رفعة ومنزلة وما زالوا به يغرونه بالثورة على عبد الرحمن حتى كاتب الناس . فأما أهل الأجناد قالوا : لا والله ما نرجع إلى الحرب بعد السلم ، وكره الصمويل وقيس ذلك وقالوا حسبنا قد قضينا الذمام ولا والله لانخلعه. فلما يئس منهم ، كاتب أهل

البلد وأهل ماردة ، فأجابوه وكتبوا إليه بدعوه إلى أنفسهم فهـرب إلـيهم سـنة ١٤١هـ/ ٧٥٨ ناكثاً لعهده ، ناقضاً للأيمان بعد توكيدها ، فاجتمع إليه النـاس وبلغ جمعهم عشرين ألفاً . ولما علم عبد الرحمن بهربه اتبه الخيل وقبض على ابنته ، واعتقل الصميل فاحتج أنه لاذنب له ولوأنه أذنب لهرب معه ، ولكـن عبد الرحمن لم يقبل عذره وسجنه(٢٧) .

تقدم يوسف بجيشه نحو أشبيلية وحاصرها وكان واليها عبد الملك بـن عمر المروانى الذى طلب من ابنه والى "مودور نجدتـه". وكـان عبـدالرحمن يستعد لملاقاة يوسف، ففك يوسف الحصار عن أشبيلية ليتوجه إلى عبد الرحمن ووصل إلى مرو ثم أبيه فى أشبيلية وكثر جمعهما فزحفا خلف يوسف الفهـرى الذى رأى أن يتخلص منهما أولاً، حتى لا يقع بين جيشيهما وبين جـيش عبـد الرحمن. ودارت الحرب بين يوسف وبين عبد الملك وبدأت الحرب بالمبـارزة فقتل مبارز يوسف. ثم حمل عبد الملك ومن معه حملة رجـل واحـد فـانهزم يوسف الفهرى من ساعته وتفرق من معه وسار يوسف إلى طليطلة ليحتمى بها عند بن عروة وإلى طليطلة، فأدركه عبدالله بن عمر الأنصارى قبـل طليطلـة بأربعة أميال فقتله وأراح الناس من شره وحملت رأسه إلى عبد الـرحمن بـن معاوية فأمر بقتل بن يوسف عبد الرحمن المعتقل لديه .كما خنق الصميل فـى سجنه وبذلك تخلص عبدالرحمن بن يوسف والصميل؛ وهى أولى العقبات فـى سبيل استقرار إمارته وحكمه. واستتنفت الأمورله واستوثقت . وأمضى عبـد الرحمن به عقبة على ولاية أربونة وما اتصل بها إلـى طرطوشـة. وولـى طليطلة رجلاً من ولد سعد بن عبادة الأنصارى كان ساكنا بها .

ثانياً : ثوار العرب والبربر والأقارب :

لم تستقر الأمور لعبد الرحمن بن معاوية بعد القـضاء علـى يوسـف والصميل وانما قامت عليه خلال عهده ، ثورات متعددة هى : ثـورة رزق بن النعمان الغسانى،وثورة هشام بن عروة الفهرى بطليطلة ،وثورة عبد الغافر

اليمانى بأشبيلية ،وثورة العلاء بن مغيث اليحصبى بباجة ،وثورة سعيد اليحصبى المعروف بالمطرى بلبلة ،وثورة الصباح بأشبيلية ، وثورة الفاطمى بماردة ، وثورة حيوة بن ملامس فى أشبيلية ، وثورة أهل بيته عليه ، وثورة عبد الرحمن بن حبيب الفهرى بتدمير ، وثورة الرماحس بن عبد العزيز الكناتى فى الجزيرة وثورة سليمان بن يقظان الأعرابى وإلى برشلونه ، وثورة الحسين بن يحيى فى سرقسطة ، وثرة محمد يوسف الفهرى فى طليطلة، وثورة قاسم عبد الرحمن الفهرى(٢٨) .

وكل هذه الثورات والمؤامرات ضدعبد الرحمن بن معاوية تدل على حالة الفوضى المنتشرة فى أنحاء بلاد الأندلس ومدى التنافس بين القبائل المختلفة ،والأحقاد المتأصلة بين زعماء تلك القبائل وحكام المدن والثغور تؤكدعلى بقاء العصبية القبلية بين العرب .وأن نزعة الانفصال كانت تهدد وحدة الأندلس، مما أتاح لأعداء المسلمين فى الأندلس خاصة الممالك المسيحية فى الشمال – كما ذكرمن قبل – أن ستولى وتسترد بعض المدن الشمالية وتهدد أمن المسلمين . وسهل التدخل الخارجى سواء من جانب الفرنج أوالعباسيين . ولولا يقظة وحكمة عبد الرحمن الداخل وسرعة مجابهة هذه الثورات والقضاء عليها ،والعمل على تقوية الدولة ووحدتها لتفتت الأندلس وسقط لقمة سائغة فى يد أعدائه ، وسنرى أن هذا الجهد والكفاح الدائب الذى قام به عبد الرحمن الداخل قد جمع شتات القبائل ووحد فيما بينهما ، وجعل بداية حكمه وعهده فى الأندلس بداية عهد جديد سار عليه أبناؤه من بعده لتشييد صرح الدولة الأموية الإسلامية فى الأندلس (٢٩) .

ولا نريد هنا أن نتتبع الثورات واحدة بعد الأخرى ، ولكن سنعرض بعض أهم هذه الثورات من حيث أسبابها ونتائجها :

ففى طليطلة مثلاً : ثار هشام بن عروة الفهرى وهو قيسى من أتباع يوسف الفهرى ، فسار إليه عبد الرحمن وشدد عليه الحصار حتى اضطر إلى

طلب الصلح ، وأخذ ابنه رهينة فقبل عبدالرحمن إذعانه ورجع عنه ، فعاد هشام إلى نقض فغزاه الأمير فى السنة الثانية وشدد عليه الحصار ، ودعاه إلى الرجوع ،فلم يزعن له ، فلما يئس منه أمر بابنه الرهينة فضربت عنقه ، وقذف الرأس بالمنجنيق ورجع عنه لانشقاقه بثوره العلاء بن مغيث اليحصبى وبعد أن قضى عليها بعث مولاه بدراً وتمام بن علقمة سنة ١٤٧هـ /٧٦٤م فى جيش كثيف فى طليطله حتى ملّ أهل المدينة بالحصار وكاتبوا تماماً وبدراً وسألوهما الأمان على أن يسلموا لهما ابن عروة وهشام بن حمزة بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب — وحيوة بن الوليد التجيبى ، وكانوا يداً واحدة ، فتم ذلك وحملوا الى قرطبة . وفى الطريق حلقت رؤوسهم ولحاهم وألبسوا جبا صوفياً، وحملوا على الحمر ودخلوا قرطبة على هذه الحال وأمر عبد الرحمن بقتلهم وكتب إلى البلدان بفتح طليطلة .

وفى سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م ثار العلاء ابن مغيث اليحصبى بباجة ، وكان من وجهائها وله بها رياسة، وكان الخليفة العباسى أو جعفر المنصور بعث إليه بسجل ولواء وقال له : إن كان فيك محمل مناهضة عبد الرحمن بن معاوية وإلا فأبعث إليك بمن يعينك وبذلك استطاع العلاء بن مغيث اليحصبى أن يسبغ لوناً من الشرعية لثورته ضد عبد الرحمن (الداخل) بن معاوية ، فدعا العلاء إلى طاعة إبى جعفر المنصور ونشر الأعلام السود فتبعه خلق كثير وتطلب أكثر أهل الأندلس إلى خلع عبد الرحمن بن معاوية ولاسيما الفهرية واليمنية وجند مصر وانضم إليه أمية بن قطن وأصحابه ، وأقبل إليه غياث بن علقمة اللخمى من شذونة ممداً لهم [٣٠] .

وأمام هذه الثورة ضد عبد الرحمن بن معاوية خرج الأخير فى جميع قواته وبعث بدراً مولاه ببعض القوات إلى شذونة فحاصرها فأذعن غياث لطلب الصلح . وسار عبد الرحمن إلى قرمونة فتحصن بها ومعه ثقات مواليه وخاصته ، فصار إليه العلاء بمجموعة وهاجم قرمونة مرادا وحاصره بها

قريبا من شهرين ، فلما طال مقامهم إنخزل عن العلاء أكثر من كان معه ووهنت روح قواته المعنوية . وأدرك عبد الرحمن ذلك ، وكان فى سبعمائة من أشداء الرجال ومشاهير الأبطال فأمر بنار فأوقدت عند الباب المعروف بباب أشبيلية ثم أمر بأجفان سيوفهم فطرحت فيها ثم قال لهم : " أخرجوا معى لهذه الجموع خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع "وتقدم الصفوف وخلفه رجاله فانقضوا على جيش العلاء ابن مغيث فمزقوه شر ممزق وقتل العلاء مع ستة آلاف من أتباعه . وأمر عبد الرحمن بحز رأس العلاء ورؤوس أشراف أصحابه ووضعت فيها صكوك بأسمائهم وحمل بعضها إلى القيروان فطرح فى الليل فى الأسواق . وحمل البعض الآخر إلى مكة مع بعض التجار الثقاة وفيه رأس العلاء ومع السجل واللواء الذى أرسله إليه المنصور فوضعوه أمام سرادق المنصور الذى كان يحج هذا العام سنة ١٤٧ هـ / ٧٦٤ م . فلما نظر إليه المنصور قال : " إنا لله عرضنا بهذا السكين للقتيل الحمد لله الذى جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان "(٣١).

وبهذه الشجاعة النادرة التى أبداها عبد الرحمن وأنصاره استطاع أن يقضى على هذه الثورة الخطيرة التى كان يدعمها الخليفة العباسى معنوياً وتضفى عليها الصبغة الشرعية وجمعت كثيراً من خصوم عبد الرحمن تحت لواء واحد .

- أما الثورة الثالثة فكانت فى عام ١٥٢ هـ/ ٧٦٩م من قبل البربر فى شمال شرقى الأندلس، وكان زعيمها داعية بربرى خطير يدعى شقنا بن عبد الواحد من بربر مكناسة وكان فقيها يعلم الصبيان؛ وزعم أنه من ولد الحسن بن على رضى الله عنه، وكانت أمه تسمى فاطمة، فادعى أنه فاطمى وتسمى بعبد الله بن محمد فذاعت دعوته بن البربر فى تلك المنطقة وكانوا أكثرية، وكانوا على استعداد لحمل السلاح إذا ما دعاهم غلى ذلك أحد من بنى جنسهم باستطاع بهم أن يستولى على بنت برية، وجعلها مركزه العام ثم تستولى على ماردة

وقورية ومدلين فعظم خطره وهزم الكتائب التى أرسلها إليه حاكم طليطلة.فزاد ذلك فى سلطانه، فسر إلى عبد الرحمن بن معاوية بنفسه واقتحم منطقة الثـورة ونشبت بينه بين البربر وقائع عديدة وامتنع الثائر بالجبال ، فرجع عبد الرحمن عن مطاردته إلى قرطبة وأرسل مولاه بدراً ليتابع القتال مع الثـائر البربـرى فاستمر الفاطمى ممتنعاً بحصنه فى الجبال لا يريد لقاء الجيش المهاجم .

وقد فشلت الحملات المتتالية فى القضاء على الثائر البربرى فـى تلـك المنطقة الوعرة فعاد عبد الرحمن سنة١٥٥هـ / ٧٧٢ م بجيش إلى شنت بريـة وقدم عليه هلال المديونى كبير البربر فى شرق الأندلس فكتب له عهداً علـى قومه وأقره على موضعه وعهد إليه بولاية الأنحاء التى غيب عليها الفـاطمى وفوض إليه أمراً فى استخلاصها منه وكان لذلك أثره فى بث الخـلاف بـين البربر ، فإنفض عن الفاطمى كثير من أنصاره واضطر أن ينسحب شت بريـة ليعتصم بالجبال فى الشمال مرة أخرى كانت مشاكل عبد الرحمن تدفعـه إلـى ترك هذا الثائر والعودة إلى قرطبة للبت فى أمر دولته مما جعل هـذه الثـورة تظل مشتعلة قرابة عشر سنوات ، كما كان للأسلوب الذى تبعه الفاطمى مـن تجنب المعارك والفرار إلى قمم الجبال إذا شعر بالخطر من عوامل بقائها كذلك ، لم يتمكن عبد الرحمن بن معاوية فى القضاء على ثورة البربر إلا بمـؤامرة دبرها له إثنان من أصحابه بمساعدة الزعيم البربرى الآخـر هـلال المـديونى فقتلاه وأخذا رأسه وحملاها إلى عبد الرحمن فى قرطبة. وبذلك ضعفت جموعه وخبت ثورته بعد أن مكث عشر سنوات تحمل الدمار وتسفك الدماء فى شـرق الأندلس وتهدد سطالن عبد الرحمن ، وحققت الخيانة فى لحظة واحدة مالم تحققه الحملات والبحوث المتعاقبة فى أعوام طويلة. وكان مصرع الفـاطمى وانتهـاء ثورته فى سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٨م (٣٢).

لم تتوقف الثورات والانقلابات ضد عبد الرحمن بن معاوية رغم مـا أثبته الرجل من مكانة ودراية كبيرة وحنكة سياسية أرهبت العديد من خصومه

حتى أن أى لقاء كان بين عبد الرحمن بن معاوية وأى من خصومه كنا نرى قيام الخصم بعرض الصلح على عبد الرحمن طالباً الأمن والأمان له ومن معه من جند . وقد أكد عب الرحمن الداخل أيضا أنه كان صاحب مروءة وصادق فى عهوده ووعوده مع الخصم . ومع هذا استمرت الثورات والاضطرابات ضد عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) .

فبينما كان عبد الرحمن يواجه هذه الثورات المتلاحقة التى يقوم بها الثوار بالداخل ويقضى عليها واحدة تلوالأخرى ويثبت دعائم إمارته ويقوى أركانها إذاً ببعض الثوار يتحكم الحقد فيهم ويملأ السخط نفوسهم فلا يهمهم إلا تحقيق أهوائهم ومصالحهم الشخصية فيتصلون بقوى خارجية من أجل القضاء على الإمارة الأموية .

فقد استعان عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى - لطوله وزرقته وشقوته – بالبربر فى أفريقية وعبر إلى تدمير وثار فيها ودعا للعباسيين وكاتب سليمان بن يقطان الكلبى (الأعرابى) وكان ببرشلونه ودعاه إلى الدخول فى أمر فأجابه : بأنه لا يدع عونه ولكن ذلك لم يرق للفهرى وتوجه لغزوه . ولكن الأعرابى تمكن من هزيمته فعاد الفهرى إلى تدمير ، وواصل الثورة فيها فخرج إليه الأمير عبد الرحمن واشتد فى قتاله فلجأ إلى الجبال بها فبسط عبد الرحمن سلطانه فى كورة وتدمير وتقدم إلى كورة بلنسية بعد أن أحرق المراكب بساحل البحر حتى لايمكنه من الهروب ودس عبد الرحمن على الصلبى شكاراً البربرى فتمكن من إغتيال ابن حبيب الصلبى وحمل رأسه إلى عبد الرحمن الداخل وبذلك انهارت دعوته وثورته فى سنة ١٦٢ ، ١٦٣ هـ / ٧٨٠ ، ٧٨١ م [٣٣].

كذلك كانت هناك ثورة قام بها سليمان بن يقظان الكلبى الأعرابى حاكم برشلونة، والحسين بن يحيى بن سعيد بن عبادة الأنصارى والى سرقسطة

وتحالفا على قتال عبد الرحمن الداخل وخلعه . فأرسل إليهم عبد الرحمن جيشاً بقيادة ثعلبة ابن عبيد الخزامى فهزمه سليمان أسر قائد الجيش واتسعت الثورة فى الشمال .ولكن سليمان لم يطمئن إلى هذا النصر خوفا من عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) ورأى الاستعانة بملك الفرنج شارلمان فأرسل إليه يستقدمه إلى شمال الأندلس واعدا إياه بتسليم برشلونه وسرقسطة إليه وبعث إليه بالقائد المأسور ثعلبة بن عبيد . اغتنم شارلمان الفرصة فعبر جبال البرانس بجيش كبير واستولوا على نبلونه من البشنكنس وكان يهفوا إلى أن يسيطر على شمال الأندلس . وقد استقبله سليمان وسارمعه إلى سرقسطة وهما يعتقدان أنها ستفتح أبوابها أمام شارلمان. ولكن حاكمها الحسين بن يحيى الأنصارى خشى عاقبة مخالفة الأفرنج كما أن أهل سرقسطة صمموا على الصمود والقتال وقدموا الشهداء دفاعاً عن مدينتهم مما جعل شارلمان يفكرفى العودة بعد عجزه عن الاستيلاء على سرقسطة وقد شك فى نية سليمان وموقفه فقبض عليه .

وفى أثناء عودته تعرضت مؤخرة جيشه لهجمات المسلمين بقيادة ابنى سليمان والبشنكس فى جبال البرنية فخلصوا الأسرى منهم ، كما فتكوا بمؤخرة الجيش وقتلوا كثيراً من كبار القواد .

عاد سليمان إلى سرقسطة، ولكن الحسين الأنصارى قتله بعد فترة. وهذا الأنصارى ظل ثائرا على عبد الرحمن الداخل وقد خرج الأخير فى جيش كبير وحاصره حصارا شديداً ممن دفع الحسن إلى طلب الصلح وأرسل ابنه رهينة فقبل عبد الرحمن منه ذلك وفك الحصار عن سرقسطة ولكنه عاد وغدر بعده فعاد الأمير إلى حصاره ونصب على المدينة ستة وثلاثين منجنيقاً من كل جانب وضاق أهلها بالحصار فاتصلوا بعبد الرحمن وسلموا إليه الحسين بن يحيى الثائر وقتله وانتهت بذلك ثورته واضطرابه (٣٤).

وإذا كان بعض المؤرخين قد عرضوا أسباباً للتحالف بين العباسيين والفرنج للتخلص من عبد الرحمن الداخل فإننا لا نميل إلى الأخذ بها، أذ لا

يحتمل أن يحمل العداء بين العباسيين والأمويين إلى قيام العباسيين بالتحالف مع الفرنج ضد الأمويين فى الأندلس لسبب بسيط وهو أن تحالف العباسيين مع الفرنج لا يعنى بأى حال عودة الأندلس إلى حوزة العباسيين فى حالة القضاء على عبد الرحمن الداخل .

حكم التاريخ فى عبد الرحمن الداخل :

بعد عمر قارب الستين عاماً توفى عبد الرحمن بن معاوية الأموى يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر سنة ١٧٢هـ/ ٧٩٠م بعد أن حكم الأندلس ثلاثة وثلاثين عاماً قضاها فى حركة دائبة أقام فيها الإمارة الأموية فى الأندلس وأرسى دعائمها وحافظ عليها ضد الخارجين عليها حتى ثبت أركانها وعلا بنيانها وعاونه وأيده خلال رحلة بناء إمارته أنصاره من موالى بنى أمية واليمنية وبعض القيسيين وأهل البلاد الأصليين الذين استشعروا بالأمن والأمان فى عهده .

وكان عبد الرحمن راجح الحلم واسع العلم ثاقب الفهم كثير الحزم نافذ العز برئياً من العجز سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه متصل الحركة لا يخلد إلى راحة ولا يسكن إلى دعة ولا يكل الأمور إلى غيره ثم لا ينفرد فى ابرامها برأيه ، شجاعاً مغواراً بعيد الغور شديد الحذر قليل الطمأنينة بليغاً مفوهاً شاعراً محسناً سمحاً سخياً طلق اللسان .

ولا شك أن هذه الصفات الحميدة التى وصف بها ابن حيان عبد الرحمن الداخل قد استمدها من سلوك عبد الرحمن وتصرفاته أثناء إمارته وتغلبه على المصاعب والأهوال خلال فترة حياته حتى حقق ما يصبوا إليه من إمارة قوية واسعة . وقد حملت صفات عبد الرحمن وأفعاله أبا جعفر المنصور (الخليفة العباسى) على وصفه بأنه "صقر قريش" وهذا الوصف يجب أن نعرف أنه جاء من ألد أعداء عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك.

فقد قال أبو جعفرالمنصور يوماً لبعض جلسائه .أخبروني: من صقر قريش ، من الملوك ، قالوا ذاك أمير المؤمنين ، الذى راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء وحسم الأدواء ! قال :ما قلتم شيئا: قالوا : فمعاوية ؟ .

قال : لا : قالوا : فعبد الملك بن مروان ؟ قال : ما قلتم شيئاً .

قالوا: يا أمير المؤمنين، فمن هو؟ قال: صقر قريش: عبدالرحمن بن معاوية الذى عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه، فمصّر الأمصار، وجنّد الأجناد ودوّن الدواوين، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه، بحسن تدبيره وشدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها وأمير المؤمنين عترته واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه وطد الخلافة بالأندلس وإفتتح الثغور ، وقتل المارقين وأذل الجبارين الثائرين .

وهى – كما ذكرنا – شهامة من خصم قوى ، بل خليفة المسلمين آنذاك ، قارن فيها أبو جعفر بينه هو ومعاوية وعبدالملك وبين عبدالرحمن ، وحكم لعبد الرحمن بأنه الجديربلقب صقر قريش لما اتصف به من صفات وقام به من أعمال (٣٥) .

وقد عمل عبد الرحمن الداخل على تغيير مفهوم الحكم بحيث يكون الإنقياد والخضوع للدولة وليس للعصبية أو القبلية وقد بذل فى سبيل ذلك جهدا كبيراً منذ دخوله قرطبة منتصراً. كما عمل على تنظيم الجهاز الحكومى فأنشأ منصب الحاجب وأسنده إلى تمّام بن علقمة ثم ولاها يوسف بن بخت ، ثم عبد الكريم بن مهران ثم عبدالحميد بن مغيث ثم منصور فتاه الذى ظل فيها حتى وفاته . وكان يختص بمشورته ومهاونته فى شئون الحكم أربعة يطلق عليهم ابن عذارى لقب " وزراء" وهم : عبدالله بن عثمان ، وعبدالله بن خالد ،يوسف بن بخت، وحسان بن مالك . وقد تولى قيادة عسكره مولاه ، بدر ، وتمام بن

علقمة، وعبد الملك المروانى ، وثعلبة بن عبد الحميد وغيرهم . وقد كان عبد الرحمن يتولى بنفسه قيادة الجيش فى معظم الوقائع والحروب التى قامت بينه وبين خصومه. كما أسند الولاية على المدن والأقاليم والثغور إلى من يثق فيهم من مؤيديه وذوى رحمه الوافدين عليه. وسار على سياسة الاعتدال والمهادنة بالنسبة للنصارى (المستعربين) وعين رئيسا عاماً لهم باسم القمص (القمس) يقيم إلى جواره فى قرطبة ويستشيره فى كثير من الأمور .

كذلك اهتم عبدالرحمن بن معاوية بالجيش وحشد له المتطوعة والمرتزقة من كل حدب وصوب. وقد بلغت قواته نحو مائة ألف مقاتل عدا حرسه الخاص من الموالى والبربر والرقيق ويبلغ أربعين ألفا. واهتم فى أواخر عهده بالقوات البحرية فأنشأ عدة قواعد لبناء السفن فى طركونة وطرطوشة، وقرطاجنة وإشبيلية وغيرها .

كما وجّه عبد الرحمن الداخل عناية كبيرة لنشرالعدل بين الرعية وفرض الخصومات بينها، وقلد القضاء فى عهد يحيى بن يحيى التيجبى، ومعاوية بن صالح، وعبد الرحمن بن طريف، وعمر بن ثراجيل، والمصعب بن عمران، وكان له قائد خامس فى سوائغه يسمى جدار بن مسلمة بن عمرو المزحجى .

رمع كثرة الأعباء التى ألقيت على كاهل عبد الرحمن بن معاوية لم يغفل الناحية العمرانية ، فاهتم بقرطبة عاصمة إمارته فحصنها بسور وجملها وأنشأ فى شمالها قصراً ضخماً تحيط به الحدائق وسمى تلك الناحية بالرصافة مخليداً لذكرى الرصافة التى أنشأها جده هشام فى الشام. وقد جملها عبد الرحمن مقاماً ومنتزهاً للإمارة .

كما أنشأ فى قرطبة وبقية المدن مساجد كثيرة، وفى سنة ١٧٠هـ/٧٨٧م بدأ بإنشاء المسجد الأموى الجامع بقرطبة وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة، وجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد.

وقد توفى عبد الرحمن الداخل قبل اتمامه فأتمه ابنه هشام وزاد فيه ولاة بنى أمية من بعده ، حتى صار أعظم مساجد الأندلس ؛ وقد أنفق عليه عبد الرحمن فى عهده مائة ألف دينار.كذلك أنشأ عبد الرحمن فى قرطبة داراً للسكة تضرب فيها النقود حسب ما كانت تضرب فى دمشق أيام بنى أمية وزناً ونقشاً .

وحسبى فيما يتعلق بهذا الأمير الفذ أن أورد ما ذكره ابن حيان عنه: بأنه دوّن الدواوين، ورفع الأواوين، وفرض الأعطية وعقد الألوية، وجنّد الأجناد، ورفع العماد، ووثّق الأوتاد، فأقام للملك آلته. وأخذ للسلطان عدته، فاعترف له بذلك أكابر الملوك والخلفاء، وحذروا جانبه، وتحاملوا حوزته، ولم يلبث أن دانت له البلاد واستقل له الأثر فيها. وقول أبى جعفر المنصور عنه بأنه "صقر قريش" أو فتى قريش الأحوزى الفذ فى جميع شئونه، وعدمه لأهله ونسبه وتسلية عن جميع ذلك ببعد مرقة همته ومضاء عزيمته، حتى قذف فى لجج المهالك لإبتناء مجده فاقتحم جزيرة ضخمة شاسعة المحل نائية المطمع، عصبية الجند ضرب بين جندها بخصوصيته وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، وإستمال قلوب رعيتها بقضية سياسية حتى إنقاد له عصيهم وذل له أبيهم فاستولى فيها على أريكته ملكاً على قطيعته، قاهراً لأعدائه، حامياً لذماره، مانعاً لحوزته، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه أن ذلك لهو الفتى كل الفتى لايكذب مادحه .

وكان عبد الرحمن الداخل جم التواضع ، يقصد للعامة ويسمع منهم وينظر بنفسه فيما بينهم ويتوصل إليه من أراده من الناس ، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظلماته إليه دون مشقة . وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك وقت طعامه خاصة طلاّب الحوائج .

أمراء الأندلس من بني أمية بعد عبد الرحمن الداخل :

أولاً : هشام بن عبد الرحمن :

تولى إمارة الأندلس بعد وفاة عبد الرحمن الداخل ، ابنه هشام (١٧٢ – ١٨٠هـ / ٧٨٨ -٧٩٦ م) بعهد من أبيه . وكان لعبد الرحمن الداخل أحد عشر ولداً ،فآثر هشام عليهم بولاية العهد لإقتناعه بأنه الجدير بولاية العهد من بين أبنائه. ويتفق على إسناد العهد إليه ابن الأثير وابن خلدون والمقرى . وكان هشام حين وفاة أبيه مقيما بماردة مقر ولايته،وكان أخوه عبد الله المعروف بالبلنسى حاضراً بقرطبة لدى والده ، وكان أكبر إخوته سليمان بمدينة طليطلة والياً عليها . فلما توفى عبد الرحمن جدد عبد الله البيعة لأخيه هشام بعد أن صلى على والده ،وكتب إلى أخيه هشام يعرفه بموت والده والبيعة له ، فتوجه هشام إلى قرطبة فدخلها بعد ستة أيام ، وتولى مقاليد الإمارة وبايعه الخاصة والعامة [٣٦] .

بينما لابن عذارى رأى آخر فى ولاية هشام بعد أبيه إمارة الأندلس ، فهو ينكر– أى ابن عذارى – فى قوله : وقيل أن عبد الرحمن بن معاوية لما حضرته الوفاة وابنه هشام بماردة وابنه الآخر سليمان بطليطلة ،وكّل ابنه عبد الله المعروف بالبلنسي وقال له : " من سبق إليك من أخويك فارم له بالخاتم والأمر ، فإن سبق هشام فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه . وإن سبق إليك سليمان فضل سنه ونجدته وحب الشاميين له ". وهذا الرأى ينافى الرأى السابق من تفضيل هشام على سائر أبناء عبد الرحمن .وهو ما نميل إليه لأن عبد الرحمن بن معاوية كان لا يمكن أن يترك أمر الإمارة يتحكم فيها من سبق إلى قرطبة . ثم أن عبد الرحمن لايترك أمر الإمارة فارغاً فيحدث ذلك فتنة بين الأبناء والرعية.

الصعاب التي واجهت هشام بن عبد الرحمن الداخل :

رغم حرص عبد الرحمن الداخل على عدم ترك شئون الإمارة شاغراً بعد وفاته وحدد لها ابنه هشام منعاً للفتنة بين أبنائه. إلا أن أخيه سليمان الأكبر منه وأمير طليطلة ثار عليه ودعا لنفسه فيها وفيما جاورها ، ثم لحق به أخوه عبدالله البلنسي في طليطلة : ولكن سليمان خرج مستخفيا إلى قرطبة ليتولى الأمور فيها ، غير أنه لم ينجح ذلك أن هشاماًأرسل إليه ابنه عبد الملك في جيش لمطاردته ، ففر إلى ماردة فطارده عامل هشام فلجأ إلى تدمير (مرسية) .وبعد حصار دام شهرين لطليطلة ، عاد هشام إلى قرطبة ، وشعر عبد الله بفشل الثورة فقدم إلى قرطبة وإعتذر لأخيه هشام فعفى عنه وأكرم مثواه .وأرسل هشاماً جيشاً إلى تدمير بقيادة ابنه معاوية لتعقب أخيه سليمان وضيق عليه الخناق حتى طلب الأمان فأمه ، على أن يعبر بأهله وولده إلى بلاد المغرب وأعطاه ستين ألف دينار مصالحة على تركه أبيه عبد الرحمن ، ورافقه إلى المغرب أخوه عبداله ، وأقام بعدوة المغرب ، وانتهت بذلك ثورة الأخوين سنة ١٧٤ هـ / ٧٩٠م .

غير أن هشام واجب ثورة أخرى من قبل سعيد بن الحسين الأنصارى بطرطوشة، وكان قد إلتجأ إليها حين قتل أبوه ، وإلتفت حوله اليمينية ، وأخرج عامل هشام يوسف العبسي فعارضه موسى من المضرية داعياً لهشام حتى تمكن منه وقتله . كما ثار عليه مطروح بن سليمان بن يقظان بمدينة برشلونة وكثر جمعه فاستولى على سرقسطة ووشقة ، فبعث إليه هشام جيش على رأسه عبيد الله بين عثمان وضيق الحصار على سرقسطة حتى شاق أهلها ذرعاً بالحصار ، فحرد مطروح في بعض الأيام تصيداً فاغتاله صاحباه عمروس بن يوسف وابن صلتان وجزّ رأسه وقدماه إلى بن عثمان الذى تقدم إلى سرقسطة فدخلها وبعث الرأس إلى هشام سنة ١٧٥هـ / ٧٩١ م . وانتهت بذلك الثورة في الشمال .

وهناك ثورة أخرى قام بها البربر فى منطقة رندة المعروفة باقليم تاكرنا سنة ١٧٨هـ / ٧٩١ م ، حيث خلع البربر الطاعة وأظهروا الفساد فدعاهم هشام إلى الطاعة فلم يمتثلوا فسيّر إليهم جيشاً كبيراً بقيادة عبد القادر بن إبان مولى معاوية بن أبى سفيان فشتت جموع البربر وقتل كثير منهم وضرب ديارهم حتى صارت بلقعا سبع سنين ، فإستقرت الأمور الداخلية فى البلاد .

هشام بن عبد الرحمن وحروبه فى الخارج :

كانته الثورات الداخلية التى قامت فى الأندلس أيام عبد الرحمن وهشام دفاعاً عن الدولة والإمارات المسيحية فى الشمال لكى يغيروا على حدود الأندلس ويقتطعوا منها الأجزاء . كما كان لبعض هذه الدول أصابع فى تحريك بعض هذه الثورات وتشجيعها على مواصلة الفتنة . لذلك كان على هشام بن عبدالرحمن الداخل ، بعد أن استقرت أموره الداخلية ، أن يتوجه بجيوشه إلى تلك الدول التى تعمل على إثارة الفتنة الداخلية وإضعاف قوة المسلمين [٣٧] .

ففى سنة ١٧٥هـ/ ٧٨٨م سير هشام إلى الشمال جيشاً كبيراً بقيادة عبيد الله بن عثمان فوصل إلى إلبة والقلاع حيث اصطدم بالنصارى فهزمهم وشتت شملهم وقتل منهم خلق كثير. كما سيّر فى نفس العام جيشاً آخر بقيادة يوسف بن بخت متوجه إلى جليقية حيث التقى بملكها برمود الكبير ملك إستورش حيث دارت معركة ضارية انتصر فيها المسلمون وقتلوا وغنموا منهم الكثير[٣٨] .

أما فى عام ١٧٧هـ /٧٩٣ م أعد هشام جيشاً كبيراً بقيادة حاجبه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث فتوجه إلى الشمال فوصل إلى جرندة وكان بها حامية الفرنج فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها وفتحها ثم استولى على عدد من المعاقل والحصون ونفذ إلى سبتمانيا وزحف على أربونة قاعدة الثغر الإسلامى القديم فاستولى عليها وبقى الجيش شهوراً يجوس خلال بلادهم يخرب الحصون ويحرق ويغنم . وفر العدو من أمامه، ثم عاد الجيش إلى قرطبة

ظافراً محملاً بالغنائم التى بلغت خمس السبى فيها خمسة وأربعون ألفاً من الذهب ، وتعد هذه الغزوة من أشهر مغازى المسلمين فى بلاد الأندلس حيث أرغم أسرى النصارى على حمل وجر أحجار من سور أربونة حتى قرطبة وقد بنى منها جزء من جامع قرطبة تخليداً لتلك الغزوة الشهيرة.

أما فى عام ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م ، أرسل هشام جيشا ضخماً إلى جليقية بقيادة كريم بن عبد الواحد بن مغيث فتوغل فى جليقيةحتى بلغ أسترقة وكان الفونس ملك جليقية قد استعد للقاءالمسلمين بالصعود إلى الجبال ووضع كمائن ضخمة واستعان بحلفائه من البوشكنس ، وحرص على أن يؤخذوا المسلمين على غرة منهم ، ولكن قائد المسلمين أدرك خطة العدوفقدم قائده فرج بن كنانة فى أربعة آلاف فارس بقيادة غندمارة فانتصر المسلمون عليهم وأسروا قائدهم ، ثم تتبعوا ملكهم حتى وصل إلى عاصمة ملكه، فتتبعه فرج بن كنانة فى عشرة آلاف فارس ، فلما قرب منه انهزم وأسلم جميع عدته وذخائره فغنمها المسلمون ثم عادوا إلى قرطبة بعد أن مزقت قوى الجلالقة وساد الأمن بذلك فى الولايات الشمالية [٣٩] .

إصلاحات هشام بن عبد الرحمن الداخل :

لم تكن الثورات والحروب والمعارك الداخلية والخارجية عائقاً فى سبيل قيام هشام بإصلاحات داخلية فى الأندلس .

ففى عهده تمكن من القضاء على الفتن والثورات الداخلية فساد الأمن والإستقرار فى ربوع الأندلس ، وحمى حدودالدولة ورفع راية الجهاد ووجه الحملات المتتالية إلى الأعداء فى الشمال فارتفعت راية الإسلام عزيزة قوية ومهابة .ولم يستشهد فى عهد هشام أحداً من جنده فى شئ من ثغوره أو جيوشه إلا نادراً .

وقد اهتم هشام بالعمارة فأتم مسجد قرطبة الجامع الذى كان قد بدأ بناءه والده عبد الرحمن. كما أنشأ عدد من المساجد الأخرى وزين قرطبة بعدد من

الأبنية والحدائق الضخمة، كما قام بتجديد قنطرة قرطبة وأنفق فى بنائها أموالا عظيمة واشرف على بنائها بنفسه. كذلك فى عهده جعلت اللغة العربية لغة التدريس ومعاهد النصارى واليهود. وكان لذلك أثر عميق فى التقريب بين أصحاب المذاهب المختلفة وبث روح التفاهم والوئام بينهما ولا سيما بين المسلمين والنصارى مما جعل كثيراً من النصارى يدخلون فى دين الإسلام بعد أن وقفوا على أصوله وتفاصيله وقربت مسائل الخلاف بينهم وبين الفاتحين[٤٠] .

كذلك عمل هشام على بث العدل ونشره فى ربوع البلاد متحرياً الحكم بالسنة والكتاب فقبض الزكاة من طرقها ووقعها فى حقها، لم يأخذه فى الله لومة لائم، ولا تعلق به ظلم . وكان يبعث إلى الكور قوماً عدولاً يسألون الناس عن سير العمل حتى ينتشر العدل. ومما يدل على انتشار العدل فى عهده أنه كان لبعض رجال هشام خصومة فى دار عند القاضى مصعب بن عمران فسجل عليه القاضى فيها وأخرجه منها فنهض الرجل إلى هشام وقال له: إن الرجل سجل على فى دارى التى كنت أسكنها وأخرجنى منها. فقال له هشام: وماذا تريد منى؟ والله لو سجل علىّ القاضى فى مقعدى هذا لخرجت عنه انقياداً منه للحق[٤١].

وفى عهده أيضا ذاع مذهب الإمام مالك الذى كان معاصراً له. وكان هشام كثير الإحلال لمالك ومذهبه فانتشر مذهب مالك فى الأندلس، وكانوا قبل ذلك يعملون بمذهب الأوزاعى إمام أهل الشام. وقد قرّب الفقهاء ورجال الدين وأسند إليهم كثيراً من المناصب. وكان صاحب شرطته عبد الغفار بن أبى عبيدة. ووزراءه ثمانية، وكُتّابه إثنان: فطيس بن عيسى وخطاب بن زيد . وقاضيه المصعب بن عمران .

وتوفى هشام فى صفر سنة ١٨٠هـ /٧٩٦ م ، وعمره أربعون سنة وأربعة أشهر وأربعة أيام[٤٢] وكان متصفا بالرأى والشجاعة والعدل وحب أهل الخير والصلاح والشدة على الأعداء والرغبة فى الجهاد .

ثانياً : الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية :

تولى بعد هشام بن عبد الرحمن إبنه الحكم بعهد منه فى صفر سنة(١٨٠- ٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢٢م) وكان عمره آنذاك ست وعشرون سنة ، وهو ثالث أمراء بنى أمية بالأندلس ، وقد عمل على حماية الدولة ونشر الأمن فيها ، وحارب الثوار فى الداخل وتصدى للمهاجمين من الخارج بجيش قوى أعده لذلك ، وحرص على العدل والإنصاف بين الرعية حتى أذعنت له الأندلس كلها بالطاعة ولم يختلف عليه فيها مختلف .

موقف الحكم بن هشام من المعارضين له :

لم يسلم الحكم بن هشام فى فترة حكمه التى أمتدت قرابة ستة وعشرون عاماً من ثورات بعض الحاقدين والناقمين على حكم بنى أمية فى الأندلس . وكانت أولى هذه الثورات التى واجهها الحكم عقب توليه الإمارة ثورة أعمامه سليمان وعبيد الله اللذين كانا قد نفيا إلى المغرب فى عهد أبيه هشام بن عبد الرحمن وعقب تولى الحكم الإمارة، عبر عبد الله البحر من المغرب إلى الأندلس قاصداً الثغر الأعلى الذى يضمر أهله كراهية للحكم الأمير الجديد ، فنزل سرقسطة عند بهلول بن مرزوق الثائر على الأمير الحكم بن هشام سنة ١٨١هـ / ٧٩٧م ، ولكنه لم يجد هناك من يؤيده لمبايعته وعزل الحكم، فعبر جبال البرنية إلى بلاد الافرنج - أى بهلول- قاصداً شارلمان. أما أخيه سليمان -أى أخو عبد الله -فقد عبر إلى الأندلس سنة ١٨٢هـ / ٧٩٨م ، واستطاع أن يجمع جيشاً ليهاجم به قرطبة . ولكن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن تمكن من التغلب على عمه سليمان فعاود سليمان القتال والتقى مع الحكم فى طنجة فهزم سليمان . ولكنه مع ذلك عاود القتال للمرة الثالثة جمع جيشا من البربر سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م وتوجه إلى استجه فسار إليه الحكم ، ودارت بينهم حروب شديدة لعدة أيام ثم انهزم سليمان مرة أخرى .

ثم عاود القتال مرة أخرى فهزم كذلك . وفى سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠م حشد سليمان جيشاً من شرق الأندلس واستولى به على جيان ثم البيرة وانضم إليه جماعة من سكانها فقصده الحكم بجيشه وقد تغلب فى نهاية الأمر على عمه سليمان الذى فرّ من المعركة بعد أن خلف وراءه عدداً كبيراً من أنصاره. وبعث الحكم بن هشام فى أثره أصبغ بن عبد الله بن وانوس فلحقه جهة ماردة وقبض عليه وأتى به إلى الحكم فأمر بقتله سنة ١٨٤هـ /٨٠٠م وطيف برأسه فى قرطبة ثم أمر الحكم بدفن عمه سليمان فى مدافن الأسرة فى قرطبة . أما عبد الله بن عبد الرحمن الذى كان قد توجه إلى شارلمان ، فقد عاد من بلاد الفرنجة متوجها إلى بلنسية حيث أيده أهلها فأقام بها شبه مستقل بعد أن عفا عنه الحكم بن هشام وصالحه سنة ١٨٦هـ / ٨٠٣ م على أن يقيم بقية حياته فى بلنسية وتجرى عليه أرزاقه ، وقد ظل بها حتى عرف بعبد الله البلنسى. وبعث عبد الله إلى الحكم بن هشام بابنه عبيد الله فزوجه الحكم أخته وولاه قيادة جيوشه ، فعرف بصاحب الصوائف . وتخلص الحكم بن هشام بذلك من أولى الثورات المعارضة لحكمه والتى أثارتها الأحقاد العائلية للسيطرة على الحكم من قبل عميه سليمان وعبد الله .

ما كاد ينتهى الحكم بن هشام من القضاء على ثورة أعمامه حتى قامت ضده ثورة أخرى فى ماردة بقيادة أصبغ بن عبد الله أثارتها نار الفتنة التى أوقعت بين الحكم والأصبغ، مما دفع الأخير للجوء والتحصن فى ماردة معتمداً على التفاف البربر من حوله ،ولكن الحكم بن هشام حاصره ، واستمر الحكم يحاصر الأصبغ فى ماردة مدة سبع سنين بسبب فتنة أخرى كانت قد قامت فى قرطبة ضد الحكم . ولكن جماعة من الثقاة والإخلاص تدخلوا بين الحكم والأصبغ حتى استجاب لهم الحكم بن هشام وفك الحصار عن الأصبغ بعد أن أمنه على نفسه ثم عاد إلى قرطبة [٤٣].

غيرأن مكمن الخطر الدائم والمستمر على حكم الأمويين فى قرطبة كان يأتيهم دائما من طليطلة، مركز الثوار الدائم ضد الأمويين ذلك أن المولدين فى طليطلة كانوا دائمى الثورة ضد الأمويين. ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى عدة أسباب، منها أنها - أى طليطلة كانت دار ملك القوط الغربيين (الوندال) مما يدعوهم إلى التمرد والخروج المستمر؛ كذلك ماكانت تتمتع به المدينة من حصانة وكثرة أهلها الذين يعتزون بثروتهم ويتطلعون دائما إلى عودة مدينتهم إليهم خاصة النصارى منهم. ولذلك فى سنة ١٩١هـ/٨٠٨م ثار فيها عبيده بن حميد، وتمكن عمرو بن يوسف حاكم البيرة وهو من المولدين من القضاء عليه بطريق الغيلة بعد وقائع عدة خاضها ضده فسكنت الثورة فيها، ولكن إلى حين مما دعا الحكم إعمال الحيلة فى الظفر بهم، واستعان بعمروس بن يوسف من أهل وشقة الذى ظهر فى الثغر الأعلى وأعلن انقيادة للحكم وتأييده له ، وبالغ فى إكرامه وأطلعه على عزمه بالإيقاع بأهل طليطلة فواطأه على التدبير عليهم فولاه طليطلة وكتب إلى أهلها يقول: "إنى قد اخترت لكم فلاناً وهو منكم ولتطمئن قلوبكم إليه، وأعفيتكم ممن تكرهون من عمالنا وموالينا ولتعرفوا جميل رأينا فيكم "ودخل عمروس طليطلة وتظاهر لأهلها ببغضه لبنى أمية فاستمال الأهل بها إلى جانبه. وأنشا بموافقتهم قلعة حصينة فى ظاهر طليطلة لإيواء الجند والموظفين فيها بعيداً عن أهل المدينة، وحرصاً على راحتهم، ثم سير الحكم جيشاً بقيادة ولده عبد الرحمن بن الحكم لقتال نصارى الشمال فى الظاهر ثم عرج هذا الجيش اثناء العودة على طليطلة والتقى وعمروس بالقلعة وقرروا دخول المدينة معاً بعد إخداعهم بإقامة وليمة لهم - أى لأهل وكبراء المدينة، وكان كلّما دخل فوج من باب لتناول طعامهم ضرب أعناقهم عند باب آخر وألقيت جثثهم فى حفر كبيرة أعدت لذلك ، وأصوات الطبل والمزامير تحول دون سماع استغاثتم ؟! فلما تعالى النهار أتى بعضهم فلم ير أحد، فقال أين الناس، فقيل أنهم يدخلون من هذا الباب ويخرجون من الباب الآخر ، فقال ما

لقيني منهم أحد وعلم بالمكيدة ، فأعلم الناس هلاك أصحابهم فنجى من بقى منهم . وهلك فى تلك المذبحة التى عرفت "بواقعة الحفرة" سنة ١٩١هـ/٨٠٨م. عدد كبير من وجهاء طليطلة وأعيانها يقدره بن عذارى بسبعمائة وابن القوطية وابن الأثير بخمسة آلاف ، وكانت طعنة قوية للمدينة الثائرة دائما ، قضت على زعمائها وأضعفت شأنها فحسنت طاعتهم بقية أيام الحُكم الأموى خاصة أيام الحكَم وولده عبد الرحمن [٤٤].

لم تتوقف الثورات ضد الحكَم بن هشام ثالث أمراء بنى أمية وكانت الثورة الثالثة أيضا هى أشدها وأقواها وعرفت بثورة الربض ، والتى كادت تطيح بالحكم بن هشام ، اشترك فيها رجال الدين إلى جانب الأعيان ، معترضين على شدة بأس الحكم بن هشام وفساد إدارته ، حتى أن رجال الدين رموه على المنابر بالفسوق والخروج على أحكام الدين ، فاتفقوا على خلعه والمبايعة لمحمد بن القاسم القرشى المروانى ، ولكنه افشى سرهم للحكم بن هشام، مما دفع الحكم إلى إلقاء القبض على المتآمرين والذين بلغ عددهم اثنين وسبعين وقد أمر بصلبهم على شاطئ النهر تجاه القصر فارتاع الناس لذلك[٤٥].

تكررت الثورة فى الربض مرة أخرى بعد ذلك بثلاثة عشر عاماً وكانت أخطر من سابقتها ، وكان ذلك فى رمضان سنة ٢٠٢هـ / ٨٢١ م . ويشير ابن الأثير هنا إلى أن أسباب تلك الثورة الربضية يرجع إلى سلوك الحكم بن هشام المشين، ذلك أنه قيل أن الحكم بن هشام لجأ فى أيامه الأخيرة إلى الميل لحياة الدعة والترف والمجون فصار يغط فى اللهو والصيد والشرب ، حتى أن الغوغاء والعوام من الناس كانوا ينادونه " بالمخمور" فطالبوا بإنقضاء الآذان والصلاة ، ووصلت الأمور غى أن بعضهم شافهه بالقول ، وصفقوا عليه . كذلك كان من أسباب الثورة الربضية الثانية تشدد الحكم بن هشام فى جمع ضريبة العشر على المواد الغذائية كل عام دون إعلان مسبق أو محدد.

ولكن ابن عذارى يشير إلى اختلاف الروايات فى ثورة الربض فيقـول: "إن ذلك النهج كان أصله الأشر والبطر، إذ لم تكن ثم ضرورة من إجحاف فى مال، ولا انتهاك لحرمة، ولا تعسف فى ملكه، والحال تدل على صحة ذلك: فإنه لم يكن على الناس وظائف ولا مغارم ولا سُخر ولا شئ يكون سببا فى خروجهم علـى السلطان، بل كان ذلك أشراً وبطراً وملالاً للعافية، وطبعا جافياً، وعقـلا غبيـاً، وسعياً فى هلاك أنفسهم. أعاذنا الله من الضلال والخذلان وأسباب البـور والخسران (٤٦) .

وإن دل هذا على شئ إنما يدل على انتقاص العامة والغوغاء من سلطة الأمير، والغض من مكانته ، حتى أننا يمكن أن نطلق على ثورة الربض هـذه بـ " ثورة العامة " مما دفع الحكم بن هشام إلى تحـصين قرطبـة وعمـارة أسوارها وبربط الخيل على بابه (أى حراستها) واستكثر من المماليك، ورتـب جمعاً لا يفارقون باب قصره بالسلاح فزاد ذلك مـن حقـد أهـل قرطبـة وبغضهم له .

وتحكى بعض الروايات(٤٧) أن أسباباً أخـرى أدت إلـى ثـورة أهـل الأرباض، تقول: إن أحد المماليك الخاصة بالحاكم بن هشام ذهب إلـى حـداد ليصقل سيفه، فماطله الحداد وتشاجرا فقتل المملوك الحداد، فثار أهـل العامـة والغوغاء والدهماء من الناس واجتمع أهل الأرباض بالسلاح. وكـان أشـدهم هياجا أهل الربض الجنوبى فى الضفة الأخرى من النهر ، وهى ضاحية قرطبة الجنوبية المسماة "شقندة" وزحف الثوار إلى قصر الإمارة من كل ناحية، واجتمع الجند وتبعهم كثير من المتطوعين ، فالتقوا مع الفرنج فى أطراف بلادهم قبـل أن ينالوا من بلاد المسلمين شيئاً ودارت بينهم حروب شديدة ثبّت الله فيها أقدام المسلمين وأنزل نصره عليهم ، فانهزم الفرنج وكثـر القتـل فـيهم والأسـر ، واستولوا على أموالهم وعتادهم ، وعاد المسلمون ظافرين غانمين .

وفى أثناء انشغال الحكم بن هشام بالقضاء على ثورة ماردة تحرك ملك صقلية " الفونس الثانى " بحملات متوالية على أراضى المسلمين فى الأندلس ، وعاث فيها سلباً ونهباً وقتلاً . وكانته حملاته موجهة إلى الثغر الأدنى بين نهرى دويرة والتاجة . وعانى المسلمون فى هذه الأنحاء من غزوات النصارى المتتالية وصاحت أمرأة فى وادى الحجارة تقول :" واغوثاه ياحك قد ضيعتنا وأسلمتنا واشتغلت عنا حتى استأسد العدو علينا"(٤٨) .

ربما وصل إستغاثة هذه المرأة أسماع الحكم بن هشام مما دفعه لأن يحشد جنوده وسار بنفسه إلى أراضى جليقية سنة ١٩٦هـ / ٨١٣ م وأوغل فى بلادهم وافتتح الحصون وهدم المنازل وخرب البلاد ونهبها وقتل الرجال وسبى الحريم وقصد أهل الناحية التى كانت المرأة المستغيثة فيه . وقدم لهم الكثير من الغنائم التى استولى عليها. وقال للمرأة وسكان تلك الناحية: هل أغاثكم الحكم بن هشام ؟ فقالوا : شفا والله الصدور ونكى فى العدو وما غفل عنا إذ بلغه أمرنا فأغاثه الله وأعز نصره .

وفى سنة ١٩٩هـ / ٨١٧ م ارسل الحكم جيشاً إلى برشلونة فى الثغر الأعلى بقيادة عمه عبد الله البلنسى وكان الفرنج قد استولوا عليه ، فدارت بينهم المعارك انتصر فيها المسلمون وقتلوا منهم عددا كبيراً .

على أن آخر غزوة قام بها المسلمون فى الشمال فى عهد الحكم بن هشام سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٦ م. إذ أرسل الحكم حاجبه عبد الكريم بن مغيث إلى جيلقية فى جيش ضخم ، فتوغل فيها وأهلك معائشها ومرافقها وحطم زروعها وهدم منازلها وحصونها انتقاما لما أنزلوه بالمسلمين . وقد تجمع الجلالقة وحلفاؤهم البشكنس ونزلت بعدوة نهر أرون وصار النهر حاجزاً بينهم وبين المسلمين فلما أصبح الصبح حتى نهض عبد الكريم بمن معه إلى مخائض الوادى ونهض أعداء الله إليهم فقاتلوهم على كل مخاضة منها فجالدهم

المسلمون عليها مجالدة الصابرين المحتسبين ، واقتحم أعداء الله النهر إليهم فاقتتلوا على مخاضة . ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد، فأدخلوهم فى المضايق ، وأدخلوهم على غير طريق فأخذتهم السيوف والطعن بالرماح والغرقفى المياه فقتل من العدو عدد كبيرالبعد ولايحصى ، ومات أكثرهم اتردى ، وداس بعضهم بعضاً ، وأسرالمسلمون من ملوكهم وقمامصتهم ، وعاد الفرنج يلزمون جانب النهر يمنعون المسلمون من جوازه ، ومكثوا على ذلك ثلاثة عشر يوماً يقتتلون كل يوم، ثم كثرت الأمطار وهطلت فزاد النهر مياهه وتعذر جوازه فعاد عبد الكريم بالجيش ظافراً إلى قرطبة سابع ذى الحجة ٢٠٠هـ / ٨١٩م .

الإصلاحات الداخلية فى عهد الحكم بن هشام الأموى بالأندلس :

على الرغم من تعدد الثورات الداخلية والانقلابات التى قامت ضد الحكم بن هشام فى الأندلس ، وكذلك ما كان يحاك بين العناصر الداخلية والفرنج بالخارج ضده طوال فترة حكمه تقريباً ، إلا أن ذلك لم يقف حائلاً فى قيام الحكم بن هشام بالعديد من الإصلاحات الداخلية والتى من أهمها : الجيش : نقول أن الحكم كان أول منم جنّد بالأندلس الأجناد المرتزقة وجمع الأسلحة والعتاد . واستكثر من الحشم والحواشى وارتبط الخيول على بابه ، واتخذ المماليك وكان يسميهم الخرس لعجمتهم (لكونهم أعاجم) وبلغت عدتهم خمسة آلاف ، وكان يباشر الأمور بنفسه، وكان له عيون يطالعونه أمور الناس، وكان يقرب العلماء والفقهاء والصالحين. وهو الذى وطأ الحكم لعقبة بالأندلس. ولا شك أن ذلك يدل على اهتمامه بالجيش وشئون رعيته وحمايتها ومعرفة أحوالها حتى يمكن قضاء مطالبها ونشر الأمن فى ربوعها[٤٩] .

ومن الناحية الاجتماعية : نجد أنه اهتم بنشر العدل وسيادة الإنصاف بين الرعية، وكان يقول : "ما تحلى الخلفاء بمثل العدل" وكان يسلط قضاته وحكامه على نفسه فضلاً عن ولده وخاصته وسنذكر حادثتين تدل على واقعية

هذه الصفات . فقد ذكر صاحب أخبار مجموعة : أن رجلاً من أهل كورة جيان إغتصب بعض عمال الحكم جارية له ، فلما عزل العامل قدم الجارية إلى الحكم بن هشام ، فما صارت عنده واتصل بالرجل المغصوب حال القاضي في أحكامه وإستخراج الحقوق للرعية من يد الحكم بن هشام وخاصته وأهليهم ، فأتى الرجل إلى القاضي وهو مصعب بن عمران وشرح له خبره ، فدعاه إلى إقامة البينة فشهد له من قبل علمه على المعرفة بما قال به وتظلم منه، وعلى معرفة عين الجارية فأوجبت السنة أن تحضر الجارية . فاستأذن القاضي للدخول على الحكم بن هشام فلما صار عنده قال : أيها الأمير إنه لا يتم عدل في العامة دون إقامته في الخاصة وحكى أمر الجارية وخيره في إخراجها وإبرازها للسنة أو عزله عن القضاء فقال : أو خير من ذلك تباع من صاحبها بأنفس ثمنها وأبلغ ما يسأله فيها . فقال : إن الشهود قد شخصوا من كورة جيان يطلبون الحق في مظلمة؛ فما صاروا بفنائك تصرفهم دون إنفاذ الحق لأهله فلعل قائلاً أن يقول : باع ما لم يملك ببيع متفسر على نفسه ولا بد من إبراز الجارية أو تصير أمرك إلى من أحببت .

فلما رأى عزمه أمر بإخراجها من قصره وكانت قد وقعت من نفسه موقعاً، فشهد على عينها وقضى بها لصالحها. ثم قال له: "إياك وبيعها إلا في بلدك لتقوى بذلك الرعية على طلباتهم. ويبعثهم على استخراج حقوقهم" (٥١).

هذه الحادثة وقعت مع الحكم بن هشام ونفذ القاضي حكمه عليه، وكان القاضي صريحاً في أن يقيم العدل أو يعتزل القضاء واستجاب الحكم بن هشام لما حكم به القاضي .

أما الحادثة الثانية فيذكرها صاحب أخبار مجموعة ايضا فيقول: "كان عباس بن عبد الله بن مروان القرشي من الخاصة بالأمير الحكم بن هشام والمنزلة عنده بحيث لم يدانيه أحد في زمانه. فقام عليه رجل في ضيعة كانت له

تحت يده فأثبتها عند محمد بن بشير القاضى. فلما علم القرشى أن القاضى عزم على أن يوجه الحكم عليه عاذ بالأمير الحكم بن هشام وإشتكى إليه ما ناله من القاضى وسأله صرفه إلى غيره ، فقال له الحكم : إن كان حقاً ما تقول فإمض بنفسك إليه فى داره وهو غير قاعد للحكم فإن أخلاك نفسه وأدخلك عليه فقد صدقناك وعزلناه. فقال : أفعل ، فوكل به الأمير الحكم بن هشام بعض فتيانه ليمتحن ما يكون من القاضى . فخرج القرشى والأزقة تغض بموكبه حتى أتى باب القاضى فقرع الباب فخرجت إليه عجوز فأعلمها بنفسه وأمرها أن تستأذن له عليه. فلما علم به نهر العجوز وقال لها : قولى له إن كانت له حاجة فتكن فى المسجد مع طلاب الحوائج حتى أخرج إليك ، فليس إلى ادخالك من سبيل، فتردد عليه وألحف؛ فلم يأذن له. فرجع الفتى إلى الحكم بن هشام فأعلمه بما كان من القاضى فطار به سروراً(٥٢) .

هاتان الحادثتان تؤكدان على حرص الحكم بن هشام على سيادة العدل بين الرعية، وأن الحاكم والمحكوم أمام العدل سواء، لا فض لأحدعلى الآخر أمام كتاب الله وسنة نبيه .

وما نسوق الحادثتين للتسلية ، ولكن لتوثيق ما نقول فى العدل فى عهد الحكم بن هشام ومدى تفعيله عملياً .

وعندما وقعت المجاعة الشديدة فى الأندلس سنة ١٩٩ هـ/ ٨١٨م وعانى المسلمون منها ضروب الحرمان والبؤس ومات كثير من الناس جهداً . بادر الحكم بن هشام إلى تخفيف ويلاتها عنهم ففرق عليهم الأموال الكثيرة حتى انكشفت غمتها وعادت الحياة إلى سيرتها الأولى .

وكان يتولى الحجابة للحكم بن هشام ، عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ووزراؤه وقواده خمسة ؛ إسحاق بن المنذر ، والعباسى بن عبد الله ، وعبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، وفطيس بن سليمان، وسعيد بن حسان،

وكتابه ثلاثة: فطيس وخطاب بن زيد، وحجاج بن العقيلي، وقضاته: مصعب بن عمران، ومحمد بن بشير. والفرنج بن كنانة ، وبشر بن قطن ، وعبيد الله بـن موسى، ومحمد بن تليد، وحامد بن محمد بن يحيى (٥٣) .

نهاية الحكم بن هشام :

وفي سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢٢م اشتد مرض الحكم بن هشام فأخذ البيعة لابنه عبد الرحمن ، ثم للمغيرة من بعده . وكان ذلك في الحادى والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢٢م ،حيث توفى الحكم بن هشام يوم الخميس ٢٦ ذى الحجة من نفس العام وعمره اثنتان وخمسون سنة، وصلى عليه ابنه عبد الرحمن ودفن في مقبرة القصر المعروف بالروضة : بعد حياة حافلة بالكفاح المستمر دعم به دولته ووطد أركانها في الداخل والخارج على السواء .

ثالثاً : عبد الرحمن بن الحكم بن هشام في الأندلس :

هو رابع أمراء بنى أمية في الأندلس ، وقد ولد في طليطلة سنة ١٧٦هـ/٧٩١م عندما كان والده والياً عليها ، ويسمى بعبد الرحمن الثانى وعبد الرحمن الأوسط، والأول هو جده عبد الرحمن بن معاوية مؤسس الحكم والدولة الأموية بالأندلس، والثالث هو عبد الرحمن الناصر الذى سنتحدث عنه مستقبلاً في الفصل القادم ، حيث يقيم الخلافة الأموية بالأندلس.

على أية حال ، تولى عبد الرحمن بن الحكم (الثانى) الإمارة بعد وفاة والده أواخر ذى الحجة (٢٠٦ -٢٣٨ هـ / ٨٢٢ - ٨٥٢م). بعهد من والده. وقد عنى به والده وبتربيته والاهتمام بإعداده للإضطلاع بالمهمة التى ستلقى على كاهلة من بعد وفاة أبيه : فكان يسند إليه أعمال الحكم المختلفة ، وينيبه عنه أثناء غيابه أو مرضه . وقد أكسبه ذلك خبرة بشئون الحكم والإدارة ، فأحسن اختيار الرجال لمعاونته من الوزراء والولاة والقادة والقضاة. وقد استمر في الحكم قرابة اثنين وثلاثين عاماً حافظ فيها على الدولة الإسلامية في

الأندلس ، وقضى على الثورات والفتن الداخلية وتم في عهده كثير من الإصلاحات والمنشآت ، وانتشر الأمن وساد الرخاء ، وازدهرت الحياة ، ونمت الحضارة بشتى مظاهرها المادية والمعنوية هناك (٥٤) .

عبد الرحمن بن الحكم (الثانى) وإخماد الثورات والفتن :

من الغريب أننا نلاحظ فى تلك الإمارة الأموية بالأندلس أن الثورة الأولى مع بداية ولاية كل أمير تكون من البيت الحاكم نفسه . وذلك ليس إلا حرص القائمين بالثورة من البيت الأموى إلا الإستيلاء على السطلة ، خاصة الأعمام الذين يعتقدون أنهم أحق بالإمارة من هؤلاء الأبناء الصغار (من وجهة نظرهم) وأن الحُكم لايجب أن يقتصر على البيت الحاكم فقط ، بل يجب أن يتداول بين الأهل والأقارب .

وعلى هذا نجد – كالعادة – الثورة الأولى هنا ضد عبد الرحمن بن الحكم (الثانى) أو الأوسط. كانت من قبل عم أبيه عبد الله البلنسى، الذى كان قائماً على تدمير (مرسية) وإلتفت حوله جمع أراد التوجه به إلى قرطبة فتجهز له عبدالرحمن بن الحكم واستعد لملاقاته: فلما بلغ ذلك عبد الله البلنسى خاف وضعفت نفسه، فرجع إلى بلنسية، ومات أثر ذلك، ونقل عبد الرحمن الثانى أولاده وأهله إليه بقرطبة؛ وخلصت الإمارة بالأندلس لولد هشام بن عبدالرحمن.

وتستمر الثورات والإضطرابات من داخل البيت العربى ضد الأمراء الأمويين فى الأندلس ، ومن ذلك فى عام ٢٠٧هـ / ٨٢٣ فتنة بين القبائل المضرية واليمنية بسبب قتل يمانى لمضرى أخذ ورقة دالية من جنان اليمنى فاستفحل الشر بينهما ، وكانت بينهم موقعة بلورقة تعرف بيوم المصارة قتل منهم فيها ثلاثة آلاف رجل. فوجه إليهم عبد الرحمن ابن الحكم (الثانى أو الأوسط) قائده يحيى بن عبد الله بن خلف فى جيش . فكانوا إذا أحسوا بقرب يحيى تفرقوا وتركوا القتال وإذا عاد عنهم رجعوا إلى الفتنة والاقتتال . وقد

تزعم اليمانية أبو الشماخ واستمرت الفتنة سبع سنين. وكانت الدائرة تدور على اليمانية والقتلى منهم حتى فنى من المسلمين خلق كثير، ولم تهدأ الفتنة إلا فى ٢١٣هـ / ٨٢٩م. عندما أرسل الأمير قائده أمية بن معاوية بن هشام فتغلب عليهم وخضع أبو الشماخ وغيره من الزعماء وطلبوا الأمان وعادوا إلى الطاعة وصار أبو الشماخ من ولاة الأمير عبد الرحمن الثانى وثقاته وقد أمر الأمير بهدم آلة حاضرة تدمير التى انبعثت منها إلى الفتنة، وصارت مرسية (تدمير) مقراً لوالى تدمير (٥٥) .

وفى سنة ٢١٣هـ / ٨٢٣ م ، ثارأهل ماردة على عاملهم وقتلوه - بقيادة محمود ابن عبد الجبارالبربرى وسليمان بين مرتين من المولدين - وعاثوا فى الأرض فساداً فسير إليهم عبد الرحمن جيشاً فحصرهم فأفسد زرعهم وأشجارهم ، فعادوا إلى الطاعة وأخذت منهم رهائن لضمان طاعتهم وخرب سور المدينة كى لايعودوا إلى المعصية أبداً. ثم طلب عبد الرحمن الثانى- الأوسط- أن تنقل حجارة السورإلى النهر حتى لا يطمع أهلها فى عمارة السورة مرة ثانية . فلما رأوا ذلك عادوا إلى العصيان ، وأسروا العامل عليهم وجددوا بناء السور وأتقنوه . فسار إليهم عبد الرحمن الثانى بجيوشه سنة ٢١٤هـ/٨٢٤م ومعه رهائن أهلها فإفتك العامل ومن معه فى الأسر برهائنهم ، ثم حاصرهم فإمتنعوا عليه فرجع عنهم ثم تابع إرسال الجيوش إليهم حتى كانت سنة ٢٢٠هـ / ٨٣١ م فسار إليهم عبد الرحمن وشدد الحصار عليهم ودارت بينهم حرب انتصر فيها عبد الرحمن وافتتح "ماردة " وقتل كثير من الثائرين وتمكن محمود بن عبد الجبار وبعض الثائرين معه من الفرار فتعقبه جنود عبد الرحمن الثانى (الأوسط) ولكنه دخل جليقية واستولى على حصن فيها ومكث فيها خمسة أعوام ثم حصرهم ملك الجلالقة الفونسو ، وافتتح الحصن ، وقتل محمودا وجميع أصحابه سنة ٢٢٥ هـ / ٨٣٦م .

وفى سنة ٢١٤هـ / ٨٢٥م . قامت ثورة فى طليطلة فى الوقت الذى كان فيه عبد الرحمن الثانى مشغولا بثورة ماردة. وكانت ثورة طليطلة بقيادة هاشم الضراب الذى كان فى طليطلة عندما أوقع الحكم بن هشام بأهلها وأخذ هشاماً إلى قرطبة من بين الرهائن فعمل حداداً وعرف بالضراب . ثم رحل من قرطبة إلى طليطلة فاجتمع عليه أهل الشر والفساد وأشاروا فيهم روح الثورة، فكثر جمعه واشتدت شوكته وصار يغير بهم على العرب والبربر وانتصر عليهم فى عدة وقائع مما دفع عبد الرحمن الثانى إلى إرسال قائده محمد بن رستم عامل الثغر الأدنى بجيش دارت بينهما عدة وقائع غير حاسمة مما أدى إلى تغلب هاشم على جانب من الثغر وعلى عدة مواضع ، وفى سنة ٢١٦ هـ / ٨٢٧م بعث عبد الرحمن الثانى جيشاً كثيفاً إلى عامله بالثغر محمد بن رستم فزحف إلى الثوار والتقى بهم بالقرب من سمسطا ودارت بينهما معركة استمرت عدة أيام هزم الثوار فيها وقتل هاشم الضراب وكثير من أنصاره أهل الشر وباعثى الفتنة(٥٦) .

وقد إستمر أهل طليطلة خارجين على الأمير عبد الرحمن الثانى غير مذعنين لطاعته فارسل إليهم سة ٢١٩ هـ / ٨٣٠م جيشاً بقيادة أخيه الحكم فحاصر طليطلة وقطع زرعها وأتلف ثمارها. ولكن المدينة صمدت ولم تذعن له بالطاعة فرحل عنها وترك بعض الجند فى قلعة رباح بقيادة ميسرة الفتى المعروف بفتى أبى أيوب ، فلما بعدالجيش خرج جمع كثير من أهل طليطلة لعلهم يجدون فرصة وغفلة ميسرة فيتغلبوا عليه ، وعلم ميسرة بالخبر فجعل لهم كمائن ف مواضع عدة . وعندما وصل أهل طليطلة إلى القلعة للغارة عليها خرجت عليهم الكمائن ووضعت فيه السيف فقتل كثير منهم وفر الباقون إلى طليطلة فاعتصموا بها . وفى العام الثانى – أى ٢٣٠هـ / ٨٣١ م – خرج عبد الرحمن بجيش إلى طليطلة فصمدت المدينة فى وجهه فترك جندا فى قلعة رباح وذهب للقضاء على ثورة ماردة (٥٧) .

وفى سنة ٢٣١ هـ / ٨٣٢ م خرج جماعة من طليطلة إلى قلعة رباح وانضموا إلى جيش عبد الرحمن الثانى واجتمعوا على حصار طليطلة وشددوا عليها الحصار وقطعوا عنها مرافقها حتى ضاق أهلها ونفذ صبرهم ؛ فسيّر إليهم عبد الرحمن الثانى حملة أخرى سنة ٢٣٢ هـ / ٨٣٣م بقيادة أخيه الوليد ابن الحكم فواصل الحصار الشديد حولها حتى بلغ الجهد بأهلها كل مبلغ وضعفوا عن القتال فهاجم المدينة واقتحم أسوارها وتم فتحها يوم السبت ٨ من رجب سنة ٢٣٢هـ /٨٣٣ م وقام الوليد لتجديد القصر الذى كان بناه عمروس أيام الحكم بن هشام على باب الجسر واقام بها إلى آخر شعبان سنة ٢٢٣هـ/ ٨٣٤م . حتى استقرت بها الأمور وعاد أهلها إلى الهدوء والطاعة .

وفى أواخر عهد عبد الرحمن الثانى (الأوسط) قامت فى قرطبة فتنة لم تشر إليها المراجع العربية ، وإنما أشار إليها دوزى وسيد أمير على وغيرهما . وذلك أن المجتمع فى قرطبة كان يتكون من المسلمين من العرب والبربر والمسلمين الأسبان الذين يعرفون بالمولدين ؛ أو الذين نشأوا من تزاوج الرجال المسلمين بالنساء الأسبانيات ويكون أبناؤهم مسلمين. ثم من المستعربين وهم الأسبان الذين ظلوا على دينهم ولكنهم تكلموا العربية وتثقفوا بها ، وبعضهم بلغ فيها شأواً بعيداً دفع المتعصبين وخاصة من القساوسة إلى حمل الشباب إلى كراهية الثقافة العربية ، ثم تحول ذلك إلى حملهم على مهاجمة الإسلام والطعن فيه والطعن فى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن هناك ما يدعو إلى ذلك حيث يسمح للمسيحيين بإقامة شعائرهم الدينية بحرية تامة . كما يشغل بعضهم مناصب عليا مدنية كانت أو عسكرية وغيرها من الوظائف الإدارية .

وقد بدأت الفتنة بجوار دار بين قسيس فى قرطبة يسمى برفيتكو مع بعض المسلمين حول فضائل محمد وعلىّ وحميت المناقشة فتحولت إلى جدال عنيف أدت إلى طعن القسيس فى الإسلام ورسوله فقبض عليه وحوكم حسب

القانون الإسلامى وحكم عليه بالإعدام واستغل ذلك بعض القساوسة المتعصبين وخاصة أيولوخيو وأتباعه الذين قاموا بدعايات ضد الإسلام والمسلمين مما جعل بعض الشباب والشابات إلى الطعن فى الإسلام ونبيه ؛ بل إقتحم بعضهم المساجد وجاهر أمام المسلمين ذلك مما أدى إلى إعدام كثير منهم لإصراره على الطعن أمام القاضى وعدم رجوعه عن الطعن فى الإسلام والنبى .

وقد أخذت هذه الموجة فى الإنتشار مما حمل المعتدلين من المسيحيين أن يعلنوا استنكارهم للحركة التى تزعمها أيولوخيو وعمل عبد الرحمن الثانى على التصدى لها . فعقد مجلساً من القساوسة من جميع أرجاء الإمارة وأصدر الأساقفة قراراً بتحريم المجاهرة بسب النبى محمد، وأن قذى بنى الإسلام محمداً حباً للقتل ونيل الشهادة هو مخالف لروح الإنجيل .

وقد اعتقلت الحكومة أيولوخيو وأتباعه من زعماء الحركة وأودعتهم السجن، ولكن ذلك لم يحل دون استمرارالفتنة إلى أن توفى الأمير عبد الرحمن ثم أفرج عن أيولوخيو وعين أسقفاً لمدينة طليطلة فهدأت الفتنة قليلاً ، ولكنه عاد إلى قرطبة ليواصل فتنته . وعند ذلك أمر الخليفة عبدالرحمن الثانى ابنه محمد بالقبض على أيولوخيو وقتله. وبهذا أخذت الفتنة تضعف شيئاً فشيئاً حتى زالت من تلقاء نفسها [٥٨] .

الحروب الخارجية فى عهد عبد الرحمن الثانى (الأوسط) :

إذا كان من واجب المسلمين أن يؤمنوا الناس فى ولايتهم وينشروا العدل بينهم من خلال جبهة داخلية قوية تستطيع أن تثبت الاستقرار والأمن فى ربوع البلاد، فإن الأكثر أهمية والذين يعينهم على ذلك، هو تأمين حدودهم الخارجية وذلك من خلال بناء جيش قوى يحمى حدود البلاد ويرد كيد الغاصبين المعتدين أو المتربصين بالبلاد، هذا إلى جانب قيام المسلمين بالغزوات فى البلاد المجاورة على غرار ما كان يقوم به النبى محمد صلى الله عليه وسلم من قبل.

ففى منطقة ألبة والقلاع الحصينة سير عبد الرحمن الثانى (الأوسط) جيشاً سنة٢٠٨هـ / ٨١٩ م بقيادة عبد الكريم بن عبدالواحد بن مغيث تمكن من التوغل فيها وحاصروا عدة من الحصون وفتحوا بعضها وصالحهم بعضها على الجزية وإطلاق أسرى المسلمين وقد غنموا غنائم كثيرة . وأظهروا هيبة المسلمين فى تلك المناطق (٥٩) .

وفى سنة ٢٢٤ هـ / ٨٣٤م أرسل عبد الرحمن جيشاً إلى تلك المناطق سالفة الذكر بقيادة عبدالله البلنسى فخرج إليه العدو والتقى الفريقان ودارت بينهما معارك عنيفة انتصر فيها المسلمون بعد أن قتلوا وأسروا أعداداً كبيرة . وقد خرج روذريق ملك الفرنجة (الجلالقة) فى عسكره . وأغار على مدينة سالم فسار إليه موسى بن فرتون على رأس قوات ضخمة وقاتله وهزمه ، ثم توجه فرتون إلى الحصن الذى بناه أهل ألبة بالثغر نكاية للمسلمين فافتتحه وهدمه . كما أرسل عبدالرحمن الثانى ايضا جيشاً سنة ٢٣٩هـ /٨٤٢م بقيادة ابنه محمد إلى ينبلونه وهزم الأعداء وقتل صاحبها جروسيه وهو من أكبر ملوك النصارى (٦٠) .

أما فى منطقة الشمال فقد اهتم بها عبد الرحمن الثانى لما كانت تشكله من خطورة على المسلمين نظراً لطبيعتها الوعرة وإلتفاف النصارى حول أنفسهم ضد المسلمين. فى سنة ٢٢٦هـ/ ٨٢٧م أرسل عبد الرحمن الثانى جيشاً بقيادة عبيد الله البلنسى الذى تمكن من هزيمتهم فى مكان بين أربونة وشرطانية . وواصل عبد الرحمن تأمين البلاد ايضاً فى برشلونة فعاث فى نواحيها واجتاز الدروب التى تسمى البرت إلى بلاد الفرنجة وقتل وأسر من تصدى له ، واصر مدينتها العظمى " جرندة " وعاث فى نواحيها ثم قفل سالماً(٦١) .

أما فى منطقة جليقية فقد سار عبد الرحمن على رأس جيش كبير سنة ٢٢٥هـ/ ٨٢٦م، وفتح حصونها وعاث فى أرضها يقتل ويسلب ويغنم، وطال

مقامه فى هذه الغزوة ثم عاد إلى قرطبة . وفى العام التالى أرسل عبد الرحمن الثانى(الأوسط) ابنه مطرف على رأس جيش ومعه القائد عبد الواحد بن زيد الاسكندرانى وتمكن الجيش من بسط وهيبة المسلمين فى جليقية . ثم عاد عبد الرحمن وأرسل جيشاً للمرة الثالثة جعل على رأسه ابنه محمد سنة ٢٣١هـ / ٨٣٢م ، وأعملوا السيف فى رقاب الأعداء وأسروا منهم الكثير ووصلوا مدينة ليون الفرنسية فحصروها ورموها بالمنجنيق فتركها أهلها وخرجوا هاربين إلى الجبال، فغنم المسلمون منهم ما أمكنهم حمله ثم هدموا سورها وعادوا سالمين بعد أن حفظوا هيئة المسلمين فى تلك المناطق (٦٢) .

وكان اهتمام عبد الرحمن الثانى (الأوسط) بالبحرية لا يقل عن اهتمامه بالقوت البرية، وذلك أن طبيعة بلاد الأندلس والبلدان المجاورة لها يغلب عليها كثرة الوديان والخلجان إلى جانب البحار والمحيطات. لذا كان عليه أن يستعين بالأسطول الإسلامى إلى جانب القوات البرية فى بعض غزواته مثال ذلك: أنه فى عام ٢٢٤هـ/ ٨٣٥م أرسل عبد الرحمن الثانى قوة بحرية كبيرة إلى جزيرة ميورقة وهما أكبر الجزائر الشرقية (جزر البليار) لغزوها والنكاية بسكانها لجهرهم بنقضهم العهد وإضرارهم بالسفن الإسلامية التى تعبر من عليهم، وتمكن المسلمون من إخضاعهم وفتح أكثر جزائرهم وأسر زراريهم والإستيلاء على أموالهم. وقد بعث أهلها إلى الأمير عبد الرحمن الثانى فى العام التالى (٢٢٥هـ) يطلبون الأمان ودفع الجزية، فأجابهم الأمير فى كتاب يقول فيه: "أما بعد فقد بلغنا كتابكم ، تنكرون فيه أمركم وإغارة المسلمين الذين وجهناهم إليكم لجهادكم وأصابتهم ما أصابوا منكم من نراريكم وأموالكم، والمبلغ الذ بلغوه منكم وما أشفيتم عليه من الهلاك ، وسألتم التدارك لأمركم وقبول الجزية منكم وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة والنصيحة للمسلمين ، والكف عن مكرهم ، والوفاء بما تحملونه عن أنفسكم ، ورجونا أن يكون ما عوقبتم به صلاحكم ،وقمعكم عن العود إلى مثل الذى كنتم عليه ، وقد أعطيناكم عهد الله وذمته" .

وكانت آخر غزوات وغارات عبد الرحمن الثانى (الأوسط) كان انتقاماً للمسلمين من "النورمان " أى الفايكنج – الذين أغاروا على الأندلس وهـددوها سنة ٢٣٠هـ / ٨٣٠م هؤلاء النورمان وطنهم الأصلى هى بـلاد اسـكندناوة وربما الدانيمارك وشواطئ ألمانيا الشمالية . لذا عرفوا بالنورمانيين – أى أهل الشمال – ويطلق عليهم مؤرخوا المسلمين "المجوس"(٦٣) .

على أية حال ، كانت غارات النورمان على أشبونة فى الأندلس سـنة ٢٣١هـ / ٨٣٢م عندما تقدم هؤلاء بأسطول مكون من ثمانين قطعة بحريـة وهاجموا أشبونة ، فتصدى لهم المسلمون بقيادة وهب الله بن حزم ، وقامـت بينهم معارك بحرية ضارية استمرت ثلاثة عشر يوماً ، توجه النورمان بعدها إلى قادس ثم إلى شذونة ثم عبروا النهر الكبير إلى اشبيلية ونزلوا على اثنين عشر فرسخا ، فتصدى لهم المسلمون وقاتلوهم قتـالاً عظيمـاً ، غيـر أن النصر كان فى نهاية الأمر للنورمان على أهل أشبيلية . فما علم عبد الـرحمن الثانى بهذه الغارة النورمانية بعث بقوات من الخيل على عجل لإنقـاذ أهـل أشبيلية بقيادة عبد الله بن كليب ومحمد بن رستم وغيرهما تحت قيـادة حاجبـه عيسى بن شهيد ، وكتب إلى عمال الكور فى استنفار النـاس فحلـوا بقرطبـة وقادهم إلى القتال "نصر الفتى" وكان النورمان قد تلقوا مددا فى سـفن جديـدة قدمت عليهم ،ودارت بين الفريقين معارك ضارية تفوق فيها النورمان للمـرة الثانية. بيد أنه عندما تجمعت القوات الإسلامية التى أرسلها عبد الرحمن الثانى إليهم دافعوهم ، ونصبوا المنجنيقات عليهم ، فانهزم النورمان وقتل مـنهم نحـو مائة وخمسين رجلاً ،وأصيبت لهم أربعة مراكب بما فيها ، فأمر ابـن رسـتم باحراقها بجميع من فيها ، ثم كانت الموقعة القاصمة فى ٢٥من صـفر سـنة ٢٣٠هـ /٨٣٢م فى طليطلة وتمكن المسلمون من هزيمة النورمـان ، وقتلـوا منهم ألفا وأسروا أكثر من أربعمائة ، وأحرقوا لهم ثلاثين سفينة ، وكان قائدهم بين القتلى،وقتل الاسرى أمام أعينهم وعلقوا فى جذوع النخيل ،وأقلعت سـفن

النورمان منسحبة تجر أزيال الخزى والمسلمون نمــن ورائهــم يطــاردونهم ويفتدون أسرى المسلمين منهم بمختلف السلع ، وحــاول النورمــان الإغــارة على بعض المدن الأندلسية أثناء انسحابهم فأغاروا على باجة ، ثم وصــلوا إلى لشبونة حيث غادروا شواطئ الأندلس مع باقى سفنهم بعد أن مكثــوا مــا يقرب من شهر ونصف تقرباً . اشاعوا خلالها الذعر والفــزع بــين المــسلمين ،وعانى المسلمين منهم عناءاً شديداً . وطمأن الأمير عبــد الــرحمن الثــانى المدن الإسلامية فى المغرب والأندلس بانكشاف الغمة ودحر المجوس الملاعين وأوضح فى كتابه الأدوار البطوية التى قام بها المسلمون فــى وجــه المجــوس (النورمان) والذى كان من بين قتلاهم أميرهم ومائتين من رؤوس أكابرالنورمان القتلى ، وفرح بذلك الصنهاجين فى طنجة .

على أن غزوة النورمان للمدن الإسلامية فى الأندلس لم تمــر مــرور الكرام على المسلمين ، إذ كان لابد من أن يعتبر المــسلمون ويتنبهــوا إلــى ضرورة بناء أسطول إسلامى قوى لمواجهة مثل هذه الغارات البحرية التى لولا جهاد المسلمين وشجاعتهم واستبسالهم فى القتال لكان للنورمان ما أرادو خاصة وأنهم كانوا يمتلكون أسطولاً قوياً.

مثل هذه الغزوة النورمانية قد دفعت المسلمين إلى ضــرورة الإهتمــام بالأسطول والتحصينات البحرية ، فأنشأ عبد الرحمن الثانى حول أشبيلية سوراً ضخماً وأنشأ بها دار صناعة واهتم بإقامة السفن الحربية ، وحشد لها المقاتلة المدربين من سائر أنحاء الاندلس حتى نمى الأسطول الأندلسى وعظمت قواته البحرية .

إصلاحات عبد الرحمن الثانى فى الأندلس :

لم يشغل إخماد عبد الرحمن الثانى للثورات الداخلية والفتن والقلاقل ، والتهديدات الخارجية عن قيامه باصلاح أمور البلاد والعباد . فقد قام بالعديــد

من الإصلاحات الادارية والمعمارية وفى مجال الصناعة والزراعة . فهو أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر وإبداء آرائهم فيما يعرض عليهم من أعمال . ورفع من شأن الوظائف العامة وأحاطها بالهيبة والمسئولية وجعل أحكام السوق منصباً مستقلاً – وزارة التموين حالياً – عن ولاية المدينة. وقد زادت أموال الجباية فى عهده فبلغت ألف ألف دينار فى السنة، وأنشأ داراً لسك النقود فى قرطبة وجعلها أندلسية مستقلة بقيم وأوزان جديدة (٦٤).

كذلك أهتم عبد الرحمن الثانى (الأوسط) بالناحية المعمارية فأنشأ القصور والمنتزهات، وجلب إليها المياه من الجبال وجعل لقصره حوضاً يجتمع فيه ماء المطر ، وأقام الجسور وعبد الطرق وبنى كثيرا من المساجد الجامعة فى أنحاء الأندلس وزاد فى جامع قرطبة الذى كان قد بدأه جده عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) – أقول زاد فى جامع قرطبة رواقين . هو أول من جلب الماء العذب إلى قرطبة وأدخله إليها ، وجعل له حوضاً كبيراً يتردد عليه الناس ليشربوا منه . وأقام دار صناعة فى أشبيلية وأنشأ المراكب لتكوين أسطول بحرى لحماية سواحل الأندلس وأمده بالآلات والنفط ، كما كان له خمسة آلاف مملوك من الموالى . والصقالبة ثلاثة آلاف كانوا قوما ذوى خيلاء وزهو وغرور بأنفسهم فأسرفوا فى الأعتداد بأنفسهم ، فما من رجل منهم تغضبه الدولة فى شئ إلا ويثور فى ناحيته ويسبب المتاعب والقلاقل ، كما سنرى فى نهاية عصر الاستقرار هذا .

رابعاً : الأمير محمد بن عبد الرحمن الثانى (الأوسط) :

تولى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط الإمارة فى الأندلس بعهد من والده- كعادة الأمراء الأمويين من قبل – فى ٤ ربيع الثانى سنة ٢٣٨ هـ/٢٤ سبتمبر سة ٨٥٢ م – ٢١ صفر ٢٧٣هـ / أوائل أغسطس ٨٨٦م . أى ما يقرب من أربعة وثلاثين عاما تقريباً .

ولم يكن محمد بن عبد الرحمن هو الابن الأكبر لعبد الرحمن الأوسط ولكنه كان أصلحهم للإمارة حسبما رأى والده ورجال مملكته . وقد رشحه أبيه لولاية العهد ، وطلب من رجال الدولة تأييده والإلتفاف من حوله.

كان محمد بن عبد الرحمن الأوسط قد جاوز الثلاثين من عمره عند توليه إمارة الأندلس، وكان رزيناً هادءاً بعيد النظر حتى أن بعض المؤرخين يصفه بالجمود العاطفى. الذى كان عليه جده الأمير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل).

عندما تولى محمد بن عبد الرحمن الإمارة، كان حاجب الدولة ساعتها "عيسى بن شهيد" فأقره على عمله، وكان لعيسى فضل كبير عليه، وكان كذلك آخر وزراء أبيه، وقد زاد فى تنظيم الإدارة (الوزارة) فرتب أعمالهم حتى أصبحوا وزراء متخصصين، أشبه بوزراء اليوم، إذ تولى كل وزير فرع من فروع الإدارة. وبعد أن توفى عيسى بن شهيد تلى الحجابة عيسى بن الحسن، وكان وزيراً جليلاً رغم رثاثة هيئته، ثم خلفه "هشام بن عبد العزيز" وكان رجلا أرعن طائشاً شديد الأنانية. وقد كان له أسوأ الأثر على الدولة وعلى الأمير محمد؛ بل أن رعونته كانت سببا فى قيام كثير من الثورات والاضطرابات التى انتهت إلى عصر الفتنة الأولى التى سنعرض لها بعد ذلك .

لقد واجهت الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ثورات واضطرابات داخلية كثيرة ومتعددة. ففى طليطلة، ثار بنو قسى أصحاب الثغر الأعلى إلى الاستقلال بناحيتهم ، وثارت جماعات أخرى فى الغرب فى اقليم " ماردة " وأن منم يقرأ حوليات الأندلس أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، يدرك أن جميع النواحى ثارت على الإدارة المركزية، وكما أسلفنا يرجع ذلك كله إلى طبيعة بلاد الأندلس المتقطعة بين جبال وأنهار وهضاب وسهول ، يشجع المتمردين على ديمومة الخروج على النظام القائم .فطبيعة البلاد الجبلية تشجع

الطامحين على الاستمرار فى العصيان. ثم إن الناس الذين نشأوا فى هذه البيئات الطبيعية الجبلية لا يميلون إلى الإستسلام بسهولة للحكومة المركزية .وخاصة الزعماء الذين كانوا أشبه فى حياتهم بنظم الإقطاع . ولهذا فقد كانت الثورات والحروب الداخلية لاتتوقف ،بل كانت دائمة فى الأندلس .ولا ريب فى أن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط كان مدركاً لهذه الحقيقة وكان مستعدا دائماً لحماية وحدة بلاده سائراً على نهج أبيه وأجداده من قبل فى الاستعداد الدائم لقمع الثورات والضرب بيد من حديدعلى أيدى المتمردين والعصاة .

لقد عانى الأمير محمد من أهل طليطلة عناءً شديداً، لأن ما فعله معهم جده الحكم بن هشام، كان قد قضى على جانب كبير من الثقة بينهم وبين البيت الأموى. ولكن الأمير محمد انتهج سياسة جديدة فى تأمين طليطلة والثغر الأوسط من عدوان نصارى الشمال وتوثيق علاقتها بقرطبة وتعزيز سلطان الإمارة فيها .

ولذلك كان الحرب سجالا بين أهل طليطلة وجيش قرطبة، واستطاعت قوات الإمارة فى قرطبة أن تحرز نصراً كبيراً عند وادى " سنيط " فى الجزء الجنوبى من كورة طليطلة سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٤م ووقع نفرمن زعماءالثورة والمحرضين عليها فى يد الأميرمحمد ،ثم انتهى الصراع بين الجانبين بنصر آخر لقواته الإمارة فى قرطبةسنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩م ، خارج طليطلة نفسها . وعلى هذا ساد الهدوء والسكينة البلاد [٦٥].

وأقام محمد فى طليطلة ينظرفى أمورها ، فتبين له أنه لابد من تحصين كورة طليطلة من الشمال بإنشاء خط من الحصون والإستحكامات يمتد بحذاء جبل " الشارات" حتى يصل إلى وادى "أبره " فتقوم هذه الحصون بإيقاف أى تقدم للنصارى جنوباً ،ويشعر أهل طليطلة أنهم لم يعودوا بحاجة إلى مهادنة النصارى أو محالفتهم. وكانت هذه أول مراكزه " جريط " أى (مدريد اليوم)

في شمال شرق طليطلة . ثم طلمنكة وقلعة هنارس ووادى الحجارة ومدينة سالم وقلعة أيوب ثم " سرقسطة " وقد سمى هذا الخط كله بـ "وادى الحجارة " أى بوادى الحصون وأهم حصونه مجريط ومدينة سالم ؛ وهذه الأخيرة كانت القاعدة العسكرية للإقليم الثغرى الأوسط الذى عرف بالثغر الأوسط. أما الثغر الشرقى فكان يسمى بالثغر الأيمن وهو منطقة وادى "ابره" وعاصمته سرقسطة. وكان هناك ثغر أدنى فى الغرب ، وهو امتداد الثغرين الأعلى والأوسط وأهم مراكزه قورية وشنترين "ثم "الأشبونه" أى لشبونة وهى قاعدته فى المحيط وكانت هذه المناطق الثغرية الثلاث مناطق حدود يحكمها حكام عسكريون بدل عمال الكورة أو الكور .وكانت لها معاملة مالية خاصة، فلم يكن أهلها يؤدون الأعشار وغيرها من الضرائب بنفس النسب التى كانت تجبى بها فى بقية البلاد ، إذ كان يراعى أن أهل هذه النواحى ينفقون أموالا كثيرة فى الدفاع عن أراضيهم . ثم أنهم كانوا فى الغاب من المسلمين ، يعاملون من جانب الحكومة برفق شديد . وقد جرت العادة فى بلاد الإسلام ، وفى الأندلس خاصة بأن يفد إلى هذه الأقاليم المطوعين والعباد والزهاد والمرابطون ليرابطوا على حدود الإسلام حماية لدار الإسلام التماساً للثواب وتقرباً إلى الله(٦٦) .

على أن خطر النورمان قد عاد من جديد يهدد شواطئ الأندلس، وكان المسلمون قد استعدوا لهم من جديد ببناء الأساطيل – حسبما أوردنا من قبل – فلم يستطيعوا هذه المرة أن يصيبوا المسلمين ما أصابوه من قبل، فلم يجرؤ على اقتحام الأشبونة أو اشبيلية، فانقضوا على بلد صغيرة هى "باجة" فى البرتغال الحالية. وهناك أوقعت بهم قوات الإمارة هزيمة كبيرة. وبعد ذلك تحولت غزوات وغارات النورمان إلى ضربات سريعة على السواحل، وامتدت حتى وصلت الساحل الشرقى لشبه الجزيرة، ويئست تماماً عن القدرة على القيام بعمل كبير فى الأندلس الإسلامية، فاتجهت إلى أسبانيا النصرانية وتمكنت من

الدخول بسفنها في نهر الأبرو، ووصلت إلى "بنبلونة" عاصمة نبرة (نافار) ونهبتها نهباً ذريعا وأسرت ملكها"غرسيه" ولم يطلقوا سراحه إلا لقاء فدية كبيرة.

فكانت تلك آخر محاولة قام بها النورمان ضد الأندلس بعد أن تبينوا أن شواطئه محروسه وأساطيله معدة ورجاله منتبهون ، ولم يعد أحد (يسمع) عن خطر المجوس (النورمان) على الأندلس بعد سنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م .

يضاف إلى ذلك قيام حروب كثيرة بين الأندلس ومملكة "نافار" و "ليون" وقد كانتا لخوفهما من المسلمين قد اتحدتا وانضم إليهما أحيانا " موسى بن قسي "صاحب الثغر الأعلى أى سرقسطة . وكان آل فسى فى الأصل اسرة نصرانية أسبانية، اعتنقت الإسلام ودخلت فى طاعة المسلمين. ولكن رجالها ظلوا يتمسكون باستقلالهم المحلى فى كل منطقة الثغر الأعلى (سرقسطة) .ويبدو أن هذا الاستقلال الحلى كان أمراً تحتمه الضرورات الجغرافية والتاريخية . وقد قدر أمراء قرطبة هذه الظروف فكانوا يكتفون من أمراء الثغر الأعلى بطاعة أسمية، وفى أحيان أخرى كانوا يحاولون كسر شوكتهم . وعلى أى حال لم يكن من الممكن اتباع سياسة أخرى حيال أمراء ثغر بعيد كهذا يحيط به الأعداء من الشمال والشرق والغرب .ويرجع الاستقرار فى هذا الثغر الشمالى إلى آل قسى الأسبانية الأصل وكذلك بنو هاشم الطويل . فقد كانا هذين البيتين يمتاز رجالهما بالبأس والتمرس فى القتال فكانوا محاربين أشداء ، استطاعوا الصمود للضغط النصرانى إذا اقتضى الأمر ذلك . وقد أدى ذلك أيضا إلى خلافات كثيرة بينهم وبين أمراء قرطبة. ولكنهم تمكنوا من حماية ثغرهم وأهله . وتأمينه حتى أيام عبد الرحمن الناصر – أول خليفة أموى بالأندلس – عندما تغيرت العلاقات بينهم وبين إمارة قرطبة التى تحولت إلى خلافة .. ويرجع إلى هذه البيوت الاقطاعية الفضل فى تثبيت أركان الإسلام والثقافة العربية فى ذلك الاقليم . فإنه ظل بعيدا عن الثورات الكبرى على قرطبة . وكان من أكثر بلاد الأندلس عروبة وإسلاماً.

وقد انتصر الأمير محمد على مملكتين " نبره واشـتريس " فـى كـل حروبه معهما بفضل قادته أمثال : " عيسى بن الحسن ، وعباس القرشى "ثـم أبناء الأمير محمد بن عبد الرحمن والحكم والمنذر ، وكانوا قـادة موهـوبين . وقد تمكنت الإمارة القرطبية فى القضاء على أطماع " أردونيو الأول " ملـك اشتريس وليون حتى توفى سنة ٢٥٢ هـ/٨٦٦م وخلفه أخيه" الفونسو الثالـث " الملقب بالكبير ، وهو من أعاظم ملوك أسبانيا النصرانية . وفـى أيامـه نقلـت عاصمة المملكة إلى مدينة ليون ، وأصبح اسمها مملكة ليون ومن أواخر أيام الأمير محمد نجد أن مملكة ليون تصبح منافساً خطراً للإمارة القرطبية (٦٧) .

ولم يمنع الأمير محمداً من إيقاف مملكة ليـون عنـد حـدها إلا كثـرة الثورات عليه فى بلاده. ولم تكن هذه الثورات ناتجة عن ضـعف الحكومـة أو إهمالها لواجبها، بل سببها يرجع إلى اتساع دولة بنى أمية والطبيعـة الـوعرة للبلاد، ثم قلة العرب وسط العناصر والجموع الأخرى من المستعربين والمولدين .وكان الظاهرون من رجال كل ناحية لا يكفون عن معاداة الحكومـة والاتجـاه إلى الاستقلال. وربما كان أفضل السياسات هو أن تسير الحكومة علـى نفـس النظام – أى حكومة قرطبة – والذى كانت تسير عليه ممالك أوربا النـصرانية فى ذلك العصر وهو الاعتراف بأمراء الإقطـاع فـى نـواحيهم فـى مقابـل خضوعهم الرسمى والإذعان والطاعة للدولة، وأداء مبلغ مـن المـال محـدد، وتقديم قوات محاربة وقت الحاجة . ولكن مفهوم الدولة عند بنى أمية ورجالهم لم يكن يقبل بهذا الوضع. ثم إن وجود جماعات كثيرة من العرب فى الـشرق الجنوبى والغرب كان عقبة فى سبيل اقرار نظام كهذا .فقد كـان للعـرب فـى الكور المجندة خاصة ،امتيازات كثيرة . فإذا قبلت الدولة نظام الإقطاع فقد أولئك العرب الذين يسكنون أصحاب الإقطاعيات الأموال التى كـانوا يجبونهـا مـن الناس بحسب نظام الكور المجندة .ولم يكن هذا فى صالحهم لأنهم كانوا يميلون إلى الفوضى أولاً ، ثم أنهم كانوا بعيدين جداً عن ادراك فكرة الدولة وفـضائل

الخضوع للنظام .ومن الغريب أن أولئك العرب الذين استقروا في نواحي تدمير "مرسية" العربية . وكذلك في نواحي غرناطة وبعض كور الجنوب ؛ ظلوا مجتمعين في مراكزهم يعيشون حياتهم العربية في مواطنهم الأولى ، يقضون أوقاتهم في مجال الفروسية ونظم الشعر والحرب فيما بين بعضهم البعض ، مما كان يخرب القرى ويؤذى المحاصيل الزراعية ؛ وكان معظمهم من المولدين والمستعربين .وقد بلغ من قصر نظر رؤسائهم أنه كان لا يعنيهم مصير الإمارة مع أنها كانت درعهم الواقي وقاعدة قواتهم . وسنرى ذلك بوضوح عندما تقوم الفتنة.

وقد تعرضت الإمارة في النواحي الغربية في بلادها من "كور ماردة" و"بطليوس" و "الأشبونة" وبقية ما يعرف اليوم بالبرتغال، لخطر من نوع آخر. فهناك كانت تقيم جماعات كبيرة من المولدين الذين احتفظوا بشخصيتهم المحلية وبروابطهم وأصولهم الأسبانية. وأرض الغرب هذه كانت مغازات (أي أرض قاحلة) وأراضي جبلية يصعب على الإمارة في قرطبة السيطرة عليها سيطرة كاملة. وكانت الدولة تلجأ إلى العنف والعنف يولد العنف، ومن أمثلة ذلك تصرف الإمارة حيال طائفة من أهل الغرب الأندلسي كان مركزهم مدينة ماردة ويتزعمهم المسلم من المولدين من أصل جليقي يسمى "عبدالرحمن بن مروان الجليقي" وقد طالبوا الحكومة بأن تسمح لهم بشئ من الاستقلال في ناحيتهم. وبدلاً من الموافقة نجد الأمير محمد يخرج في جيوشه إلى ماردة سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م، ويستولى على ذلك البلد ويأخذ كبار الثائرين معه ويسكنهم في قرطبة على مقربة منه وتحت نظره ليطمئن على ولائهم(٦٨) .

ولكن الأمير " هاشم بن عبد العزيز " أساء التصرف مع عبد الرحمن بن مروان الجليقي وأهانه ، فهرب من قرطبة إلى ماردة ثم إلى بطليوس .وعبثاً حاولت الإمارة في قرطبة إخضاعه دون جدوى فتحالف مع ملك ليون، وأرسل محمد لحربه سنة ٢٦٢هـ/٨٧٦م ابنه "المنذر" ومعه الوزير" هاشم بن

عبد العزيز" . وكان هاشم هذا رجلا طائشاً عاجزاً عن مواجهة عبد الرحمن بن مروان الجليقى وحليفه "سعدون السرنباتى". وكانت النتيجة هزيمة كبيرة لجيوش إمارة قرطبة فى شوال سنة ٢٦٢هـ/يونيو سنة ٨٧٦م، ووقوع هشام بن عبد العزيز فى أسر السرنباتى فأسلمه لعبد الرحمن الجليقى، وقد افتداه الأمير محمد بمائة وخمسين ألف دينار. وبعد حروب طويلة انتهى الأمير إلى الإتفاق مع عبد الرحمن الجليقى على أقراره على بطليوس ونواحيها ويكون من رجال الإمارة وحلفائها .

ثورة عمر بن حفصون :

ولكن أكبر الثورات الداخلية التى نتجت عن إصرار الحكومة المركزية فى قرطبة على بسط سلطانها وسيادتها المباشرة على النواحى. ورفضها السماح بنصيب كبير من الاستقلال لأهل النواحى نراه فى ثورة "عمر بن حفصون" فى ولاية "رية " الجنوبية وهى ما يسمى الآن بمحافظة " مالقه " .

ويذهب مؤرخو أسبانيا إلى أن ثورة عمر بن حفصون تمثل نزوع الأسبان فى التخلص من سطان العرب ،وهم يدرسونها على أنها جزء من التاريخ الأسبانى العام؛ وذلك خطأ من كل ناحية . فعمر بن حفصون أندلسى المولد والنشأة وعاش معظم حياته مسلماً .وأسباب ثورته تتصل كلهابنظام الحكم الأموى . ووجود جماعات كبيرة من العرب فى كور " تدمير والمرية وغرناطة" وسوء تصرف العرب مع المزارعين وأهل القرى فى تلك النواحى، ومعظمهم مولدون ومستعربون وهو لم ينزع قط غلى الإنفصال عن الأندلس إلا عندما تدهورت ثورته وأصبح يلتمس النجاة من الهلاك المحتوم بأى طريق . وهذا لا يمنع من القول أنها كانت ثورة خطيرة وأنها هزت كيان الدولة الأموية بالإنلس هزاً عنيفاً . وقد كان أمراً محزناً فى أيام عمر بن حفصون . ولكنه كان مفيدا فيما بعد . لأن هذه الثورات الشعبية تكشف عن كثير من العيوب الكامنة وتحفز أولى الأمر إلى تلافيها .

والسبب المباشر لهذه الثورة وقيامها يرجع إلى تشدد عامل " رية " فى جباية الأموال المتأخرة .أما السبب الحقيقى فهو أن أهل هذه النواحى الجبلية لم يظفروا قط بالعناية الكافية من جانب الحكومة المركزية : فامتلأت نفوسهم باسباب الغضب والشكوى، وأصبحوا حطبا يابساً لنيران أية ثورة تقوم (٦٩) .

وقد بدأ تمرد أولئك القوم فى سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٨م وحاول الأمير محمد أن يطفى نيرانها بالقوة فلم يفلح. وهنا ظهر عمر بن حفصون وأخذ يتزعم مطالب الناس أمام الحكومة المركزية وهو من أصل أسبانى مسيحى ، إذ أن جده " الفونسوالقسى" وجده الرابع هوالذى اعتنق الاسلام ، فنشأ هو فى "رية" رجلاً عنيفا متمرداً . فجمع طائفة من الأشرار ونزل فى مكان منيع بجبل " بيشتر " شمال شرق جبال " رندة " واعتصم فى ذلك الجبل وأخذ يناوئ قوات إمارة قرطبة الأموية، وهنا أرسل الأمير محمد وزيره هاشم بن عبدالعزيز، وكان قد أخلى سبيله من الأسر فاستطاع إجبار عمر بن حفصون على النزول من حصنه فى الجبل وضمه إلى ضباط جيش الإمارة ، وفعلاً اشترك بن حفصون فى حملات قام بها فى الشمال . ولكنه كان متمردا بطبعه. ثم أن هاشماً بن عبد العزيز أساء إليه فترك قرطبة مرة أخرى وعاد إلى العصيان سنة ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م .

وسار المنذر بن محمد لمقاتلته، وضيق عليه، فلما كان على وشك الإستيلاء على حصنه الأخير بلغه الخبر بموت أبيه محمد بن عبد الرحمن، فارتد المنذر إلى قرطبة فى ٢٩صفر ٢٧٣هـ/ أوائل أغسطس سنة ٨٨٦م، فتنفس مخنق عمر بن حفصون بعد أن كان أمره يتبدد.

غير أنه لايجب أن نمر على ثورة بن حفصون على وجه الخصوص إلا أن نشير إلى توضيح الأسباب التى اختلفت فى قيامها عن الثورات الأخرى ضد الأمراء الأمويين فى الأندلس .

فإذا كانت كافة الثورات التى عرضنا لها ضد نظام الأمارة فى قرطبة قامت رغبة فى استرداد مناطقهم أو حقداً على الأمير ذاك أو تلك أو اعتقاداً بضرورة التخلص من الحكم الإسلامى والعودة إلى النصرانية .. الخ . فإن ثورة عمر بن حفصون قد اختلفت عن هذا كله .

فإذا استطردنا تاريخ حركة عمر بن حفصون نقول : أن الأمير المنذر بن محمد عندما خلف أباه فى الإمارة ، وكان فارساً وقائداً قادراً ، سار لمحاربة بن حفصون. وكان هذا قد انتهز الفرصة ووسع سلطانه حتى شمل مدينة " رية " بأكملها ، وأخذ يتكلم فى ضرورة الثورة على السلطة للتخلص من الضرائب والظلم وما أشبه اليوم بالبارحة فنحن فى مصر وسائر بلاد المسلمين محتاجين إلى مثل هذه الثورة للتخلص من الظلم والفساد والضرائب التى أبهظت كاهل الناس .

على أية حال ذهب فئة من المؤرخين إلى أن عمر بن فحصون كان مسلماً ، وكذلك كان أتباعه . وكان رجلاً تربى فى ظلاله الإسلام ، فهو سائر على سوء الإدارة وطامح إلى السلطان ليس لأجله ، ولكن لنشر العدل ورفع الظلم الذى استبد بالناس، ولكنه أيضا يقصد الإرتداد بأسبانيا إلى النصرانية ، فهو فى ثورته لم يحاول الاتصال بنصارى الشمال،بل كتب إلى الخليفة العباسى يطلب منه أن يوليه حكم البلاد التى دخلت فى طاعته، وكاتب بنى رستم أهل " تاهرت " فى المغرب ، وكذلك كتب إلى "بنى الأغلب " فى المغرب أيضا يطلب مساعدتهم . ولو أنه لقى منم قرطبة بعض التسامح ، فقد كان من الممكن أن يعود إلى الطاعة آخر الأمر .

غير أن المنذر أصر على القضاء على عمر بن حفصون وإخماد ثورته بالقوة ؛ فسار إليه وحاصره فى الجبل الذى اعتصم به حتى أرغمه على التسليم ، بعد حكم لم يدم أكثر من سنتين وذلك فى صفر ٢٧٥هـ/ يونيو ٨٨٨م فخلفه أخوه عبد الله بن محمد .

الأمير عبد الله بن محمد:

كان الأمير عبد الله يختلف عن أخيه المنذر وأبيه محمد فقد كان بارعاً في حبك المؤامرات، ولم يكن واسع الذكاء، ولا بعيد النظر، ولكنه كان يمتاز بالثبات.

لم يستطع الأمير عبد الله القضاء على ثورة بن حفصون . فامتد أزاه إلى كل نواحي جنوب الأندلس . وخاف العرب على أنفسهم ، فتصدوا لحربه وتزعمهم رجال من أمثال سوار بن حمدون القيسى ، وسعيد بن جودى ، ومحمد بن أضحى الهمذاني، في كورة غرناطة. كذلك ثارعرب أشبيلية بقيادة كريب بن خلدون ، وابراهيم ابن حجاج " وطال النزاع بين أفراد هذين البيتين ؛ ولم يبق فى طاعة الأمير عبد الله إلا قرطبة وأحوازها .

على أن الفضل فى حماية إمارة قرطبة الأموية يرجع إلى ذلك العسكرى والجندى الموهوب " أبو العباس احمد بن أبى عبده " الذى استمر ثلاثين سنة فى ميادين القتال تمرس فيها على فنون الحرب ومداراة العدو ، مدافعا عن الجماعة ووحدة بلاد الأندلس . ويفضل هذا القائد ، وابن أخ له هو " عبد الله محمد بن أبى عبده " استطاع الأمير عبد الله أن يوقع الهزيمة القاسية بعمر بن حفصون فى ٢ صفر سنة ٢٧٨هـ / ٨٩١ م . واستولى بعدها على حصن "يلى " وهو من أحصن معاقل بن حفصون قرب مدينة "تبرة". وقد كانت هذه المعركة هى الخطوة الأولى نحو القضاء على ثورة عمر بن حفصون ، هذا الأخير الذى ظل يطارد جند الإمارة ، ولكنهم أى جيش الإمارة القرطبية تمكن من محاصرته فى معقله الأكبر ، وهو "بيشتر " غير أن الحصار لم يفلح فى القضاء عليه ، حتى توفى الأمير عبد الله بن محمد فى أول ربيع سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢ م ، وكانت ثورة عمر بن حفصون قد وهنت ، وتمهد الطريق لتسليمهم للادارة القرطبية.والفضل فى ذلك يرجع إلى الأمير عبدالله

الذى استطاع رغم وجود النقص الكبير فى أخلاقه أن يجتاز بالأمارة القرطبية المحنة وينجو بها من الأخطار .

وقد أمضى الأمير عبد الله حكمه كله فى حرب متصلة مع أولئك الثائرين الذين تكاثروا فى كل ناحية وازدادت جرأتهم على الإمارة. وتسمى هذه الفترة فى تاريخ الأندلس الإسلامية بفترة الفتنة الأولى " وتمتد من أواخر أيام الأمير محمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن الأوسط (مؤسس الخلافة الأموية) وتعددت مراحلها وأدوارها. ففى دورها الأول : كانت ثورة من بعض أهل النواحى على ما سموه ظلم الإدارة القرطبية واجحافها فى جباية الأموال . وليس ذلك بصحيح . وترتبط هذه الدعوة بأسماء ، عبد الرحمن بن مروان الجليقى فى المغرب وعمر بن حفصون فى الجنوب .

وعندما طالت الحرب وأحس العرب فى نواحى تدمير وغرناطة وأشبيلية بضعف الإمارة، بادروا هم الآخرون بالثورة على الإمارة وخلعوا طاعتها. وقال شعراؤهم شعراً يطالبون فيه الإمارة بأن تترك الأندلس لهم. واستطالوا على المزارعين وأهل القرى وظلموهم فنجم من بين هؤلاء ثوار إنضموا إلى عمر بن حفصون، ودارت الحرب بين بنىحفصون والعرب، وكان النصر عليهم لابن حفصون حتى وقع فى أسر قائدهم "سوار بن حمدون" وأشتدت الفتنة بين بنى حجاج وبنى خلدون فى أشبيلية واشتعلت الأندلس كلها ناراً كما يقول بن عذارى، وهذا هو الدور الثانى للفتنة. وقد واجهها الأمير عبد الله بشجاعة. وقد ذكرنا اثنين من قواده، ونضيف إليهما هنا "جعد بن عبد الغافر" الذى استشهد فى حربه مع بنى حجاج؛ ولكنه حطم قواهم : واستمر الأمير على ذلك حتى استولى رجاله عبد الله على حصن " بلى " فانكسرت شوكة عمر بن حفصون وفقد هيبته وتخلى الناس عنه ،واعتصم بمعقله الحصين فى بيشتر حتى توفى عبد الله كما أسلفنا سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م .

ومن حسن الحظ أن الذى خلفه كان " عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله ،وكان الأميرعبدالله قد قتل ابنه محمداً لاتهامه بمؤامرة، وذلك قبل مولد عبد الرحمن بأسابيع قليلة ، وقد تحول ندم الأمير على قتله ابنه إذ عطف على حفيده . ولذا فقد أحب عبد الرحمن وأسكنه معه فى القصر واشرف على تربيته وقدمه على سائر أبنائه . ولم يكن أحد من الباقين من أبناء عبد الله يظن أن العرش يمكن أن يصير إلى عبد الرحمن فسكتوا عنه . وكان هو من جانبه شابا ذكيا بعيد النظر ،فكان يقوم بالوساطة بين الأمراء ورجال الدولة وجده البخيل العنيف . فأحبه الناس ووسطوه فى حاجتهم فنشأ محبوباً من الجميع مقربا إلى جده . فلما توفى الجد ، أجمع أهل القصر على مبايعته . ولم يختلف عليه أحد لأن أحوال الإدارة كانت من السوء بحيث لم يكن فيها مطمع لأحد . وهكذا أصبح عبد الرحمن ابن محمد المعروف بالثالث أو الناصر أمير قرطبة دون صعوبة فى ٣٠٠هـ / ٩١٢ م . وبدأ فى تاريخ الأندلس ، العصرالذهبى للأمويين والمسمين بها وهو عصر الإزدهار الأكبر . وكانت الخلافة الأموية لأول مرة فى تاريخ الأندلس الإسلامية(٧٠) .

هوامش الفصل الثاني :

(١) مجهول المؤلف ، أخبار مجموعة، ص ١٦- ١٨.

(2) Cam. Medivel History, Vol. 3, p. 309.

(3) Diehl Marcials , le Monde Orientole , p. 390.

وراجع أيضا: سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، جـ ١، ص٥١٧.

(٤) ابن عذارى، البيان المغرب، جـ ٣، ص ١٧١وما بعدها، وراجع: ابن التوطية، إفتتاح الأندلس، ص ٤٥ – ٤٧.

(5) Dozy , Spanish Islam , pp. 185- 190.

وراجع سعيد عاشور، المرجع السابق ، جـ ١، ص ٥١٨.

(٦) أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس، انظر: "مراحل الفتح العربى فى بلاد الأندلس".

(٧) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين فى الأندلس ، ص ٢٢٠ وراجع: أحمد مختار العبادى ، المرجع السابق ، نفس الصفحات.

(٨) على أدهم ، صقر قريش ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥، ص٣٥ – ٣٧.

(٩) المقرى ، نفح الطيب ، المجلد الثالث ، ص ٢٣٠ وما بعدها . وانظر ، ابن الخطيب، الإحاطة فى أخبار غرناطة ، المجلد الأول تحقيق ، محمد عبد الله عنان ، القاهرة، ١٩٧٣م ، ص ٢٣٤ وما بعدها .

(١٠) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ ٧ ، ص ١٩١ -١٩٣ .

(١١) ابن الكردبوس ؛ تاريخ الأندلس ، تحقيق د. أحمد مختار العبادى ، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٧١ م ص ٧٥ ومابعدها .

(١٢) أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس، "عصر الإمارة" وراجع؛ عاشور، أوربا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٥١٨-٥١٩ .

(13) Alfonso El Sabio, Primera Cranica gernal de Espana, Tomo, II, Publicado Por Ramon Menendez Pidal, Madrid, 1955, pp. 530– 531.

(١٤) على أدهم ، المرجع السابق ، ص ٨٤ : ١١٣ .

(15) Dozy, Apanish Islam ,pp. 187 – 192.

وراجع عاشور، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٥١٨.

(١٦) لين بول، العرب فى أسبانيا ، ص ٤٥ – ٤٧ ، وراجع عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥١٨.

(١٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٤٢ ، وراجع العبادى، المرجع السابق، (عصر الإمارة فى الاندلس) .

(18) Dozy . Op. Cit, pp. 191 – 193. and See; Watts, Spain, pp.27– 29.

(١٩) ابن عذارى ، المصدر السابق ، نفس الصفحات .

(٢٠) لين بول ، العرب فى أسبانيا، ص ٥٧ – ٦١ .
وراجع ، العبادى ، المرجع السابق ، (عصر الإمارة).

(٢١) ليفنى بروفنسال، الإسلام فى المغرب والأندلس، ترجمة السيد عبد العزيز سالم، والأستاذ محمد صلاح الدين حلمى، راجعه الدكتور لطفى عبد البديع، طبعة نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٦، ص ٩٩ وما بعدها .

(٢٢) عبد الرحمن على الحجى، تاريخ الأندلس، ص ٦٥ – ٧٠.
وراجع سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥١٨ .

(٢٣) ابن عذارى ، البيان المقرب ، جـ ٣ ، ص ١٢١- ١٢٣ .وراجع :
Dozy , Op. Cit , p. 195.

(24) Cam . Med. History, vol , 3 , pp.297– 299.

(٢٥) لين بول ، العرب فى أسبانيا ، ص ٥٩- ٦٠ ، وراجع : سعيد عبد الفتاح، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٥١٨

(26) Muci Miranda, A, Histoire Musu- lmana de Valencia, tomo, II, 2– 3.

(27) Muici, Op. Cit. cite, tomo, I, P. 175 .
وراجع عاشور، المرجع السابق ، ص ٥١٨ -٥١٩.

(٢٨) عن ثورات البربر فى المغرب. والأندلس أنظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص١٥ -١٦. مؤلف مجهول، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، تحقيق ابراهيم الأبيارى، دارالكتب الإسلامية، القاهرة ،١٩٨١م، ص٣٦ -٤٠، ٤٢ – ٤٥، وانظر: ابن عذارى، البيان المغرب، جـ١، ص٥٤ – ٥٦، والسيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ، ص ١٥٣- ١٦٢ .

(٢٩) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ١٥٣-١٦٣ .

(٣٠) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٥٤ – ٥٦.

(٣١) ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ١٥ – ١٦ .

(٣٢) مؤلف مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ٤٢ – ٤٥ .

(٣٣) المصدر السابق ، نفس الصفحات؛ وراجع أيضا :

ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ،المجلد الثالث، عام ١٩٨٥، ص ٢٨٩ .

(٣٤) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ص ١٥٣-١٦٣.
ونذوة التاريخ الوسيط ، مجلدان ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٣٥) على أدهم، صقر قريش، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م. اقرأ الكتاب.

(٣٦) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف ، والترجمة ١٩٦٦م، ص ٧٤ -٧٥ .

(37) Mahuud Makki, Ensayo Sobre lose Aportacious Orients les en Espana Musulmana, en Revista del Insituto Do EstudiosIslmaicos in Madrid , vol. IX- X Madrid, 1961, pp.129 – 154.

(٣٨) ابن فرجون ، الديباج المذهب فىمعرفة أعيان المذهب ، تحقيق الدكتورمحمد الأحمدى أبو النور ، الجزء الأول، مكتبة التراث ، القاهرة ١٩٧٢م ، ص ٧٥ - ٨١.

(٣٩) ابن القوطية ،تاريخ افتتاح الأندلس ،ص ٤٣ - ٤٥ .

(٤٠) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٨٠٥ - ٨٠٦ .

(٤١) المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الثانى ، بيروت، ص ٤٥ -٤٧ .

(٤٢) ابن الفرضى ،المصدر السابق ، ص ٧٣ - ٧٥ .

(٤٣) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق محمود على مكى ، ص ٤٠

(٤٤) أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس. (عصر الإمارة وما قام فيها من ثورات فى عهد الحكم بن هشام) .

(٤٥) نفسه ، نفس المرجع والصفحات .

(٤٦) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ،ص ٤١٧ -٤١٩ ، وانظر : ابن الخطيب. أعمال الأعلام ، القسم الأندلسى ، ص ٢٠٣ .

(٤٧) ليفى بروفنسال، الإسلام فى المغرب والأندلس، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم، والأستاذ محمد صلاح الدين حلمى، راجعه الدكتور لطفى عبد البديع، مطبعة نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٦ .

(48) Muici Miranda, Op. Cit. tomo ,II, pp. 2– 4 .

(٤٩) ابن الفرض، علماء الأندلس، ص ١٨١ وما بعدها، وراجع: الحميدى، جذوة المقتبس، ص٢٠٥ – ٢٠٧ .

(٥٠) مؤلف مجهول ، أخبارمجموعة فى تاريخ الأندلس ، ص ٧٥ – ٧٦ . وما بعدها .

(٥١) مؤلف مجهول ، المصدر السابق ، ص ٩٧ – ١٠٦.

(٥٢) ابن عذارى البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٤٣ وانظر : ابن القوطية ، افتتاح الأندلس ص ٣٨ ، ٥١.

(٥٣) لطفى عبد السميع ، الإسلام فى أسبانيا، ص ٧٣ وما بعدها .

(٥٤) ابن الفرضى ، علماء الأندلس ، جـ ٢ ، ص ١٣٨ – ١٤٠ .

(٥٥) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الأندلسى ، ص ١٠٣.

(٥٦) الخشنى ، قضاة قرطبة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م ص ١٤-١٩.

(57) Levi – provencal; Histoire de L' Espagnemusulmane, tom,3, Paris, 1953, pp. 117 – 119 .

(٥٨) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، تحقيق ابراهيم الأبيــارى، دار الكتــب المصرية. القاهرة ١٩٨١، ص ١١٨-١١٩. وانظر: ابن القوطية، المصدر السابق، ص ٤٦-٤٨.

(٥٩) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، الجزء الأندلسى ص ١٥ وانظــر: محمــد عبدالله عنان، دولة الإسلام فى الأندلس، ط /٤، القاهرة ١٩٩٦م، ص ٢٤٣ وما بعدها .

(٦٠) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، ص٢٢٢ – ٢٢٣ وما بعدها .

(٦١) أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٣٨، ١٤١ وما بعدها.

(٦٢) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤١٤ – ٤١٩.

وراجع، ابن الخطيب، المصدر السابق، القسم الأندلسى، ص٢٠١ -٢٠٣ .

(٦٣) ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـــ ٤ ص ٣٢- ٣٥ .

(٦٤) ابن بسام، الزخيرة فى تحسين أهل الجزيرة (الزخيرة فى محاســن أهــل الجزيرة) القسم الثالث، المجلد الأول، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تــونس ١٩٨١. وراجع: ابن عذارى المصدر السابق، جـــ ٤، ص٣١ وما بعدها.

(65) Menedez Pidal, Chronical of the Cid, pp. 140 – 141.

(66) Ibid. tome, II, PP. 442 – 443 .

(٦٧) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٢٤٠ – ٢٤٥ .

(٦٨) ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـــ ٤ ، ص ٣٣ وما بعدها .

وراجع: الطاهر أحمد مكـــى، ملحمـــة الـــسيد، ترجمـــة وتقـــديم ط/١ دار المعارف، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٢٨ .

(٦٩) ابن عذارى، البيان المغرب، جـــ ٣، ص ١٤٤، وراجع ابـــن الأثيـــر، الكامل فى التاريخ ، جـــ ٧ ، ص ٢٩١ وما بعدها.

(٧٠) ابن الآبار، الحلة، جـــ٢ ، ص ٢٧٧ وما بعدها .

الفصل الثالث

عصر الخلافة الأموية فى الأندلس

- عبد الرحمن الناصر وتأسيس الخلافة الأموية .
- عبد الرحمن الثالث (الناصر) ومواجهة المتمردين .
- علاقة عبد الرحمن الناصر بملوك قشتالة وبنبولة .
- علاقة الناصر بالدولة الفاطمية فى المغرب .
- موقف عبد الرحمن الناصر من الأقارب فى قرطبة .
- انشاء مدينة الزهراء بالأندلس وتوسيع المسجد بها .
- خلافة الحكم المستنصر ٣٥٠ - ٣٦٦هـ/ ٩٦١ - ٩٧٦م
- سياسة الحكم المستنصر فى الأندلس .
- موقف الأندلس من خلافات المغرب .
- هشام المؤيد ٣٦٦ -٣٩٩ هـ / ٩٧٦- ١٠٠٩م .
- مصير الأندلس تحت رحمة الأوصياء بعد هشام .
- محمد بن أبى عامر والسلطان .
- محمد بن أبى عامر وإنشاء جيشاً خاصاً من المرتزقة .
- غزوات محمد بن أبى عامر .
- محمد بن أبى عامر يتخذ لقب الحاجب المنصور
- المنصور ونقل الخلافة إلى البيت العامرى .

عبد الناصر (الثالث) (٩١٢/ ٩٦١م) :

بدأ عبد الرحمن الناصر حكمه فى ربيع الأول سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م. وكان يبلغ من العمر عندئذ الثانية والعشرين، وقد اتفق الجميع على البيعة له بنفس راضية مع صغر سنه ، ومع وجود الكثيرين من أعمامه الذين كان من الممكن أن يتنافسوا على الحكم ويسببوا له المتاعب مع بداية عهده ، غير أن عبد الرحمن الثالث (الناصر) عرف كيف يكسب محبة الناس جميعاً له ويلتفون حوله، لما كان يقوم به من الوساطة للناس عند جده عبدالله ، الذى اشتهر بالعنف والبخل حتى نفر منه الناس ولم يبق قريبا منه إلا حفيده عبد الرحمن هذا ، الذى كان وسيطا بينه وبين أهل الدولة والأمراء، فكسب بذلك محبتهم وولاءهم[١].

وهكذا أصبح عبد الرحمن بن محمد عبد الله الذى عرف فيما بعد باسم عبد الرحمن الثالث أو الناصر أمير للأندلس فى أكتوبر سنة ٩١٢ م . وكان الواجب والتبعةالملقاة على عاتقه عسيرة وثقيلة . فقد رأينا ما تعرضت له الإمارة القرطبية من ثورات متتالية ومتشعبة فى أرجاء الأندلس من الأهل والأقارب . والأعداء ، حتى أصبح منصب الأمير منصباً لا يحسد عليه صاحبه . وقيل أن الذى جعل أعمام عبد الرحمن الثالث (الناصر) ينصرفون عن مناوئته ومنافسته هو شعورهم بأن منصب الأمير فى الأندلس ، كان محملا بالأثقال والمتاعب والأخطار والمسئوليات وأنه لا خير فيه ؛ ولهذا فقد تركوه دون اعتراض لهذا الشاب .

ولكن عبدالرحمن الثالث (الناصر) أثبت أن الإنسان يستطيع بالذكاء والحكمة والإصرار وحسن الخلق والتدبير أن يعيد بناء دولة أو يقيم أودها. وهنا ينبغى علينا أن لا ننسى فضل الأمير عبد الله فيما سيصل إليه حفيده ؛ فهو صاحب الفضل فى تحطيم قوىالثائرين وخاصة عمر بن حفصون ولولا ثبات الأمير عبدالله وإصراره على التمسك بحقوق الإمارة ومطالبته كل حكام

النواحى بما ذلك الثائرين بالطاعة وكذلك تدبيره أمور الدولة بالقليل من المال الذى كان يصل إليه . لولا ذلك ما استطاع عبد الرحمن أن يعيد الوحدة إلى البلاد ويجمع قوادها ، ويسير بهذا فى طريق القوة والأزدهار .

كذلك علينا أن نذكر فضل المخلصين من رجال البيوت الموازية والتعاون المستمر والأخلاص الثابت .فمكنوا لها من الثبات وسط العواصف والسحب القاتمة. ولاننسى هنا فضل القائد أبى العباس أحمد بن أبى عبده الذى قضى أكثر من ثلاثين سنة- كما ذكرنا آنفا- فى ميادين القتال مكافحاً عن الإمارة . وإليه يرجع الفضل فى كسب نصر يوليو سنة ٩١٢م على " عمر بن حفصون " الذى كسر ظهره ومهد الطريق للقضاء عليه (٢) .

أحوال الأندلس عند ولاية عبد الرحمن الناصر :

رأينا كيف نشبت ثورة عمر بن حفصون وتفاقم أمرها حتى أشاعت الفوضى فى جنوب الأندلس كله، فخرجت معظم نواحيه عن طاعة قرطبة، وكيف تمكن الأمير عبد الله من الصمود لذلك الرجل والحاق الهزيمة الكبيرة به عند " يلّى". ولكن ذلك النصركان لا بد أن تتبعه سياسة عارمة مع عمر بن حفصون حتى لا يستعيد قوته وينشر أذاه على الامارة فى قرطبة كما كان الحال عليه من قبل .

وبعد وفاة الأمير عبد الله ، حاول الثائر عمر بن حفصون أن يعيد صلاته بأمثاله من الثائرين ؛ ولكن عبد الرحمن الثالث (الناصر) تنبه لذلك ، وعرف أن أول ما ينبغى القيام به هو مواصلة الكفاح مع هذا الثائر وأنصاره ومن تبعوه فى طريق الفتنة .

وكان أول ما قام به عبد الرحمن الناصر ، هو إرسال جيش إلى قلعة كركى "Caracuel " فى جبال المعدن "Siera Morena " شمالى قرطبة لمواجهة ثائر آخر كان قد أراد أن يحذو حذو عمر بن حفصون ، وهو " الفتح

بن زنون". وكان قد ثار بنواحى "شنتبرية Santaver". وكان يقود الجيش القائد عباس بن عبد العزيز القرشى. وعند "كركى" لقى الفاتح بن زنون وأنـزل بـه هزيمة قاصمة واضطر إلى اللجوء إلى قلعة إقليش. وكذلك هـزم فـى تلـك الحملة رئيس من رؤساء الثائرين هو " محمد بن أردبولش " فكان هذا النـصر الذى لقيته جيوش عبد الرحمن الثالث (الناصر) فى صدر حكمه أثر بعيـد فـى إخافة الثائرين عليه(٣).

وفى جمادى الأولى سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٣ م سيرعبد الرحمن جيشاً قوياً يقوده القائد بدربن أحمد ، فاسترجع مدينة "استجه " التى كان عمر بن حفصون قد ضمها إليه ،وبعد دخول بدر بن أحمد ذلك البلد هدم أسوارها حتى سـواها بالأرض وهدم القنطرة التى كانت تؤدى إليها على نهر " شنيل " فانقطع رجاء أهلها فى الثورة(٤).

وبعد ذلك بقليل وجه عبد الرحمن الناصر جيشاً كبيراً إلـى عمـر بـن حفصون وقد درب الجيش شهراً طويلة، فلم يدع شيئاً يلزم للجيوس إلا اهتم به، وتخير فرسانه واحداً واحداً وخرج من قرطبة فى شعبان سنة ٣٠٠هـ /٩١٣م، وتوجه الجيش وعلى رأسه عبد الرحمن نحو " أبذة "حيث انضم إليه أحد القواد المخلصين للإمارة واتجه الجيش إلى "مرطش" ثم قصر "مالقة" وعسكر فى قلب المنطقة التى ظن ابن حفصون أنها مغلقة، وهنا رغب أنصاره من أمثال "سـعيد بن هذيل المولد صاحب حصن "مونتلون" فى الاستسلام للناصر فأجيب إلى ما طلب ووفى له بأمانة؛ ثم لحق به ثائر آخر هو "عبد الله بن الثالية" فحصل على الأمان. وكذلك فعل بن عطاف الأزدق الثائر بحصن "فتيشة" على نهر يـسمى وادى بنى عبد الله Guadalen، فدعاه عبد الرحمن إلى الدخول فى طاعته ففعل ومنحه عبد الرحمن الأمان، ثم استولى عبد الرحمن على وادى "آش" Guadix ووقع على يده فى ذلك نفر من حلفاء عمر بن حفصون ممن كانوا ثائرين فـى

ولاية غرناطة. ومن هناك وصل عبد الرحمن بجيوشه إلى ساحل البحر عند "شلوبنية". وعاد بعد ذلك إلى قرطبة، وفى طريقه إليها استولى على بلدين ثائرين هما "سنت أستبان San Esteban و "بنه فراط Pena Forats " ثم عاد إلى عاصمته فى عيد الأضحى سنة ٣٠٠هـ / يونيو ٩١٣ يونيو ٩١٣م بعد أن ألقى الرعب فى قلوب الثائرين ،واستولى فيما يقول المؤرخون على سبعين حصناً من حصونهم (٥).

وفى العام التالى ٣٠١ هـ / ٩١٤م ، سارعبد الرحمن الناصر إلى جبال "رنده" وفيها المعقل الرئيسى لابن حفصون فى " بيبستر - Bobastro " وفى طريقه استولى على عدد من الحصون المؤدية إلى ذلك الحصن ، ووصل عبد الرحمن إلى الجزيرة الخضراء وأعاد لطاعته وهو فى الطريق كل من "شذونة" ومورورثم اتجه نحو "قرمونة".(٦)

وكانت نية عبد الرحمن هذه المرة منعقدة على كسر شوكة بنى الحجاج بن خلدون، الذين كانوا قد استبدوا بأمر أشبيلية وأقاليمها، وكانوا يعاونون ابن حفصون على تماديه فى الفساد .

وكان عبد الرحمن الناصر يرمى إلى حرمان بن حفصون من خلفائه حتى يستسلم من نفسه دون حرب، وأرسل عبد الرحمن الناصر قائده "القاسم بن الوليد" نحو أشبيلية فخاف "احمد بن مسلمة قائد بنى الحجاج" من مغبة التمادى فى الضلال فأبدى رغبته فى الاستسلام وأرسل عبد الرحمن قائده "بدر بن أحمد" فدخل البلد فى جمادى الأولى سنة ٣٠١هـ/ ديسمبر ٩١٤م، وحاول محمد بن ابراهيم بن حجاج، زعيم بنى حجاج أن يحصل لبيته على شروط قبل أن يوادع عبد الرحمن . ولكن هذا أفهمه أنه لا يقبل إلا الاستسلام دون شروط . وبالفعل تم ذلك، ونزل زعيم بنى حجاج على عهد عبد الرحمن الناصر. وهكذا عاد غرب الأندلس إلى الطاعة بعد طول خروج .

وأثناء عودة عبد الرحمن الناصر حاصر قلعة "قرمونة" وكان فيها ثائر من أنصار عمر بن حفصون يدعى "حبيب بن عمر بن سوارة وترك رجاله يحاصرون البلد وعاد إلى قرطبة، ولم يلبث حبيب أن استسلم وأخذ إلى قرطبة عهد أمان(٧) .

وكان عبد الرحمن الناصر يقوم بكل هذه الأعمال ، وفى ذهنه القضاء على رأس الفتنة كلها ، وهو عمر بن حفصون ، فأرسل جيوشه فاحتلت " جيان " التى كان أصحابها يدفعون الإتاوة لابن حفصون . وكذلك أرسل قوة إلى " البيرة " فأعادتها إلى الطاعة ، وكان الخناق يضيق حول بن حفصون شيئا فشيئاً ، وظن أواخر أيامه أنه إذا ارتد إلى النصرانية كَسَب ولاء المستعربين فى الأندلس ، وكانوا كثيرين جداً ، وكانوا غير راضين عن الإمارة التى تركتهم فريسة لعدوان ابن حفصون ومن شابهه من الثائرين من العرب فى إقليم " البيرة" وهى غرناطة ،ولكن هذا الارتداد أضر بابن حفصون ولم ينفعه فى شئ فقد انصرف عنه الكثيرين من رجال المسلمين والنصارى، بل أن ابناً واحداً من أبنائه وابنته، فعلا فعل أبيهما فى التنصر وظل الأبناء الأخرى على الإسلام. وفى أثناء ذلك واليأس يحيط برأس هذا الثائر العنيد، نزل به الموت فى قلعة "بيشتر" ودفن فى كنيستها فى ربيع الأول سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٧م بعد أن قاد أخطر ثورة تعرضت لها إمارة قرطبة الأموية فى الأندلس بعد أن استمرت قرابة أو نحو ٣٠ سنة، وفى أثنائها تقلب الرجل من ناحية الأجناس الأخرى،حتى يقال أنه خطب لبنى الأغلب أصحاب القيروان ، وحاول الاتصال ببنى رستم أصحاب تاهرت فلم يوفق معهم فى شئ(٨) .

وكان لموت بن حفصون رجة فرح كوبرى فى أرجاء الأندلس خاصة أمراء بنى أمية، إذ أجهدهم هذا المتمرد الثائر ، بينما استفاد منه أمثاله الثائرين الذين رأوا أنه ليس من المفيد الاستمرار فى مواجهة الأمويين ، بل الأفضل لهم الدخول فى طاعة إمارة قرطبة الأموية مقابل عهد بالأمان والإكرام ، فأمنهم

عبد الرحمن الناصر على هذا . وبذلك انتهت أطول وأخطر ثورة ضد النظام الأموى بالأندلس على بد عبد الرحمن الناصر سنة ٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م .

غير أنه بعد وفاة عمر بن حفصون ،خلفه ابنه جعفر "الذى كان قد تنصّر مثله هو وأخته "أرجنتينا"فى حين أن أبناءه الثلاثة الباقين ، وهم " سليمان"و"عبد الرحمن" و "حفص" ظلوا على الإسلام . وتولى جعفر مقاومة عبد الرحمن الثالث، فلم يمهله هذا ، سار نحوه فى ذى الحجة سنة ٣٠٦هـ /مايو ٩١٩م .وقد احتفل فى إعداد هذه الحملة وإحتشد على طريقته التى سار عليها ، وإحتل عبد الرحمن بلدة شذونة ومنها اتجه إلى جبال " رندة" . كما استولى وهو فى الطريق على حصن منيع قرب " بليدة". وكان جعفر قد وضع هناك حامية تنبه للخطر . وفى أواخر ذى الحجة سنة ٣٠٦هـ/ أوائل يونيو ٩١٩م استولى عبد الرحمن على الحصون الصغيرة المحيطة بالحصن الكبير " بيشستر " ثم ترك حاملة تشدد الحصار على الجبل وعاد إلى قرطبة . وطلب جعفر بن عمر بن حفصون هدنة وأرسل رهائن لضماناً لوفائه . وبعد قليل استسلم حفص وأخذ إلى قرطبة وحاول أخوه جعفر أن يواصل المقاومة ، ولكن جعفر قتل فى جمادى الآخرة سنة٣٠٨ هـ/ ٩٢٠م فى أكتوبر، وحاول أخوه سليمان قيادة الثورة ، ولكن أمرها كان قد وهن ؛ وتمكن رجال عبدالرحمن من الإستيلاء على معظم الحصون الثائرة فى كورتى "رندة والبيرة". وأخيراً وفى سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١ م سار عبد الرحمن بنفسه واستولى على بيستر وحول كنيستها إلى مسجد(٩).

وهكذا انتهت ثورة ابن حفصون وأبنائه التى أقلقت بال الأمراء الأمويين فىالأندلس منذ قيام إمارتهم فى قرطبة .

وفى أثناء الصراع السالف بين عبد الرحمن الناصر والثائرين من أبناء بنى حفص، كان قد استشهد قائد عبد الرحمن الناصر الشهير أبا العباس أحمد بن

أبى عبده. فى قلعة تسمى "مونت روميو" فيما بين المريـــة وغرناطـــة. وهكـــذا انتهت حياة ذلك القائد الهمام يرجع إليه الفضل فى إنقاذ الإمارة الأندلـــسية مـــن الإنهيار، خاصة وأنه كان مخلصاً وفياً لقضية وحدة الأندلس .

وقد أنفق عبد الرحمن الناصر بعد ذلك سنوات فى تهدئـــة الأوضـــاع جنوبى الأندلس والقضاء على الثائرين فيه حتى عادت البلاد فى حوض الوادى الكبير وجنوبيه إلى طاعة الإمارة ،وقد اجتهد عبد الرحمن فى إصلاح مـــا أفسده الثائرون فأعاد تنظيم البلاد وأكثر من بناء المساجد ، وعمّ السلام البلاد بفضل حكمة ودقة وجهد عبد الرحمن الناصر المتواصل .

عبد الرحمن الناصر وإخماد الثورات فى غرب الأندلس :

بعد تخلص عبدالرحمن الناصر من ثورة بنى حفصون عام ٣٠٩/٩٢١م وإقرار الأوضاع فى جنوبى الأندلس ،كان عليـــه أن يتـــابع هـــذه الحركـــات الخارجة على النظام المركزى فى قرطبة أينما حلّوا ، فتوجه بعد أربع سنوات من التاريخ السابق نحو غرب الأندلس حيث قامت هناك بعض حركات التمرد والعصيان لعل أبرزها تلك التى وقعت فى غرب الأندلس وفى اقليم طليطلـــة . ذلك أن غرب الأندلس خاصة فى نواحى "ماردة وبطليوس " كان قد قام فيها عدد كبير من الثوار أكبرهم رجل من المستعمرين يعرف باسم "عبدالرحمن بن مروان الجليقى "وكان أول أمره من ضباط جيش الإمارة ثـــم خلـــع طاعتهـــا وتحصن فى "ماردة". وانضم إليها عدد من المتمردين والخارجين على القانون، وقوى أمره ومد يده وحالف ملوك قشتالة واستولى على بطليوس وأفسد الغرب الأندلسى كله .لقد استفاد عبد الرحمن الناصر فى قتاله مع عمر بـــن حفـــصون وأبنائه ولذلك كرر نفس التجربة مع هذا الثائر عبد الـــرحمن بـــن مـــروان الجليقى وكان أمره أصعب لأنه كان على صلة بأهل طليطلـــة ،ولـــم تكـــن طاعتهم خالصة للإمارة، وكذلك كان يستعين بملوك قشتالة. ولو أضفنا إلى ذلك؛

أن الثغر الأعلى الأندلسي وهو حوض نهر الإبرو وقواعده الكبرى مثل " سرقسطة وطليطلة وشقة " ظلت في طاعة الإمارة القرطبية . ولكن زعمائها كانوا يتصرفون بحسب ما تمليه عليهم مصالحهم ، فهم تارة مع الإمارة وتارة أخرى عليها(١٠).

وقد وجّه عبد الرحمن الناصر أول الأمر كل قواه نحو بطليوس للقضاء على ثورة عبد الرحمن بن مروان الجليقى . وظل يتابع الحملات عليه . وفى أثناء ذلك ، استولت قوات عبد الرحمن الناصر على معظم حصون الثائرين الموالين للجليقى، حتى طاع كل الغرب الأندلسى مثل" شلب واكتونية شنتمرية الغرب " لعبدالرحمن ثم اتجه بعد ذلك إلى عبد الرحمن بن مروان الجيقى وحاصره حصاراً طويلا حتى ألقى بيد الطاعة . وما كاد عبد الرحمن يعود إلى قرطبة فى سنة ٣١٨هـ / ٩٣٠م حتى استسلمت بطليوس وكل ما كان تابعاً للجليقى وأهل بيته وكبار أنصاره لقرطبة على الأمان والتوسعة والتكرمة . وهناك اندرجوا فى زمرة السكان وانتهى بذلك حركات التمرد والعصيان فى غرب الأندلس . وطال أمر طليطلة التى طال أمر خروجها على الطاعة والتحالف مع ملوك قشتالة واستنادها إلى التأييد لبنى قسى الثائرين ف " لاردة "وبعض نواحي الثغر الأعلى . وكان بنو قسىأسرة بشنكسية الأصل جدها " فرتون" فدخل فى الإسلام وتركهم المسلمون فى ضياعهم وأقطاعاتهم فى الشمال. وصارت رياستهم فى آخر الأمر لبنى قسى، وهم أحفاد فرطون. وقد تولى رياستهم فى عهد عبد الرحمن زعيمان قويان هما: المطرف بن لب بن موسى القسوى، وابن عمه ، محمد بن اسماعيل بن موسى. أما طليطلة فقد تولى زعامتها رجل من رجالها يسمى: " لب بن " طريشة " وكان حليفاً لملوك قشتالة (١١) .

وفى سنة ٣٠٨هـ /٩٢٠م شرع عبد الرحمن فى معالجة أمر الشمال الثائر . فقاد الحملة الكبيرة التى تسمى فى النصوص باسم " غزوة موبش "

اتجه أول الأمر إلى قرطبة فسارع " لب بن طريشة " وبذل الطاعة لعبد الرحمن ، ولكنها كانت طاعة على دخن .وبعد وفاة لب بن طريشة تولى زعامة طليطلة " ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث" (١٢) .

وكانت ثعلبة قائداً خبيثاً واسع الحيلة. فبدأ عبد الرحمن يحاول اقناعه بالدخول فى الطاعة. فرد رداً خشناً. ولم يجد عبد الرحمن الناصر إلا اللجوء إلى القوة. فأرسل فى سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م جيشاً يقوده الوزير "سعيد بن المنذر" فحاصر طليطلة ولحق به عبد الرحمن نفسه فعسكر قرب حصن "مروة" على بعد ٣٠ كيلومتر من طليطلة. ومن هناك أنذر ثائرا من أنصار ثعلبة يدعى "مطرف بن عبد الرحمن حبيب" وهناك ترك الحامية وعاد إلى قرطبة بعد أن استسلم له أصحاب حصنى "الأفين وقنالش" وبدأ حصار طليطلة فاستعان أهلها بملك ليون المدعو "راميدو الثانى" الذى تطلق عليه المراجع العربية اسم "اذمير" وحاول ذلك الملك مساعدة طليطلة فلم يستطع، واشتد الحصار حولها حتى عاد عبد الرحمن مرة أخرى على رأس جيش كبير فى رجب ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م فى يوليو. وعندما ضرب فساطيطه حولها أرسل إليه أهلها يطلبون المؤن إذ كانت مؤنهم قد نفذت وعرضوا التسليم . وفى شعبن سنة ٣٢٠ هـ / أغسطس سنة ٩٣٢ م دخل عبد الرحمن الناصر القوطية ، وخضعت له كل بلاد طليطلة. وبهذه المناسبة أقيم أعذاراً (أى ختان الصبيان) عاماً احتفالا بهذه المناسبة . وكان الأعذار على نفقة الأمير شكراً لله(١٣).

وهكذا نرى كيف استطاع هذا الرجل الفذ عبد الرحمن بن محمد بعد اثنتى وثلاثين سنة من الجهد والكفاح اعادة الوحدة إلى بلاد الأندلس، ولم يصل إلى ذلك عن طريق القوة وحدها بل عن طريق ما كان يتمتع به من سمت قوى وروح عالية رفيعة . كذلك كان الناس ما كان ليستسلموا له إلا لأنهم كانوا يعلمون أنهم يستسلمون لرجل وفىّ، يعرف حقوقهم ويحترم كلمته معهم، ويعرفون أنه لا سبيل إلى الحياة معه إلا بالدخول فى طاعته والإستئمان له(١٤).

بقى بعد ذلك الثغر الأعلى للأندلس؛ وقد أشرنا إلى حال بنى قسى فى طليطلة ونواحيها. ونضيف إلى ذلك سرقسطة، كان قد استبد بها بيت التيجيين، وهم أسرة التيجبيين طال بها العهد فى الإستبداد بذلك الثغر ،أما " وشقة " فقد استبد بها بنو محمدالطويل . وكان جميعا عصبة واحدة يتحدون سويا على الإمارة القرطبية ، وإن كان الخلاف بينهم شديداً ثم أنهم كانوا جميعا يستعينون بملوك النصارى المجاورين لهم إذا دعت الضرورة إلى ذلك(١٥) .

فأما بنو قيس أصحاب تطيلة، فكان آخر الثائرين منهم على عبد الرحمن وضده، ما يدعى " محمد بن لب بن قسى "وقد قتل ذلك الرجل فى أول إمارة عبدالرحمن الثالث (الناصر) سنة ٣٠٣هـ / ٩١٦م . وتولى بعده أخوه "المطرف" وكانت له أخت تدعى "أراكة" تزوجت من ابن الفونسو الثالث ملك"أشتودياس ". وكان يسمى فرويل الثانى الذى سيتولى العرش فى ليون بعد " أردنيو الثانى " الذى سنتحدث عنه . إنما ذكرنا ذلك لنذلل على علاقات وصلة القرابة والمصاهرة بين أولئك الزعماء المسلمين ومن جاورهم من النصارى خاصة ملوكهم . وبعد مقتل محمد بن لب بن قسى اضطربت أمر طليطلة زمنا طويلاً، حتى استسلم أهلها للأمير عبد الرحمن سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤ م .

وكذلك دخلت وشقة وأصحابها من بنى محمد الطويل فى ولاء الأمير، وبقى أمر سرقسطة، ولكن قبل أن قصد إليها عبدالرحمن وجد الفرصة مناسبة للقضاء على "الفتح بن زنون" . الثائر فى حسن "إقليش" والذى كان يسيطر على كورة "شنترية". وقد توفى هذا الرجل فى سنة٣٠٢هـ /٩١٥ -٩١٦م . وحاول ابنه يحيى أن يسير فى طريق الثورة، حتى إذا كانت سنة ٣٢١هـ /٩٣٣م أرسل عبد الرحمن الناصر جيشاً بقيادة الوزير" عبد الحميد بن بسيل" . لكى يستنزل يحيى بن الفتح بن زنون ،فعرض التنازل وانضم إلى جيش الإمارة ،وصار فى قواد عبد الرحمن .أما أخوة مطرف الذى كان قد استبد بناحية " إيذة " لحق بأخيه ودخل فى طاعة الأمير . وقد حدث بعد ذلك أن وقع أسيراً

فى يد "شانشو جروسيه" صاحب" بنبلونة . وعاد إلى صفوف الأمير حتى استشهد فى موقعة "الخندق" التى سنتكلم عنها سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٥م . وكان عبد الرحمن قد أقامه حاكما على كورة وادى الحجارة (١٦) .

وفى سرقسطة حاول صاحبها "ابو يحيى محمد" الملقب بـ "الأنقر عبد الرحمن التيجى" الخروج على طاعة الناصر ثم عاد فدخل، وخلفه ابنه "هاشم التيجى" فأقامه عبد الرحمن عاملاً على سرقسطة نظرا لما لمس فيه من الإخلاص والكفاية ، ما يجعله يثق فيه . وقد طال حكم بيته فى سرقسطة حتى عرفوا ببنى هاشم. وفى سنة ٣١٨هـ/ ٩٣٠م توفى أبو يحيى محمد الأنقر، وتولى أمر سرقسطة "محمد بن هاشم" الذى تمرد على الأمير عبد الرحمن الناصر ، وإنضم إلى "راميرو الثانى" ملك ليون(١٧).

عبد الرحمن الثالث (الناصر) وعلاقته بملوك قشتالة وبنبلونة :

لكى نفهم علاقات عبد الرحمن الثالث (الناصر) مع ملوك أشتورياس وليون ونبرة وعاصمتها بنبلونة ، ينبغى أن نعود إلى الوراء قليلاً إلى أيام الأمراء محمد والمنذر وعبد الله. فقد عاصر هؤلاء الأمراء الثلاثة ملك من ملوك أشتورياس يسمى "الفونسو الثالث" وكان ملكاً نشيطاً يتطلع إلى توسيع رقعة ملكه فى اشتورياس والأغوار (أى الإغارة) منها على المناطق السهلية التى تقع وراء جبال الكنتبرية، والتى تقوم فيها بلاد كثيرة مثل "ليون وأشترقه وسمورة وسلمنقة. وغيرها من البلاد والحصون والواقعة بين حوضى "المنيو والدويرو" وكذلك ماوقع منها على نهيرات هذا الأخير، وأهمها نهر "تورمس" وعليه تقع سلمنقة. وقد تمكن ذلك الرجل (الملك) منتهزاً فرصة الحروب الأهلية التى شغلت أمراء قرطبة ،وخاصة فى منتصف إمارة الأمير محمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن الثالث (الناصر) فتمكن من أن يستولى على الأراضى الواقعة جنوب المنيو . ولم يكن ذلك بالأمر اليسير لأن الفونسو

الثالث ملك أشتورياس (اشتورس) الذى أشرنا إليه والذى كان يلقب بالفونسو الكبير Alfonso ElMagno نظراً لنشاطه الكبير فى توسيع نطاق مملكته أشتوريس وتمكنه من نقل عاصمتها إلى ليون جنوب الجبال الكنتمبرية . وتمكن كذلك من الامتداد فيما يعرف اليوم بشمال البرتغال . فاستولى على " أربورتو " التى ضمها إلى أملاكه الكونت " فيمارا نوربرت " وهو أحد أتباع الفونسو الثالث . وكذلك جعل الفونسو الثالث يشجع الخارجين على الإمارات القرطبية ،من أمثال مروان الجليقى وعندما طاردته قوات الإمارة القرطبية بقيادة " هاشم بن عبد العزيز"لجأ إلى ملك أشتوريس". وهكذا نجد أن الحدود الشمالية لإمارة قرطبة كانت محفوفة بالمخاطر(١٨).

عبد الرحمن الثالث والمغرب :

قامت الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م ،وكانت لها مطامع واسعة فى المغربين الأوسط والأقصى ، وخاصة بعد أن تمكن عبدالله المهدى من إزالة الدولة الرستمية التى كانت تحكم جزء كبير من المغرب الأوسط . وكانت دولة الأدارسة فى فاس قد دخلت فى دور الضعف ، وإحتاجت إلى سند وتطلع أمراؤها إلى قرطبة فى حين بدأ الخليفة الفاطمى من القيروان يشن حملاته الواسعة البعيدة المدى على المغربين الأوسط والأقصى مستعينا فى ذلك على زعماء من البربر الصنهجيين من أمثال زيرى بن مناد الصنهاجى وقريبه حبوس بن محسن وابنه مصالة بن حبوس .وقداستطاع هذا الأخير أن يدخل فاس ويجعلها من توابع القيروان ؛ وأقام عليها رجلا من أوليائه يسمى "موسى بن أبى العافية " فقام بإخراج بقية الأدارسة من فاس ونفاهم إلى حصن صغير جنوبى "حجر النسر " فى قلب بلاد الريف.وهنا ينتهى الدورالأول فى تاريخ دولة الأدارسة، ويبدأ الدور الثانى .وكان لابد لعبد الرحمن الناصر من أن يعمل شيئا لحماية حدوده الجنوبية من تهديدات الفاطميين. وكان عبد الرحمن الناصر (الثالث) وما تبعه من خلفاء الأمويين

فى الأندلس ، يرون أن العبيديين الذين أقاموا خلافة القيروان مدعين للنسب الشريف ،غير جديرين بولاية الأمر . وأن مذهبهم الشيعى الإسماعيلى خارج عن الإسلام الصحيح .

وقد إتبع عبد الرحمن الناصر سياسة ذكية فى مواجهة الخطر الفاطمى . فقد كان يعرف أنه إذا دخل فى صراع طويل مع الفاطميين فى المغرب الأقصى، أضعف بذلك جبهته الشمالية أمام النصارى .وكان لابد له مع ذلك أن يقوم بأمر يوقف التهديدات الفاطمية فاتجه إلى دولة الأدارسة يمدها بالمال والسلاح ،وكان على رأسها آنذك " يحيى بن إدريس بن عمر" الذى تزعم الأدارسة ومكن لهم من أن يتغلبوا على موسى بن أبى العافية ومصالة بن حبوس . وبعد صراع طويل نجد أن عبد الرحمن الناصر يكتفى باحتلال طنجة وسبتة سنة فى ٩٣١ م . ومن هذين الحصنين الكبيرين استطاع أن يمد أعوانه فى المغرب بما هم فى حاجة إليه فى العتاد والأموال ليثبتوا أمام الضغط الشيعى .ولم يفعل عبد الرحمن الثالث أكثر من ذلك فى سياسته تجاه شمال أفريقية أو بلاد المغرب . وربما لجأ إلى معاونة الخارجين على الفاطميين من غير الأدارسة من أمثال : بنى خزر اليقرنيين . ولم يقع عبد الرحمن فى الخطأ الذى سيقع فيه ابنه الحكم - كم سنعرف بعد- عندما ألقى بخيرة قواده وجنده مع المغرب ، فأضعف بذلك جبهته الشمالية فى صراعه مع الفرنج ،ولم يخرج فى نهاية الأمر بنتيجة حاسمة(١٩) .

على أن شيئاً هنا يجب أن نذكره فى علاقة إمارة قرطبة الأموية بالدولة الفاطمية فى المغرب ،وهو أن عدم القيام من قبل عبد الرحمن الثالث (الناصر) بحملات أوحروب مع الفاطميين فى المغرب يرجع إلى أن الأمير الأموى كان على دراية ومعرفة بتوجهات الفاطميين فى المغرب ، والتى كانت تتمثل فى نظرة الفاطميين تجاه الشرق (بغداد) مقر الخلافة العباسية وليس من اهتماماتها ، تيمم شطر الأندلس . وذلك لأنه كان لدى الفاطميين أطماع فى

الخلافة الإسلامية ،وأنها كانت حريصة على إسقاط الخلافة العباسية . وكانت المغرب مجرد قاعدة تنطلق منها الحملات الفاطمية تجاه الشرق ،الأمر الذى جعل عبد الرحمن الناصر لا يفكر كثيرا فى رصد جيش أو حملة لمحاربة الفاطميين ، خاصة فى تلك الآونة التى لم تحقق فيها الدولة الفاطمية أهدافها ومراميها التى كانت تسعى من أجل تحقيقها وهى " خلافة المسلمين" وليس مجرد خلافة فى المنفى كما فعل عبد الرحمن الثالث (الناصر) من اعلان نفسه خليفة للأمويين فى الأندلس .

الخلافة الأموية فى قرطبة :

يمكننا القول هنا، أن عبد الرحمن الناصر اصبح بالفعل أكبر ملوك شبه الجزيرة الأندلس بعد تلك الإنجازات التى حققها فى تأمين حدود دولته شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، سواء بطريق القوة أو بطريق الدبلوماسية ، واطمأن الناس على أنفسهم فى أمارته وأذعنوا له بالولاء والطاعة ؛ فأعاد إلى دولته وحدتها وتمكن إلى جانب ذلك إقرار هيبة الخلافة القرطبية فى المغرب الأقصى ، مما جعله يتفرغ للقيام بإصلاحات وتغييرات وضعت الخلافة الأموية بالأندلس فى مصاف الدول القوية[٢٠] .

وفى أواخر سنة ٣١٦هـ/أوائل١٩٢٩م وجد عبد الرحمن الداخل أنه أولى بأن يتخذ لقب خليفة من عبد الله المهدى صاحب القيروان فى أفريقية . فأصدر بيانا أعلن فيه نفسه خليفة وتلقب بأمير المؤمنين ، كما اتخذ لقب الناصر لدين الله والمقصود هنا نصر المذهب السنى وذلك على نصارى الشمال وعلى العبديين الشيعيين . وقد احتفظت لنا النصوص بذلك الاعلان الذى بعث به عبد الرحمن الثالث إلى كافة نواحى الأندلس ؛ وقرئ على المنابر فى كل بلادها ، وأرسلت منه نسخ إلى افريقية والمغرب .وبذلك يكون عبد الرحمن الثالث (الناصر) يكون أول من أدخل تلك التغييرات الحاسمة على طبيعة الدولة الأموية بالأندلس ، فقد أصبحت الآن خلافة إسلامية عامة مساوية لخلافة

بنى العباس في بغداد ومتولية شئون الإسلام فى الجناح الغربى لدولة الإسلام من دون الفاطميين (٢١).

وقد استتبع ذلك إدخال بعض التعديلات الجديدة الأخرى في شكل خلافة قرطبة ونظامها . فوضع عبد الرحمن الثالث نظاماً إداريا يعطى دولته الهيبة والمكانة بين الدول. فازداد البلاط القرطبى ضخامة ووجاهة ، وكثر القواد فى جيش الخليفة، وتعددت مراتبهم ودرجاتهم وكثر الوزراء وازدادوا أهمية .وإن كنا نلاحظ أن عبد الرحمن الناصر كان كثيرا فى تنقلات الوزراء . ففى أول عام تقريبا لقيام الخلافة كان يجرى تنقلات بين الوزراء والقواد والعمال، وكان هدفه فى ذلك ألا تطول ولاية رجل في وظيفة أو ناحية فيستبد بالسلطة ، دون الخليفة.ولكن هذه السياسة أدت فى نهاية الأمر إلى إضعاف مكانة القواد والوزراء وإضعاف المركز الممتاز الذى كان يتمتع به أبناء البيوت الموازية الذين قدموا للإمارة . كما رأينا أجيالا متوالية من كبار الرجال فى شتى نواحى الحكم والإدارة والحرب (٢٢).

وبهذه المناسبة نقول أن عبد الرحمن الناصر كان يؤمن بالسلطان المطلق للخليفة . ولا يرى أن يدع الرأى لكبار رجال الدولة ولا يسمح بشئ من الإستقلال المحلى لولاة الأقاليم . وكان هدفه الأخير كما قال فى بعض رسائله التى كانت تذاع على المنابر : " أن الأمة ينبغى أن تتحول كلها إلى رعية مستأمنة ، أى مطيعة تأتمر بأمر الخليفة و لا يشاركه فى أمره أحد .

وقد ناقش عبد الرحمن الناصر آراءه تلك مع سفير من سفراء امبراطور التيتون، وقد بلاطه، وكان يسمى "يوحنا الجوزرينى" فقد قال له عبد الرحمن ما معناه، أنه معجب بالامبراطور التيتونى، "أوتو" ولا يأخذ عليه إلا أنه يتر جانبا من سلطانه لوزرائه وامراء الإقطاع، وذلك فى رأيه لا يتفق مع سلامة الدولة وهيبة السلطان. وبالفعل نرى أن عبد الرحمن الناصر كان حاكما

مطلقاً بالمعنى الدقيق للكلمة ، وخاصة بعد أن وفق إلى الإنتصارات الباهرة التى حققها داخل بلاده وخارجها . فقد تحول إلى سلطان عظيم ذى بلاط فخم وجاه واسع وأبهة بالغة ، وبينما رأينا أن جده عبد الرحمن الثانى(الأوسط) كان يتبسط مع وزراءه وشعرائه وندمائه ، حتى تجرى بينه وبينهم الدعابات. ولكن على العكس ، نجد عبد الرحمن الناصر سيداً رفيعاً عالياً يجلس لوزرائه فى مجلس فخم وبنظام تام ، ولا يأذن لأحد من الرعية الأصاغر فى الدخول عليه والحديث معه .

ولم يكن السبب فى ذلك ، أن عبد الرحمن الناصر كان بطبيعته طاغية، ورجلاً خشناً، بل على العكس من ذلك كان إنسانا شديد الحساسية بالغ الحياء. وقد رأينا أن أدبه الجم كان من أسباب وصوله إلى الإمارة - ولكنه قبل أن يلى الإمارة رأى من جرأة الوزراء والقواد والعمال ما هبط بجلال الإمارة وما جعل جده وسلفه "عبد الله بن محمد" أقرب إلى الرئيس منه إلى الأمير أو الخليفة(٢٣) .

وعندما تولى عبد الرحمن الناصر، ظن أن من واجبه أن يضع حدا لهذا التبسيط ، وأن يرفع مكانة الخلافة ، لأنه كان يرى أن ذلك من ضرورات السلطان القوى . ثم أننا رأينا كيف أن رجال النواحى عندما تمتعوا بسلطات محلية فى أقاليمهم أيام عبد الرحمن الأوسط وابنه الأمير محمد بن عبد الرحمن، أدى ذلك إلى طمعهم فى السلطان فأخذوا يستبدون بنواحيهم . وانتهى الأمر كما رأينا إلى الفتنة الكبرى التى اجتاحت الإمارة القوطية (الأموية) ثلاثين سنة فى أواخر أيام الأمير محمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر؟ .

لذلك نجد أن عبد الرحمن الناصر لا يسمح بأى وجه من وجوه الإستقلال لأهل النواحى ، ويصر على أن يرسل لهم العمال من عنده . ولا يزال ينقل أولئك العمال من مكان لمكان ، وقد أدى ذلك بالفعل إلى استتباب

الأمور وارتفاع هيبة الخلافة ولكنه أدى إلى غضب أفـراد البيـت الحـاكم أو البيوت الموازية التى ذكرناها . وقد رأينا أنه عندما عهد عبد الرحمن الناصـر فى كبار الولايات إلى مواليـه ، مـن أمثـال " بـدر بـن أحمـد " ، ونجـدة الحيرى،وغالب الناصرى، تآمر كبار القواد الأندلسيين عليه مما أدى إلـى كارثة "معركة الخندق"[٢٤].

وقد اتعظ عبد الرحمن الناصر بما حدث له فى ذلك اليوم. فعـاد مـرة أخرى يسترضى بيوت الحاكم أو الحكم وجعل لهم الرياسة على مواليه. واهـتم بأن يعيد إلى رجال تلك البيوتات ما كان لهم من سلطان وهيبة. ولكن سياسـته الأولى كانت قد أضعفت هذه البيوت ورجالها. وكذلك كانت سياسة عبد الرحمن حيال مواليه أجناد العرب فى نواحى مرسية وأشبيلية وفى الكـورة الجنوبيـة، قاضية على ما كان أصحاب الكور المجندة يرسلونه من جند عربى باسل قـادر على خوض غمار المعارك. وقد كان خسارة ولا شك فيها لأن عـرب الكـور المجندة رغم ميلهم إلى الفوضى واستخفافهم بالحكومة المركزية وعدوانهم على من يعيش معهم من أهل البلاد، كانوا جنودا بواسل فيهم تلك العصبية العربيـة التى نعرفها. فلما فقد هذا الجندى العربى مكانته، بل أعفـى أصـحاب الكـور المجندة من إرسال العشور وأداء ضريبة بدلاً منها تـسمى ضـريبة الحـشد نلاحظ إن الجيش الأموى الأندلسى فقد عنصراً هاماً من عنصر قوته[٢٥] .

ولكننا لا بد أن نضيف إلى أن عبد الرحمن الناصر رغم ميله هذا إلى الإستبداد لم يكن ظالماً ولا متهوراً . فلم يؤثر عنه أثناء خلافته الطويلة أنـه قتل وزيراً أو صادرمال إنسان أو تعدى على حقوق الرعية أو بالغ فى عقـاب موظف مسئ . بل كان فى ذلك كله رجلا كريماً سمحاً، لا يتدنى إلى عدوان أو إراقة دماء . ولايرضى بأن ينزل عقاباً شديدً بأحد من خصومه. ويكاد عبـد الرحمن الناصر يكون الوحيد من بين كبار خلفاء الإسلام الذين تـصرفوا فـى

الخلافة تصرفاً سليماً كريما يتفق مع أخلاقيات الإسلام ومكارم الأخلاق والأصول العربية الكريمة .

عبد الرحمن الناصر وإنشاء مدينة الزهراء :

عندما بلغ سلطان عبد الرحمن الناصر ذلك المبلغ وجد أن قصوره فى قرطبة لم تعد لائقة بالمركز العظيم الذى وصل إليه وكان سكان قرطبة قد كثروا فى أيامه وتقاطر إليها الناس حتى وصلت المبانى إلى " تل الرصافة " الذى كان يقوم عليه قصر الرصافة . ثم إن أسواق البلد ضاقت بمن فيها ولم يعد من الممكن لجيوش عبد الرحمن ومواكب السفراء التى ترد على قرطبة باستمرار، والسير فى شوارع المدينة دون مضايقة الناس .

لهذا فكر عبد الرحمن الناصر فى أن ينشئ لنفسه عاصمة ملوكية إلى جانب قرطبة، يتخذ فيها القصور لنفسه وأهل بيته وحشمه وخدمه وحرسه. فقصد مهندسوه إلى جبل "العروس" المطل على قرطبة من الناحية الجنوبية الغربية على بعد ستة كيلومترات من العاصمة ، وقدموا إليه مشروعاً مدينته المملوكية على سفح جبل (جبل العروس) . خاصة وأن مياه الأمطار تتجمع فى هضبة بأعلى هذا الجبل وتتسايل على السفح . فلو أنشئت قنوات مهندسة بنظام خاص لإمكانية إجراء (جريان) الماء من أعلى الجبل إلى السفح بنظام خاص، يمكن إقامة مدينة ملوكية على طبقات أو مستويات من ذلك، السفح. وتلك هى الفكرة التى قامت عليها "مدينة الزهراء". التى بدأ عبد الرحمن الثالث (الناصر) فى انشائها . ويقال أ،ها منسوبة إلى واحدة من نساء عبد الرحمن تسمى " الزهراء " ماتت عن مال كثير ، وأوصت الخليفة الناصر بأن ينفق هذا المال فى إفتكاك الأسرى المسلمين .فلم يجب عبدالرحمن الناصر أسرى يفديهم بهذا المال ، فقرر إنشاء هذه المدينة وأطلق عليها إسم" الزهراء " . وتلك فى الغالب حكاية من طرف ما يسوقه الرواة فى كتب التاريخ، وإن كان لها مغزى ومعنى.

وقد بدأ عبد الرحمن الناصر فى بناء الزهراء فى أول المحرم سنة ٣٢٥هـ /نوفمبر سنة ٩٣٦م وعهد فى الإشراف على بنائها إلى ابنه الحكم بن عبد الرحمن ووضعت خطتها على أن تكون مدينة ملكية قائمة بذاتها على بعد خمسة كيلو مترات شمال غربى قرطبة على سطح جبل العروس ، وقد بنيت على مدرجات بحيث يرقى من داخل المدينة من درجة إلى درجة ، وفى كل درجة يجد قسماً من أقسام المدينة ويدخل الإنسان إليها أسفل الجبل بعد مدخل يسمى " باب الإقباء " جمع قبو، ويراد به هنا القبة .ومعنى ذلك أن هذا المدخل كان تقوم فوقه وتحيط به قباب . ويسير الإنسان مسافة طويلة على طريق سبلط تقوم على جوانبه الأعمدة وغرف الحرس حتى يصل إلى باب السدة ويرادبه باب القصر،ويصعد درجات وإلى جانب المصعد المدرج مصعداًآخر للخيل وبلا درج ، فيصل الإنسان إلى المستوى الثانى من مستويات مدينة الزهراء . وهنا مساكن الجند والحرس أصحاب الحرف الذين تحتاج إليهم المدينة، وهنا أيضا وجدنا آثار المسجد الجامع لمدينة الزهراء .وكل هذه البيوت محاطة بالأشجار والخضرة .

فإذا انتهى الإنسان من ذلك المستوى صعد مرة أخرى حتى يصل إلى سطح منبسط سوق لتبنى عليه قصور كبار رجال القصر وموظفيه ولتقيم فيه جماعات الحرس الخاص بالخليفة؛ وما يلزم لهؤلاء جميعاً من الجماعات والمساجد[٢٦] .

وبعد ذلك يصعد الإنسان مرة ثالثة حتى يصل إلى المستوى لمدينة الزهراء ، ومواجهة لأول صعوده البهو الكبير . الذى أنشأه الناصر لإستقبال السفراء والملوك الأجانب ، وهو بهو ضخم فخم يتكون من ثلاثة أقواس من طراز عصر الخلافة ، ويفضى الإنسان من المدخل إلى قاعة فسيحة مقسمة طوليا إلى ثلاثة من البهو. فأما البهو الأوسط فينتهى فى الصدر بمجلس الناصر ، هناك يجلس الخليفة على عرشه تحيط به مقاعد أفراد أسرته المالكة أو أفراد

الأسرة المالكة بحسب مراتبهم ؛ على الجانبين مقاعد الوزراء وكبار رجال الدولة والضيوف مرتبة ترتيباً محكماً بحيث يكون لكل رجل من رجال الدولة مقعده الذى لا يتغير حتى إذا كان الناصر وتبين خلو أحد المقاعد عرف من المتغيب . أما البهوان الداخليان فيستعملان لموظفى القصر وكتاب الخليفة . وهذا المجلس الجميل يبدو للرائى من بعيد عندما يرنو الإنسان من مدينة الزهراء . ومن الواضح أن عبد الرحمن الناصر أراده على هذه الصورة لكى يستطيع فى مجلسه أن يرى السفراء والملوك وهم مقبلون من بعيد ثم صاعدون إلى القصر . وقد كشف عن آثار هذه المدينة الملكية. وبدأ فى إعادة إقامة بعض منشآتها وخاصة بهو الإستقبال وقد جلبت مادة البناء من شتى نواحى الأندلس وأوروبا وأفريقية .ويذكر المؤرخ ابن عذارى وهو من أهل القرن الثامن الهجرى أنه كان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ٦ آلاف صخرة سوى التبليط فى الأسس (أى الأسس) وجلب إليها الرخام من قرطاجنة وأفريقية ومن تونس . وكان الأبناء الذين جلبوه هم: عبد الله بن يونس وحسن القرطبى، وعلى بن جعفر الاسكندرانى[٢٧] .

وأمام بهو الاستقبال وضع حوض للسباحة من الرخام ، حفر له فى الأرض وهو منقوش ومزين بالتماثيل . وقد جلبه ربيع الأسقف من القسطنطينية . وكان عليه كما يقول ابن عذارى ١٦تمثالا من الذهب الأحمرمرصع بالدر النفيس الغالى مما صنع بدار الصناعة بقرطبة . وغذا كنا قد أطلنا فى وصف المدينة فإنما أردنا توضيح الصورة التى كانت عليها الأندلس خاصة الجانب الاقتصادى. إذ أن المدينة هذه تؤكد على رخاء الأندلس وارتقاء الفنون فيها .

وكان الناصر قد قسّم الجباية إلى ثلاثة أقسام . قسم للجند وقسم للبناء ، والقسم الثالث للادخار. وكانت جباية الأندلس آنذاك ٥,٤٨٠ مليون ديناراً من الكور والقرى ومن المستخلص والأسواق ٧٦٥ ألف دينار .

وفى عهد عبد الرحمن الناصر بلغت قرطبة أقصى ازدهار لها فقيل أن عدد دورها بلغ ١١٣ ألف دار؛ فإذا قدرنا لكل دار عشرة سكان على الأقل، كان المجموع مليون ومائة وثلاثين ألف. وهذا رقم مستبعد لأن الأحوال فى العصور الوسطى، لم يكن يسمح لقيام مدينة بهذا الحجم. ولكننا نستنتج منه بصورة عامة فكرة عن اتساع المدينة وازدهارها. ومما يدل على كثرة سكانها ما يقال أن عدد الحمامات بها بلغ ٣٠٠ حمام وهو رقم يدل على ضخامة تلك المدينة .

ولا نستطيع أن نجارى المؤرخين فيما يذكرونه من أرقام عن اتساع مساحة قرطبة فى عصر الناصر وابنه الحكم المستنصر ، مثل قولهم أن عدد مساجدها بلغ ٣٠٠٠ مسجداً، وهو رقم لايمكن تصديقه إلا إذا افترضنا أن معظم هذه المساجد كانت مساجد خاصة. أى أن كل صاحب بيت كان ينشئ فى بيته مسجدا له ولأهله. وقد أشار إلى ذلك ابن حوقل الرحّال .

وبهذه المناسبة لابد أن نشير إلى الزيادة الثالثة التى أمر عبد الرحمن الناصر بإضافتها إلى مسجد قرطبة الجامع . فأزيل جدار القبلة ونقل إلى قرب ضفة النهر ، وهناك بنى سور يفصل المسجد عن الشارع المبلط بين النهر وسور المسجد ويسمى بالرصيف، وكان متنزه أهل قرطبة[٢٨] .

أما زيادة عبد الرحمن الناصر فى المسجد الجامع فقد بلغ بها إلى أقصى ما وصل إليه من رقى وجمال . وقد بنيت على نفس طراز بقية المساجد، أى أن أقواسه بها مزدوجة ومداميك الأقواس من الحجر الأبيض والطوب الأحمر . وأجمل ما فى هذه الزيادة هى البلاطة المؤدية إلى بلاطة المحراب وقد قامت على عمد وأقواس مزدوجة ترتفع فوقها قبة تلقوم على عصبات من الحجر. وعند دراسة بناء هذه القبة تيقن المهندسون أن المعماريين الذين أنشأوها ، وعلى رأسهم العريف (المهندس) أحمد بن بدر قد

وضعوا الأساس للطراز الذى شاع فى أوربا بعد ذلك، وعرف بالطرز القوطى. وأكبر خصائص الأعمدة والعقود المدببة التى تقوم عليها القباب .

ومحراب هذه الزيادة آية من آيات الفن الأندلسى لأنه ليس مجرد حنية فى جدار المحراب وإنما هو غرفة من الرخام سقفها قطعة واحدة من الرخام على هيئة محارة . وكان فى وسط هذا المحراب الصغير كرسى يوضع عليه المصحف العثمانى ومنه يقرأ القارئ قبل الصلوات الجامعة (٢٩) .

وقد أنشأ عبد الرحمن الناصر صومعة المسجد الجامع ، أى مئذنته وهى مئذنة فى غاية الفخامة والضخامة والجمال ، لأنها بناء يقوم فى النهاية الشمالية لصحن المسجد المكشوف ، وكانت ترتفع فى الجو ثمانين متراً ، ولها موقفان للأذان . ويزين شبه سقف صغير مزين بتفافيح، أى كرات ، اثنتان منها من الذهب وواحدة من الفضة .

كذلك أقام الناصر ما يعرف بالظلة فى صحن المسجد الجامع وهى عبارة عن سقف متحرك يقام من أعمدة من الخشب والحصر ليستظل بها الناس أثناء الصلاة فى الصيف . ثم ترفع بعد الصلاة لأن صحن الجامع الفسيح كان مزينا بأشجار النارنج ، وهى ظاهرة تنفرد بها مساجد الأندلس عن غيرها من صحون المساجد فى العالم الإسلامى . وأكثر الناصر أيضاً من بناء المساجد وتعميرها فى شتى نواحى الأندلس . ويعتبر عبد الرحمن الناصر من أكثر حكام المسلمين منشآت فى مختلف نواحى بلاده . فإليه يرجع الفضل فى تجديد أو إنشاء عدد كبير فى مساجد مدن الأندلس ومنشآته إلى جنوبه . ولا نزاع فى أن ذلك الرجل يعبر من كبار البنائين فى تاريخ الإسلام. ولم تقتصر منشآته على المساجد والقصور بل إليه يرجع الفضل فى بناء وتجديد عدد من القناطر ، فهو الذى قام ببناء قنطرة الوادى فى "أودية" وتجديد قنطرة سرقسطة وقنطرة ماردة وغيرها .

عبد الرحمن الناصر وحكم التاريخ :

بعد هذا العرض التاريخى عن حياة ذلك الخليفة العظيم الذى يعتبر من أعظم الخلفاء المسلمين فى كل العصور نقول أن عبد الرحمن الناصر هذا تميز بخصائص وصفات تؤهله إلى المجد العظيم الذى بلغه . فقد ذكرنا تعففه عن الدماء وبُعده عن المساس بأحد من رجاله أو مصادرة أمواله. وقد كان يكتفى فى ذلك المجال بأن يقدم إليه الحجاب هدايا ذات قيمة كبيرة تضم الأموال والخيل والسلاح فى المناسبات ؛ وقد اشتهر بما كان ينفقه فى الحروب والجهاد والمنشآت والعناية بالمرافق .

ولكنه لم يلجأ قط إلى الحصول على مال من أحد بالقوة أو العنف ، بل يحكى المؤرخون حكاية تدل على عظيم شعوره بمسئوليته عن أرواح وأموال وعفته عنها . فلا غرابة والحال هذه ، أن يصل عبد الرحمن الناصر إلى هذه المكانة التى وصل إليها فى تاريخ الإسلام. فهذا الرجل تولى الأمر فى الثانية والعشرين من عمره ، والبلاد مشتعلة نارا، ونواحيها خارجة عن الحكومة المركزية فى قرطبة . فقد أفسد أمرها الثوار وخاصة عمر بن حفصون وأمثاله من : ابن الشاليه والسرمباقى وعبد الرحمن بن الجليقى، وغيرهم من كبارثوارالمولدين ؛ بالإضافة إلى ثورات العرب على حكومة قرطبة، وخاصة من ناحية المرية وكورة أشبيلية . فما زال ذلك يعمل بجد ودأب مستعيناً فى عمله بالسرعة والحزم ، وكذلك بالخلق الكريم . فقد ضرب للثائرين المثل فى عمله فى حسن الخلق واحترام الكلمة ؛ فما كان يستنزل ثائراً إلا وفىّ له بوعده وعهده وصدقه فأحس الثوار بأنهم أمام حاكم من طراز فريد ، فاطمئنوا إليه ودخلوا فى طاعته . وبعد عشر سنوات من ولاية الناصر نجده قد استطاع أن يعيد الهدوء والأمن والنظام والوحدة إلى دولته الواسعة ، وخاصة فى الجنوب والشرق والغرب . ثم تمكن من جذب واستئلاف رجال الثغر الأعلى من أمثال بنى قسى وبنى هاشم الطويل ، فإستأمنوا إليه هم الآخرون

ودخلوا فى طاعته. وهكذا تمكن هذا الخليفة من الإستفادة من ملوك أهل الثغر، وكانوا فرسانا أشداء. ويكفى أن نذكر هاشماً الطويل وقد بلـــغ فـــى إخلاصـــه للناصر، بعد أن استأمن إليه أنه استشهد فى سبيله فى موقعة الخندق .

وعندما تولى الناصركان ملوك النصرانية قد طمعوا فى ثغور الأندلس الشمالية، فما زال يقاتلهم كما رأينا ويوالى الحملات عليهم حتـــى إنتهـــت أيـــام أردنيو الثانى، ودخل خلفه (ابناؤه) فى حلف الناصر وأطاعوه. وقد رأينا كيـــف أن ملوك أسبانيا النصرانية جميعاً قد أصبحوا إما من أتباعه أو أحلافه. وبذلك استطاع عبد الرحمن الناصر أن ينشر على شبه جزيرة أيبريا (الأندلس) كله أمناً واستقراراً لم يعرفه من قبل .

وفى أواخر حكم عبد الرحمن الناصر، بلغ من ازدهـــار بـــلاده وتـــألق أضواء قرطبة، أن وفد السفراء عليه من شتى بلاد أوربا. ومن ملـــوك أوربـــا الذين أرسلوا السفارات إلى الناصر الملك "أوتـــو" امبراطـــور الأمبراطوريـــة الجرمانية المقدسة. ويسميه المؤرخون "هوتو" ملك الصقالبة. فقد أرســـل إليـــه سفارة استقبلها الناصر فى البهو الكبير فى مدينـــة الزهـــراء، وبعـــث إليـــه " هيوكابيه" ملك الفرنجة فى فرنسا ، ويسميه مؤرخونا " هوفو" ملـــك الفرنجـــة. وغيرهم كثير مثل ملك إيطاليا وملك توسكانيا، وكونت برشلونة. وبابا رومـــا الذى أرسل إليه يخطب وده ، وألمانيا وكل دول أوربا.حتى أن راهبة المانيـــة عندما زارت قرطبة، ذكرت أنها درة الدنيا [٣٠].

ولا شك فى أن طول عصر عبد الرحمن الناصر أعانه على تحقيق هذه العظائم التى قام بها ، فإن طول العمر يبلغ الآمال . فقد عاش الناصـــر حتـــى أهلك أعداؤه ، وإنفسح أمامه السبيل لكى يقوم بأعماله كلها فى إعـــادة الأمـــن والنظام، إلى تثبيت الحدود ، إلى تنظيم الإدارة وكل الإصـــلاحات والإنـــشاءات التى عرضنا لها سالفاً فى هدوء وثقة بالنفس ، وبلغ بذلك أقصى ما بلغه حاكم

مسلم فى العصور الوسطى . ولقد قدر المؤرخون المحـــدثون عبـــد الـــرحمن الناصر أعظم تقدير ، فقد قال فيه "دوزى " المستشرق " أنه أقرب إلى حكـــام العصر الحديث منه إلى ملوك أوربا الوســـطى ، أو العـــصور الوســـطى " . وقال ليفى بروفنسال : " إن عبد الرحمن الناصر يعتبر دون شك مـــن أعظـــم ملوك أوربا كلها فى كل العصور" . وأشار إليه أرنولد تونبى المؤرخ واتخـــذه مثالا يحتذى به للحاكم المستنير الذى يتخطى عصره بملكاته ومواهبه وأخلاقه وفهمه الدقيق لمسئولية الحاكم وقدرته على القيام بمسئولياته جميعاً.

وتوفى عبد الرحمن الناصر فى الثانى من رمضان سنة ٣٥٠هـــ /١٥ أكتوبر ٩٦١ م بعد أن قام بكل ما ذكرناه من أعمال عظيمـــة بالأنـــدلس إلـــى أزهرى عصورها . ودفن فى رياض قصر قرطبة حيث توجد مـــدافن أمـــراء البيت الأموى الأندلسى وخلفائه ، ليقوم على الخلافة منم بعده ابنه الحكـــم بـــن عبد الرحمن الذى تلقب بالمستنصر [٣١] .

خلافة الحكم بن عبد الرحمن المستنصر :-

تولى الحَكم بن عبد الرحمن الناصر (الملقب بالمستنصر) فى الثالـــث من رمضان (سنة ٣٥٠هـــ / ٢ صفر ٣٦٦هـــ / ١٦ أكتـــوبر ٩٦١- ٣٠ سبتمبر ٩٧٦م) .وكان كبير أبناء عبد الرحمن الثالث (الناصر) ، وكان خيـــر خلف لخير سلف، ذلك أننا نستطيع القول أن حكمه كان مكملا لحكم أبيه عبـــد الرحمن الثالث (الناصر) فإذا كان الناصر رجـــل حكـــم وسياســـة وحـــروب وعمارة فقد كان ابنه الحكم (المستنصر) رجل علم وحضارة. ولم يكن الحكـــم مجرد حاكم يعطف على العلماء ويرعى العلوم ، بل كان هـــو نفـــسه عالمـــاً مشاركاً فى علوم عصره. فقد كان الحكم (المستنصر) متقنا للعلوم الإســـلامية حتى سمع الحديث منه الشيوخ وأجاز لهم مروياته وأجاز مرويـــاتهم . وكانـــت أبوابه مفتحة لطبة العلم ولا يرد منهم أحداً . وأنشأ فى القصر مكتبة لا نبالغ إذا

قلنا أنها أعظم مكتبة أنشأتها دولة إسلامية فى العصور الوسطى اللهم ربما مكتبة بغداد التى أنشأها أبوجعفر المنصور . فإن لم تكن تتفوق عليها فهى على الأقل كانت تضاهيها . لقد قام الحكم ببناءً خاصاً ، ووضع فيها أناس متخصصون فى علم المكتبات ، قاموا على الفهرسة والتسجيل والتنظيم . وكانت فهارستها تقع فى ٤٤ كراسة لا تضم إلا العناوين فهى أشبه إلى حد كبير بمدونات الجامعات اليوم الخاصة بطلبة الدراسات العليا – ماجستير ودكتوراه-. وقد قدر المؤرخون كتبها بما يقرب من نصف مليون مجلداً . وأنشئ لها مصنع خاص بالتجليد . وعمل فيها عشرات النساخين . وكان للحكم (المستنصر) مراسلوه الذين يوافونه بالكتب الجديدة لأول ظهور لها. وكان ينفق على ذلك المال الكثير . وهناك كتب شرقية كثيرة كان الحكم بن عبد الرحمن الناصر أول من قرأها ، لأنه عندما كان يسمع بأن مؤلفاً جديداً يكتب كتاباً كان يرسل إليه مالاً لتكون له النسخة الأولى ، ومن أمثلة ذلك كتاب "الأغانى" لأبى انفرج الأصفهانى . فقد أرسل إليه المستنصر ألف دينار ليرسل إليه أول نسخة من الكتاب ففعل أبوالفرج [٣٢].

وقد انتقد الحكم المستنصر بسبب هذا الإسراف فى الإنصراف إلى العلم على نحو ما أسلفنا ، فإن ذلك صرفه عن القيام بمطالب الحكم كما ينبغى ، وهناك وجه من الحق فى هذا الحكم . فلو أن المستنصر اكتفى بتشجيع العلم دون الإشتغال به لما وجه إليه هذا الانتقاد ولما وجد أمثال بن أبى عامر سبيلاً إلى السلطان .

والطريف فى الأمر أن الحكم (المستنصر) كان يقرأ الكثير من هذه الكتب ، ويستدرك على مؤلفيها بخط يده . وقد عثرنا بالفعل على كتب عليها خط الحكم (المستنصر) وملاحظاته ؛ وكان العلماء بعد المستنصر يعتبرون هذه الملاحظات أصولاً تعتمد . ولم يقتصر الحكم على علوم العرب ، بل عنى بكل العلوم ، وتحت اشرافه نقلت بعض المؤلفات الأجنبية إلى العربية قام بها

: قاسم بن الصبغ البياني وحفص بن البر لكتاب "كتاب التاريخ " " لهورشيوش " من اللاتينية وترجموا له " ديوستوريدس" فى الطب من اليونانية . وكان يرسل الناس إلى شتى البلاد – ما يعرف اليوم بالبعثات الخارجية – ويطلب إليهم أن يكتبوا دراسات عما زاروه من الأقطار، ويحتفظ بهذه الدراسات فى مكتبته. ومن أمثلة ذلك رحل " ابراهيم الطرطوشى " الإسرائيلى فى بلاد أوربا . ورحلات " محمد بن يوسف الوراق " فى أفريقية؛ وقد كثرت المكتبات فى الأندلس فى أيام الحكم،وأصبحت صناعة النسخ من الصناعات الزاهرة . وقد اشتغل فيها النساء فى البيوت بصفة خاصة واشتهرت الكثيرات منهن بجودة الخط ودقة النسخ حتى طلبت منسوخاتهن بالإسم . وكانت نسخ القرآن التى تكتبها الإندلسيات مضرب المثل فى الدقة والجمال .وتنافس الناس فى اقتناء الكتب حتى أصبحت تشترى لإستكمال مظهرالرقى والترف. فكانت المكتبة جزءاً من مركز الرجل الاجتماعى المتحضر (٣٣) .

ونتيجة لذلك نهضت صناعة الورق نهضة كبرى واشتهرت بلاد أندلسية بورقها الجيد مثل بلنسية وطرطوشة وشاطبة. وكان الورق الشاطبى مشهورا فى العالم الإسلامى كله.وبلغ من جودته أن بعض الوثائقيين كانوا لايكتبون الوثائق إلا عليه . وإلى جانب جودة نوعه اشتهر برخص ثمنه . وقد عرف عرب الأندلس صنفى الورق اللذين عرفا فى العصور الوسطى وهما : الكاغد وهو ورق عادى ، والرق وهو ما يعرف البرشمان ، وهو ورق متين سميك يقارب القماش فى متانته مع الاحتفاظ بصلابة الورق . وقد وصلت الرقاق الشاطبية إلى كافة نواحى أوربا وطلبتها البابوية لكتابة الإنجيل ووثائق الكنيسة عليها، ثم قاد الإيطاليون صناعتها بعد ذلك .

ولم تتفرد صناعة الورق وحدها بالتقدم ، بل تقدمت كذلك كل أدوات الكتابة من حبر وأقلام وشمع للأختام وسكاكين لقطع الأقلام وما إلى ذلك .

وقد نبغ الأندلسيون فى صناعة الأحبار وعرفوا المعدنى والنباتى والمطبوخ وغير ذلك مثل البسيط والمركب منها . وعرفوا أقلام الغاب ويسمونه الأنبوب وريش الطيور، بل صنع بعضهم أقلام حبر، أى أقلاما تملأ بالحبر وتصنع فى هيئة محكمة بحيث يحملها صاحبها معه ويكتب بها متى شاء .وتفننوا فى صنع المحابر من الزجاج والبلور والرخام، وكانوا يزخرفون المحابر ويكتبون عليها اسم صاحبها بالحبر مع بعض الشعر أحياناً . واشتهروا بمحابر محكمة الصنع تعمل على هيئة المخجر فى قرابة لتوضع فى حزام الثوب أقلامها وأنواع غيار التجفيف(٣٤) .

ونشأت فى قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس أسواق الرقاقين إلى جانب أسواق الوراقين . فأما الورّاق فهو تاجر الكتاب أى المحفوظات فى ذلك العصر . وكان المفروض من الوراق أن يكون عالماً بالكتب وأقدارها وخطوطها بحيث يستطيع تلبة احتياجات عملائه . وفى العادة نجد الوراق من أهل الأدب لكثرة مزاولته النظر فى الكتب.

أما الرقاق فهو تاجر الأدوات الكتابية أو مايسمى بالإنجليزيةStationary.

وفى بعض البلاد العربية يسمى الدكان بالقرطاسية أى التى تبيع القراطيس والأقلام والأحبار والكراسات .

سياسة الحكم (المستنصر) :

ومع كل ما تقدم من اهتمام الحكم (المستنصر) بالعلم والعلوم ، فإنه لم ينشغل عن متابعة أمور مملكته . وقد حاول ملوك النصرانية أن ينتهزوا فرصة انشغاله بالعلوم فبدأوا بالإغارة على أطراف البلاد ، فنهض الحكم (المستنصر) بالغزو ابتداءاً من سنة ٣٥٢ هـ/ ٩٦٣م وأوغل فى أرض ليون ونبرة واستولى على قلاع كثيرة من قلاعها ، وأرغم هاتين المملكتين وغيرهما من الإمارة النصرانية على العودة إلى التسليم بسيادة قرطبة .

وابتداء من سنة ٣٥٥هـ / ٩٦٦م ، بدأت سفارات هذه الممالك تتوافدعلى قرطبة . وقد وصف لنا ابن حيان مؤرخ الإندلس استقبال هذه السفارات فى الزهراء والمراسم التى كانت تتبع فى هذه الاستقبالات، وكلها تنطق بما وصلت إليه قرطبة من السيادة فى شبه الجزيرة كلها ، ثم تتابعت السفارات من كل من أمبراطور بيزنطة "يوحنا زيمسكس (الدمشقى) Tsimiskes سنة ٣٦١ هـ / ٩٧٢ م "وكذلك أوتو الثانى امبراطور المانيا الذى خلف آتو الأول ، لطلب الود والمصادقة مع قرطبة .

حروب الحكم (المستنصر) فى المغرب :

لقد ظهر فى أيام الحكم بن عبد الرحمن الناصر آمر قائده الكبير "غالب الناصرى" الذى يلقب بفارس الأندلس. وهو أول نموذج من الجند الصقلبى الذى وصل إلى مراتب القيادة العليا التى كانت قبل ذلك وقفاً على ابناء البيوت الموازية التى زكرناها. وكان غالبا الناصرى فى شبابه قائداً ماهراً موهوب الجانب لاتجرؤ إمارة نصرانية على تحدى قواته. وكان مقامه الدائم فى مدينة سالم ، وكانت وظيفته الرئيسية قيادة جيش الثغور .أى الجيش المرابط على الحدود الشمالية . وقد كان فى العادة جيشاً ضخماً معداً أحسن إعداد ومدرباً أحسن تدريب . وكان الجانب الأكبر والرئيس من الجيش يقيم فى مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط .وكانت هناك فرق اضافية فى الحصون الكثيرة التى أنشأها الأمراء على الحدود الشمالية وأهمها مجريط (أى مدريد الحالية) وقلعة هنارس أو قلعة عبد السلام ،ووادى الحجارة وسفونشة وأنيشة، وقلعة النسور وسوريا وأوسيما وجرماز وناجرة.وكلها فى حصون الدويرو والإبرو الأعلين ، وهى تقع على سفوح جبال الشارات أو جبال وادى الرمل ، التى كانت تعتبر الحد الطبيعى لبلاد الأندلس . ومن هذه الحصون والقلاع عمل المسلمون على سيادة كل حوض الدويرو ؛ وكانت هذه المناطق خلاء

تقريبا. ولهذا سهل على قوات مملكة ليون من ناحية ونبرة من ناحية أخرى التقدم فيها وغزو بلاد المسلمين إذا وجدوا غرة منهم [٣٥].

وإلى آخر أيام الحكم بن عبدالرحمن (المستنصر) ظلت سيادة وسيطرة القوات العسكرية الإسلامية قائمة على مناطق الحدود ، بفضل ما كانت تلك القوات الإسلامية تتمتع به من قوة وحسن استعداد .

وكان المستنصر حريصاً أشد الحرص على أن تكون تلك الحصون فى أحسن حالات المنعة والإستعداد، وكان يشحنها دائماً بالمؤن والأسلحة، حتى أن بعض هذه الحصون كانت أشبه بمدن كاملة ، فيها مخازن للطعام وأهوار القمح وصهاريج المياه ومرابط الخيل. ولا زال الكثير باقياً حتى اليوم يشهد على عظمة تاريخ وحضارة الأندلس الإسلامية .

وكان للخلافة جيش آخر إلى جانب ذلك الجيش يقيم فى مدينة الزهراء، يسمى جيش الحضرة. وكانت قيادة جيش الحضرة خاصة بالخليفة - مايعرف اليوم فى مصر بالحرس الجمهورى - ويولى الخليفة من ينوب عنه ممن يريد من قواده. فإذا خرج الخليفة للغزو جمع قيادتى جيش الثغور وجيش الحضرة[٣٦].

وإذا جاء وقت النفير (الحرب) أعلن الخليفة عزمه للخروج وأمر بالإستعداد ، فتبدأ عملية واسعة النطاق تسمى " البروز" فتتوافد قوات الكورالمجندة وتنزل بسهل واسع شمال قرطبة وقصر الرصافة يسمى " فحص السرادق " ثم يخرجون سرادق الأمير ويجعلونه وسط الفحص . وتضرب فرق الجنود خيامها وتقبل قوات المتطوعة . وكانت فى العادة ألوف من الناس الذين يخرجون للجهاد فى سبيل الله تعالى . وتستمرمدة البروز شهراً، ثم يخرج الخليفة بجنده الصقلبى وحرسه وفرق الكور المجندة والمتطوعة، وينتقل من حصن إلى حصن حتى يصل إلى الحدود فينضم له

جيش الثغور. وهنا تبدأ الصائفة، أى العملية العسكرية الصيفية ومدتها شـــهران من الغزو فى أرض العدو(٣٧) .

ولكن الموضوع الذى شغل الحكم أكثرمن غيره ، كان أمر الفاطميين فى المغرب ، وقد بالغ الحكم بن عبد الرحمن الناصر فى الإهتمام بذلك. إما لأنه رأى فى محاربة الفاطميين جهداً ، أو لأن نـــصحائه صـــوروا لـــه الخطـــر الفاطمى على صورة أكبر مما ينبغى. والحقيقة أن شعور الحكـــم المستنـــصر الدينى وتضلعه فى الفقه السنى وحماسه لمذهب(مالك) كل هذه الأمور جعلتـــه ينظر إلى الفاطميين ودعوتهم الاسماعيلية على أنهم أعـــداء . فقـــرر الحكـــم المستنصر ضرورة محاربة الفاطميين خاصة بعد أن صور له وزراؤه صورة قاتمة تجاه الفاطميين .

على أية حال رأى الحكم المستنصر الفرصة مواتية لمحاربة الفاطميين خاصة عندما نهضت دولة الأدارسة على يد الحسن بن قنون ودخلت دولـــتهم فى طورها الثانى؛ لأن بقية منهم – أى من الأدارسة – فى أفريقية ، كانت قد اعتصمت فى قلعة "حجر النسر" جنوبى تطوان وقد تولى أمرهم أيام الحكـــم ، القاسم بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالسن بن قنون . وكان أميراً صغيراً يعتز بتأييد جماعات الصنهاجيين معظمهم من قبائل غمارة . وكان الحس بن قنون يعرف ضعف مركزه وعجزه عن مواجهة هـــذا ، ليرضـــى الحكم المستنصر فى بلاد الأندلس، إذ كان يريد الإخلاص لبيتـــه ولا شـــئ غير ذلك. وقد طال الأمر بالحكم المستنصر وهو يرسل القوات وينفق الأموال حتى لقد إستدعى قائده الأعلى غالب بن عبد الرحمن الناصرى الملقب بفـــارس الإندلس من الثغور الشمالية وأرسله إلى المغرب . وأنفق الحكم المستنـــصر فى ذلك مالاً كثيراً. ولم ينتهى الأمر بعد فى هذا الشأن إلى نتيجة مرجوة. وقـــد أسف الحكم فى أخريات أيامه على ما أنفقه من مال وما ضحى به من أنفس فى هذا الصدد، مما أدى إلى ضعف ثغوره الشمالية، وكانت أولى بعنايتـــه وأحـــق

بالمراقبة الدائمة خاصة لو كان يعلم- أى المستنصر- أن وجهة الفاطميين ميممة نحو المشرق وليس بلاد الأندلس . إذ كانت المغرب تمثل قاعدة لانطلاق الفاطميين على الخلافة العباسية فى بغداد والإحلال مكانها . إذ كان هدفها القضاء على الخلافة العباسية .

وعموماً، وبعد هذا العرض التاريخي لفترة حكم (المستنصر) فى بلاد الأندلس، لايساورنا شك فى أن حكم الحاكم بن عبد الرحمن يختلف عن سياسة أبيه تجاه أفريقية. فإذا كان أبيه عبد الرحمن الناصر كان يعرف دائماً الحد الذى يقف عنده فى كل ميدان ، وأنه كان بالنسبة للمغرب يكتفى أو أكتفى بالإستيلاء على سبته وطنجة ومليلة واعتبرها أجزاء من بلاده وجعلها قواعد تحمى سواحله الجنوبية . وعن طريق هذه القواعد كسب تأييد الكثير من القبائل الزناتية التى كانت تناوئ الحكم الفاطمى . وقد كان الناصر يرسل الهدايا الفاخرة إلى رؤساء القبائل ويستقبل من يفد منهم على الأندلس استقبالا عظيماً ، ويفتح أبواب العمل فى جيشه للمرتزقة ما أهل المغرب الذين كانوايفيدون عليه فى جماعات كبيرة.وكان هذا كافيا ليضمن له السيادة على ساحل المغرب المواجه لدولته فى بلاد الأندلس .أما ابنه (الحكم المستنصر) فقد تطلع إلى فتح بلاد المغرب الأقصى الشمالى وأنفق جهدا ومالاً كبيرين ، ولم يجن من وراء ذلك إلا ضعف جانب المسلمين فى ثغور دولتهم الشمالية .

على أن الحكم المستنصر، كرّس جهده فى أيامه الأخيرة بالعناية بالعلوم والفنون والأداب . فنظم التدريس فى المسجد الجامع حتى أصبح هذا المسجد ، وكأنه جامعة حقيقية تدرس فيها العلوم، واحتلت حلقات الدرس أكثر من نصف المسجد . وأخرج الحكم الأموال للشيوخ والأساتذة حتى يتفرغوا للتدريس والتأليف . وخصص أموالا جزيلة للطلاب ؛ فأعطيت المكافآت والمعونات للمحتاجين منهم وأسند الحكم المستنصر إدارة المكتبة الأميرية إلى أخيه عبد العزيز وكلف أخاه المنذر بالإشراف على شئون جامعة قُرطبة ، ورفع نفراً

من العلماء إلى مراتب تشبه الأستاذية اليوم من أمثال :" أبى بكر بن معاوية القرشى"أستاذ الحديث ، " وأبى بكر بن القوطية " والعلماء مثل : "رينيمندو الألبيرى " اسقف النصارى المسمى بـ " ربيع بن زيد" وكان متمكناً فى الآداب العربية واللاتينية فكان يمثل كبير المترجمين .

وفى أوائل سنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٦م دبت الشيخوخة فى جسم الحكم المستنصر، وضعفت أوصاله، ومع أن سنه كانت فى الرابعة والستين، إلا أن علامات الضعف والوهن تزايدت عليه. فدعا الناس إلى بيعة ابنه هشام ، وكان لايزال طفلاً. وقد تمت هذه البيعة رغم مخالفتها للشرع . ولكن الحكم المستنصر كان شديد التعلق بولده عظيم الرغبة فى أن يستمر الملك فى نسله. وقد انتقده الناس بسبب ذلك . وحمل عليه" ابن حيان " مؤرخ الإندلس ، لأن البيعة تمت بتدبير " صبح اليشكنسية " أم هشام وزوجة الحكم المستنصر الأثيرة على نفسه كانت جارية بشكنسية غاية فى الجمال شديدة الذكاء والطموح ، وكانت تملك قلب الحكم المستنصر ، فاستغلت الفرصة عندما شعرت بدنو أجل الخليفة وطلبت منه ذلك. إذ كانت تخشى أن يصير العرش بعد الحكم إلى أحد أخوته لأن ابنها كان طفلاً . ولهذا فقد إتصلت سراً بنفر من كبار رجال الدولة مثل أبى جعفر المصحفى الحاجب، ويساعده محمد بن أبى عامر لكى تضمن تأييدهما لها إذا مات الحكم . وكان محمد بن أبى عامر إذ ذاك شاباً يافعاً متطلعاً ، ذو هيئة شديد الذكاء : وقد وصل فى أواخر أيام الحكم بن عبد الرحمن الثالث إلى أن أصبح صاحب السكة والمواريث ،أى المشرف على دار سك العملة وعلى الأوقاف، وتهيأت له بذلك أموالا كثيرة تمكن بها من ضمان العرش لهشام الصغير (بن الخليفة)[٣٨] .

وفى عهد الحكم يجب أن ننوه على المسجد الجامع وقد اكتمل فى عهده بعد أن قام بتوسيعه. وتعتبر تلك الزيادة الثانية تتويجاً لأعمال الناصر (أبيه) فى الناحية الحضارية التى كانت قد شغلت الحَكم المستنصر أكثر من أى شئ آخر .

مصير الأندلس تحت رحمة الأوصياء على الخليفة :

عندما مات الحكم المستنصر فى صفر سنة ٣٦٦هـ / أكتوبر سنة ٩٧٦م ظهرت بادرة تنبئ بما سيتعرض له الأندلس من المتاعب والفوضى فيما بعد، فإن الحكم أوصى بالعرش لابنه الطفل (هشام)؛ وكان عند موته هنالك رجال وقواد على صلة قوية بالخليفة ولهم من النفوذ ما يجعلهم يتطلعون إلى السلطان بعد موت الخليفة . وعلى الرغم أن الخليفة كان يستفيد من خدمات هؤلاء و يخضعهم لسلطانه ، إلا أن الأمر يختلف تماماً عندما يكون الخليفة طفلاً وتحت وصاية أمه ، فالوصاية تفتح الباب للوزراء والطامعين(٣٩).

وعمماً، تولى هشام بن الحكم (الطفل) عرش الأندلس تحت وصاية أمه فى (صفر٣٦٦- ١٧جمادى الأول ٣٩٩هـ/ أكتوبر ٩٧٦- ١٦ فبراير ١٠٠٩م). وقد بادر الفتيان "فائق وجوذر" كبيرا الصقالبة بكتمان وفاة الحكم؛ وقررا استدعاء المغيرة بن عبد الرحمن، وهو عم ولى العهد "هشام بن الحكم" لكى يسند إليه الخلافة؛ ولكن سوء الحظ أراد لهما أن يستشيرا فى الأمر "جعفر بن عثمان المصحفى" حاجب الخليفة المتوفى (الحكم) أى رئيس وزراءه وكان أبوه فى أول أمره مؤدباً للحكم فنشأ صديقاً للخليفة، ثم وصل إلى السلطان عن طريق هذه الصداقة الحميمة مع الحكم، ولكنه كان سياسياً سيئا أنانياً عهد فى الكثير من وظائف الدولة لأبنائه وأقاربه. وكان كذلك غير أمين على الأموال فصوّر له خياله أنه إذا دافع عن خلافة هشام أصبح هو الوصى وأصبحت الدولة فى يده .

ولهذا فبدلاً من أن يكتم الأمر ، تظاهر بالإقتناع برأى الصقالبة ثم ذهب فاستدعى أنصاره ، وأولهم محمدبن أبى عامر صاحب الشرطة والمواريث وأفضى إليهم بما يدبر الصقالبة ودعاهم إلى تأييد هشام واتفقوا على قتل المغيرة وتولى قتلها محمد بن أبى عامر . فكانت تلك الجناية الشنعاء نذير شؤم على جعفر المصحفى وأصحابه وعلى الأندلس.

وعلى أثر ذلك بويع الصبى هشام بن الحكم فى يوم الأثنين ٣ صفر ٣٦٦هـ/ أول أكتوبر ٩٧٦م ، وأقبل الناس يبايعونه. ويقال أنه لم يعترض على هذه البيعة أحد،وإن كنا نؤمن أن المصحفى وصاحبه محمد بن أبى عامر قاما بعملية تدليس وإرهاب لكى يخلص السلطان لهما . وقد فرحت بهذا " صبح " الملقبة بالبشكنسية . وكانت فى الحقيقة نافارية (أى من نافار) وهى أم هشام الطفل وولى العهد وكانت – كما ذكرنا – أقرب الناس إلى قلب الحكم ، امرأة طموحة إلى السلطان تتدخل فى كل شئ . وكان جعفر المصحفى ومحمد بن أبى عامر يخدمانها ويمكنان لأنفسهما إلى السلطان بالتقرب إليها .

وكان من الواضح أن التنافس واقع بين الرجلين لا محالة لأن كل منهما يتحين الفرصة لنفسه، وبدأ النزاع فعلاً؛ فاستعان محمد بن أبى عامر بـ "صبح" أم هشام، على عريمه، فلم يلبث أن رقى وزيراً، ثم أصبح حاجاً أى رئيس وزراء .

وما إن وصل إلى هذه الوظيفة حتى غدر بصاحبه القديم فأسقطه من الوزارة، وألزمه داره، ثم بدأ تحقيقاً معه فيما ضيّع هو وأهله من الأموال، وأمر بسجنه فسجن سجناً طويلاً، ثم أمربقتله، وهكذا دفع المصحفى ثمن جريمته فى قتل أمير برئ دون أى جريمة تستحق القتل(٤٠) .

وعقب ذلك انقلب بن عامر على الصقالبة، فعزل رؤسائهم ثم أخرج معظمهم من القصر، وتواطأ مع القادة وصاحب المدينة وقائد الجند. وبالفعل لم تمر سنة حتى وصل ذلك الرجل إلى السلطان فى الدولة، ثم حجر على هشام الصبى ، فلم يسمح لأحد برؤياه ،وأقنع أمه " صبح" بأنه يفعل ذلك محافظة على سلامة الخليفة الصغير من المتآمرين والراغبين فى القضاء عليه .

والواقع أن الخطر الحقيقى على العرش لم يكن إلا ابن أبى عامر هذا، فقد نشأ هذا الرجل متآمراً خبيثاً أنانياً. وأسرته ترجع إلى أصل يمنى ، ويقال

أنه من أصل برتغالى ، وكان أبوه فقيها ذا مكانة ، وتعلم فى بلـده ثـم فـى قرطبة ليصبح فقيها مثل أبيه . ولكنه كان طموحاً إلـى المناصـب ، مـؤهلاً للعمل فى السياسة ، وقد حكيت أساطير عن أصـله وبدايـة نـشأته وطريقـة وصوله إلى السلطان. ولكن الحقيقة أن خالاً له كان من كبـار رجـال الإدارة والقصر، فسعى له حتى أقامه على خطة المواريث فى أشبيلية. وبفضل خالـه أيضا – وكان صهره – نقل إلى نفس الوظيفة فى قرطبة ثم رشح للنظـر فـى أملاك الأمير هشام قبل أن يلى الحكم. وهنا كانت مهارة ابن أبى عـامر الـذى توصل عن طريق الطفل بالأم "صبح" وجعلها ترى أن باستطاعة ابن أبى عامر تأييد حق ابنها فى وراثة العرش . فكانت البداية لفتح الباب أمام هذا المتآمر للوصول إلى السلطان[٤١] .

المهم أن محمد بن أبى عامر هذا سار فى طريق سـيء لا ينظـر إلا لصالحه ومصلحته فقط ، ويضحى فى سبيل ذلك بكل شئ . فهو لا يكاد يصل إلى هدف مستعينا بحلفاء أو أنصار ، حتى يتخلى عن أنصاره أو حلفائه ، بل يغدر بهم دون رحمة أو ضمير . وقد لمس ميل الحكم – الخليفة المتـوفى – الشديد إلى أن يخلفه ابنه فتقرب منه وكسب ثقته؛ ثم ندبه فى بعض المهام فى المغرب – أى المهام العسكرية – وهناك بدأ بن أبى عامر يكسب ولاء القـادة والفرسان، وأغدق عليهم من أموال الدولة دون حساب، لأن هذه الأموال كـان المفروض أن تعطى لرؤساء البربر ، فاستخدمها هو فى مصالحه الشخصية .

وعندما وصل ابن أبى عامر إلى هذه الدرجة من السلطان وجـه جـل اهتمامه إلى أن يمسك بيده زمام الجيش . وكان يتولاه القائد المشهور بـ (فارس الأندلس) غالب بن عبد الرحمن الناصرى صاحب الإنتصارات العظيمة : وقد سعى ابن أبى عامر إلى الزواج من ابنه غالب الناصرى ، وتزوجها ، وأوسـع نفسه بذلك لأن يكون القائد الكبير .

لا شك أن زواج ابن أبى عامر من ابنه غالب الناصرى قد أوجد قلقاً فى نفس "صبح البشكنسية" فأصبحت ترى بوضوح أن هذا الرجل سائر فى طريق يختلف عن الطريق الذى كانت تريده هى أن يسير فيه. وبدأ صرع خفى بين ابن أبى عامر وهذه الأم الوصية، التى كانت سبب وصوله إلى السلطان. ولكن "صبحاً" هذه لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً وحدها، خاصة وقد ذهب أمر الصقالبة فى القصر، وكانت تستطيع أن تستعين بهم، لو أنها لم تعن محمد بن أبى عامر عليهم من قبل(٤٢) .

وفى هذه الأثناء كان بن أبى عامر تمكن من قلب غالب الناصرى ، خاصة وقد استصدر له مرسوماً يعطيه لقب ذى الرياستين (أى الوزارتين) . ولم ينس بن أبى عامر نفسه فى أثناء ذلك فجعل نفسه قائد جيش الحضرة ، فى حين اقتصر غالب على قيادة جيش الثغر (٤٣).

وبجيش الحضرة هذا ، بدأ بن أبى عامر يقوم بغزوات فى الشمال فقام بغزوة موفقة فى غرب أراضى ليون سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م وتنحى له غالب حاسباً أنه خليفة فعلاً . وفى العام التالى قام بحملة أخرى عاد بعدها محملاً بالغنائم والسبى ، فازداد صيته وأحبه الجند وتحدث به الناس .ولابد أن نذكرهنا أن غالب الناصرى كان قد طعن فى السن ومال إلى الراحة والقعود .

وبعد أن وصل محمد بن أبى عامر هذه الدرجة العالية الرفيعة تطلع إلى انشاء جيش خاص من المرتزقة، وكان ذلك أسوأ أعماله فاستقدم الألوف من البربر وأدخلهم فى خدمته. ولم يلبث أن أصبح له منهم جيش ضخم يخشى بأسه. وقد نفر الأندلسيون وقدماء المحاربين من ذلك الجيش البربرى الغريب على البلاد نفوراً شديداً وكرههم أهل قرطبة دالتهم العظيمة على صاحب السلطان . ولكن ذلك كله لا يهم بن أبى عامر ، بل ظن أنه يستفيد منه . فقد كان نفور الأندلسيين من جنده البربرى يحول دون اتحاد عناصر الجيش القديم

ضده.ويجعل البربر يشعرون أن مستقبلهم معتمد عليه . أما نفورالنـــاس مـــن البربر فكان كفيلاً أن يجعل البربر أكثر تماسكاً به وتأييدا لسلطانه.

وفى أثناء ذلك أخذ بن أبى عامر يطارد كل الظاهرين من بنـــى أميـــة الذين يخشى منافستهم، فاضطهد هذا البيت الجليل اضطهادا شديداً وقتل الكثيرين من رجاله، وهرب منهم نفر وسكن الباقون خوفاً منه(٤٤) .

ولم يبق بعد ذلك إلا غالب الناصرى. وقد تنبه هذا الرجل إلى خديعـــة بن أبى عامر إياه، وبدأ صراع عنيف بين الرجلين انتهى بقتل غالب الناصرى. ولذلك خلا الجو تماماً لابن أبى عامر فأصبح بهذه الأساليب الدنيئة والـــشريرة سيد الأندلس دون منازع يحكمه بالإرهاب والقوة والعنف والجريمة مما كان له أسوأ الأثر على البلاد فيما بعد(٤٥).

ومن غريب هذا الرجل ودلائل مكره الشريرة أنه كان يحـــرص دائمـــا على الوقيعة بين جيشه البربرى الجديد والجيش الأندلسى القديم غير مبال بمـــا قد يؤدى إليه ذلك من نتائج فإن جيش الأندلس القديم كان يقـــوم علـــى تقاليـــد عسكرية جليلة ، وضعها قادة عظماء ذكرنا بعضهم مثل : عبد الكريم بن عبـــد الواحد بن مغيث وأبى العباس أحمد بن محمد؛ وكان هذا الجيش مرتباً عى نحو منظم يضمن رجاله التدريب والخبرة. وكان ضباط ذلك الجيش يعرفون بالعرفاء والمفرد عريف ، وكان العريـــف يـــدرب تـــدريبا طـــويلاً أثنـــاء الخدمـــة العسكرية.وكان العرفاء من أبناءالبيوت الكريمة ومن أبناء رجال الجيش .فقـــد كانت العادة أن يخلف المحارب ابنه الأكبر ، أو أحد ابنائه فى وظيفته . فكان للجيش الأندلسى بذلك نظام وترتيب . وكان يعتبر درع الأندلس.

وقد حرص بن أبى عامر أن يحط من أمر أولئك الجنود البواســـل وأن يظهر فى كل مناسبة أن جنده الجديد أمهـــر وأقـــدر مـــنهم ،فـــامتلأت قلـــوب المحاربين حقداً عليه وعلى جنده المرتزقة . وهكذا أصبح العداء شديداً بين

جيشى الدولة . وظهر بوضوح أنه إذا اختفى محمد بن عامر من الميدان وقعت الحرب الأهلية بين الجيشين [٤٦] .

وقد نشأت عن ذلك كراهية شديدة بين الأندلسيين عامة وأولئك البربر الجدد على وجه الخصوص. ولذلك سنرى أن تلك الكراهية كانت من أسباب سقوط دولة بنى أمية بالأندلس .

لقد كان محمد بن أبى عامر على يقين بما يضمر الناس من كراهية وضغينة ضده، وكان الناس يرون فيه الغاصب المتآمر ، الماكر، الذى وصل إلى السلطان بالخديعة والأساليب الملتوية مثل علاقته بـ " صبح " أم هشام. وكنت هذه العلاقة موضع سخرية وتعليق كثير من جانب وقبل الأندلسيين . وهذا فقد اتجه تغطية ذلك كله بأعمال تبهر العقول وتجذب إليه قلوب الناس . وفى تلك العصور لم يكن هناك ما يجذب القلب مثل الجهاد والغزوات . فبدأ بسلسلة طويلة من الغزوات الموفقة فى كل بلاد أسبانيا النصرانية. وقد تناسى الشعب الأندلسى فعلاً أعمال بن أبى عامر السيئة .

لقد قام محمد بن أبى عامر باثنتين وخمسين غزوة خلال نحو ٢٤سنة . ولكن حدود دولة الإسلام ظلت على ما هو عليه . ولو أن محمد بن أبى عامر استطاع أن يرفع حدود الإسلام فى الشمال الغربى إلى الشمال الدويرو بصفة نهائية خلال كل غزواته لكان ذلك أحسن بكثير من هذه الغزولت المتوالية التى أضعفت بلاد النصارى ، ولكنها لم تغير منها شئ .

ولو أن خليفة محمد بن أبى عامر كان رجلاً قويا قادرا مثله فربما كان يمكن أن يكون لهذه الغزوات نتيجة كبيرة ، ولكنه أصر على أن يخلفه ابنه " عبد الملك " وكان طائشاً جاهلاً كثير المفاسد فلا يعمر إلا سبع سنوات ثم كان الطوفان بعد ذلك [٤٧] .

وقد كسب محمد بن أبى عامر فى أواسط ٣٧١ هـ/ ٨٧١ م نصراً كبيرا فى قوات مملكتى ليون ونبرة وكونتيه قشتالة. وعندما عاد إلى قرطبة لتخذ لقب الحاجب المنصور وأمر بالدعاء لنفسه على المنابر ونقش لسمه على السكة وإتخذ هيئة الملوك وأخذ الوزراء وكبار رجال الدولة بتقبيل يده عند المثول بين يديه . أى أنه صار فى الحقيقة ملكاً لبلاد الأندلس الإسلامية يحكم باسم خليفة محجور عليه فى قصور الزهراء . وأحاط الزهراء بسور وخندق حتى لا يدخل عليه أحد إلا بإذن .

وقد رأى محمد بن أبى عامر أن يتخذ لنفسه أيضاً مدينة ملوكية فاختار مكاناً شرقياً بقرطبة وبنى فيها قصورا سماها "الزهراء أو العامرية" وجعل الوزراء ورجال الدولة ينشئون قصورا حول داره. وقد نفر الأندلسيون من ذلك كله نفوراً شديداً. خاصة وأن محمد ابن أبى عامر كان لا يتورع فى ارتكاب أى جريمة فى سبيل الوصول إلى غايته. ومن ذلك أنه كان قد استقدم "جعفر بن على" الزعيم الزناتى مع رجاله إلى الأندلس ليضرب ابن غالب الناصرى، وأعطاه لقب الوزارة والقيادة . ولما انتصر على غالب جعل رجاله يغتالون جعفر بن على، على أسوأ صورة سنة ٣٧٢هـ/٩٨٢ .

ومن أكبر غزوات المنصور قيامه فى صيف ٣٧٤هـ/١٩٨٥م بحملة واسعة على اقليم قطلونية ودخوله برشلونه التى كانت قد سقطت فى أيدى قوات الفرنجة سنة ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، ثم تحولت بعد ذلك إلى كونتيه قطلونية ، فافتتحها المنصور فى صيف ذلك العام، ودمرتها جنوده . وبدلا من أن يضمها إلى بلاد المسلمين ويعمرها بهم ويشحنها بالجند نراه ينصرف عنها دون أن يترك بها حامية أو جنداً ؛ فكأنه لم يقصد إلا التدمير وإنزال الضربات العنيفة التى تحدث دوياً ، ولكنها لم تصل بعد إلى تحقيق هدف واضح دائم بعد ذلك(٤٨).

ونظر المنصور بعد ذلك فى أمر المغرب . وكان الحسن بن قنون زعيم الأدارسة فى افريقية ، قد صالح الفاطميين ودخل فى طاعتهم ودعا لهم فى قلعة النسر شمال المغرب الأقصى واعتز بتأييد " بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى " عدو الزناتيين وهم أنصار المنصور ، فسارع بارسال جيش قوى سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٥ م وأردفه بجيش آخر ، فحاط قلعة النسر واستنزل الحسن بن قنون على الأمان ، وطلب الرجل أن يذهب إلى قرطبة مستأمناً .

ولو أنه طلب ذلك إلى عبد الرحمن الناصر أو ابنه الحكم المستنصر من قبل لأجيب إلى الأمان. ولكن المنصور تظاهر بالموافقة ثم أمر بقتله وهو فى الطريق إلى قرطبة فى جمادى الأولى سنة ٣٧٥ هـ/ أواخر سنة ٩٨٥ م . وبذلك ارتكب المنصور غدراً جديدا شنيعاً . وقد تطير الناس من هذا الحادث وقال أهل قرطبة أن المنصور (محمد بن أبى عامر) لن ينجو من عقاب الله جزاءاً له على هذه الجريمة الشنيعة الذى ارتكبها فى حق حفيد النبى صلى الله عليه وسلم . وقد استمر نشاط المنصور فى المغرب . ولكن مقتل الحسن بن قنون وتشرد الباقين من أفراد بنيه يعتبر النهاية الحقيقية للدور الثانى لدولة الأدارسة ، فلم نعد نسمع عنهم بعد ذلك خاصة وقد عهد المنصور فى حكم المغرب الأقصى إلى "زيرى بن عطية الزناتى " وكان خصم الصنهاجيين والفاطميين العنيد . فلم يلبث هذا الزعيم الزناتى أن أصبح السيد الأعلى للمغرب الأقصى . ولما كان صديقا للمنصور حليفاً للبيت الأموى ، فقد تركه المنصور على ذلك مطمئنا. إلا أن الخطر الفاطمى على الأندلس قد زال نهائيا؛ وكان ذلك سنة ٣٧٩هـ / ٩٨٩ م .

وقبل ذلك بعام كان المنصور قد قام بغزوة موفقة على مملكة ليون، واحتل العاصمة نفسها وخربها، فهرب ملكها "برمودو الثانى" إلى "سمورة" فطارده المنصور إليها واستولى عليها وخربها . وعلى أثر ذلك دخل ملك ليون فى طاعة المنصور وأدى إليه الجزية ، وكذلك فعل كل ملوك الشمال

والشمال الغربى لأسبانيا النصرانية ، فأصبحت كلها تؤدى الإتاوات للمنصور فيما عدا الطرف الشمالى الغربى من جليقية (٤٩) .

وكان من أشد ما غير قلوب الأندلسيين على المنصور غدره بـ " عبد الرحمن بن مطرف التيجى ، صاحب سرقسطة، وممثل بنى هاشم التيجيين . وهذا الرجل قد مات غدرا فى نهاية صفر سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩م . وعلى أثر ذلك قام ابنه عبد الملك ، إذ اتهم أبيه بالتدبير عليه . وكان هذا الشاب الطائش قد حاول الاستعانة بعبد الرحمن بن مطرف التيجى، وبـ " جروسيه فرناند" كونت قشتالة لينتقم من أبيه لأنه كان يفضل عليه أخاه الأصغر . وقد عاقب المنصور بعد ذلك كونت قشتالة على مساندته لأبنه ، وما زال يحاربه حتى أخذه أسيراً إلى قرطبة ؛ ولكنه مات متأثرا بجراحه فى الطريق وخلفه ابنه " سانشو" فأصبح من أتباع المنصور الذين يؤدون إليه الجزية .

وفى سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م، اتخذ المنصور لنفسه لقب ملك وأصدر أمره بأن يخطب على المنابر باسم "الملك المنصور الكريم". ومن الواضح أن المنصور كان يتجه أن يجعل نفسه خليفة ويقيم بيته مكان بيت بنى أمية. ولكن الظروف كلها كانت لاتعينه على إدراك هذا المطلب، لأن الناس فى الأندلس كانوا جميعا غير مستعدين لقبول هذا التغيير، وعلى الرغم من القوة الكبرى التى وصل إليها هذا الرجل إلا أن الأندلسيين ما كانوا ليوقروه لأنه فى نظرهم لم يكن ليخرج عن طامح ذكى. استطاع الوصول إلى ما يريد باستغلال الفرص التى تسنح له . وكان هو يشعر بذلك ويتحامى الأندلسيين بألسنتهم الطويلة .

والحقيقة أن المنصور كان رجلا فى غاية الذكاءوالقوة وكانت مواهبه للحكم عظيمة تعينه على ذلك؛ كان لا يتورع عن الجريمة فى سبيل الوصول إلى ما يريد. والمسلمون بطبعهم لا ينفرون من شئ قد نفورهم من الجرائم والخداع وانعدام الضمير. نعم أن عبدالرحمن بن معاوية ارتكب بعض الجرائم،

ولكن الذين كانوا قبله ارتكبو أبشع منها، فكان هو فى نظر الناس مخلصاً لهم من شر الصمويل يوسف الفهرى ثم أن جرائم عبد الرحمن الداخل لم تتناول الناس كلهم ، بل طائفة معينةوالخصوم السياسيين ، وفيما عدا ذلك ذان رجلا مأموناً وشريفاً . أما محمد بن أبى عامر، الملقب بـ "المنصور" فلم يكن للشرف عنده قيمة، وكان أهل الأندلس جميعا يتحدثون عن سوء أفعاله.

وربما كان من الممكن أن يتغاضى الناس عن جرائم المنصور لو أنه كان وريث بيت ملك وسيادة .ولا ننسى أننا فى العصور الوسطى أيام كان الناس يؤمنون بأن هناك بيوتا عريقة ذات حسب ، ولها حق فى أن تصل إلى الملك. أما بقية الناس فلا حق لهم فى الوصول إلى العرش .

وقد كان من أكبرما أعان عبد الرحمن الأول(الداخل) على إقامة دولة أنه كان سليل بنى أمية، وحفيد خليفة هو "هشام بن عبد الملك" ثم أنه قرشى، من ذلك القبيل العربى العريق الذى يمثل الصدارة فى عالم الشرف والسؤدد. أما المنصور "محمد بن أبى عامر" فكان رجلاً عادياً من سلائل اليمنيين ، ولم يكن المسلمون فى أى قطر مستعدون للتسليم بسيادة يمنى أيا كان ، حتى لقد وضعوا حديثاً يقول: "لن تقوم الساعة حتى يقوم رجل من بنى قحطان ويسوق الناس بعصاه". وهم يريدون بذلك أن الساعة لن تقوم حتى يصل الحكم إلى أسوأ مستوى. وكان محمد بن أبى عامر (المنصور) من معافر، وهى من صغيرات قبائل اليمن. ثم أن أباه كان فقيها عاديا معروفا للكثير من أهل قرطبة، وشيوخها ، ومثل هذا الصلب لايخرج فى رأيهم بيتاً ملكياً .

على أننا هنا يجب أن نذكر أن أكثر ما أضر بالمنصور "محمد بن أبى عامر" ثلاثة أمور : أولها : أنه أقام ملكه على جند مرتزقة من البربر ، أجانب غرباء عن البلاد ، على النقيض تماماً بالجند الأندلسى العربى العريق القائم على التدريب وأصول الجندية. وإن دل هذا على شئ إنما يدل على أن للرجل

غدرات كانت لا تؤمن أبدا . كذلك إن دل هذا على شئ إنما يدل أيضاعلى عدم الثقة بين المنصور والجند النظاميين لأنه كان فى نظرهم مغتصباً للعرش(٥٠).

ثانياً : أن محمد بن أبى عامر (المنصور) لجأ إلى رفع أبناء الأسر الكريمة. والطامحين من صغار الفقهاء إلى وظائف القضاة وأقامهم عمالاً على النواحي. ولم يتورع أولئك الناس عن طلب المال معتمدين على وظائفهم فأصبحوا من أغنى أهل النواحي. وتكونت حولهم حواشي من أمثالهم. ومن أمثلة هؤلاء، بنو جاد فى أشبيلية، وبنو بعيش فى طليطلة، أما الهاشميون من أفراد البيوت الكبيرة فمن أمثالهم: أبو مروان بن عبد الملك بن شهيد، سليل أسرة بنى شهيد، فقد كان شاعراً ممتازاً وعبقرية فكرية. ولكنه كان رجلا منحل الأخلاق لا يسمو إلى مراتب بنى شهيد العظماء. وقد جعله محمد بن أبى عامر "المنصور "نديمه وشاعره وصاحبه. وكذلك يحيى الملقب بسماحة بن عبد الرحمن بن مطرف التيجى، سيد الثغر الأعلى الذى قتله المنصور، فقد كان يحيى هذا من سخفاء الولاه، وعلى يده بيوت (بيت) بنى هاشم التيجى من بيت جليل من بيوت الحكم إلى بيت الطامعين فى السلطان والجاه وبأى الوسائل والطرق.

واستعان محمد بن أبى عامر كذلك بنفر من البربرالنازلين فى بعض النواحى ، مثل "بنى الأفطس " الذين كانوا يقيمون فى بطليوس وبنى "ذى النون"وكان موطنهم فى شنتبرية فى جنوب غربى طليطلة .

كذلك اصطنع ابن أبى عامر صقالبة جددا اشتراهم لحسابه لكى يكونوا من جنده وحرسه ورجاله .

ومن هؤلاء جميعا تكون ما يعرف بالحزب العامرى، ومعهم رجاله أمثال، محمد بن أبى عامر؛ أى أنهم أنانيون ماديون لايفكرون لا يفكرون فى جماعة ولا صالح الإسلام أو العروبة . بل كان همّ الواحد منهم أن يصبح منصوراصغيراً فى ناحيته أو فى حدود سلطته.

وهؤلاء الناس الذين تربوا فى مدرسة المنصور هذه ، هم الذين سيقضون على وحدة الأندلس بتمسكهم بالسلطان فى نواحيهم وحرص الواحد منهم على أن يكون أميراً بأى ثمن . أولئك هم الذين سيذكرهم التاريخ بالإسم المشئوم" ملوك الطوائف" (٥١) .

وإذا أضفنا إلى هذا العامل الذى أساء إلى هذا الرجل العامرى (المنصور) الذى اغتصب عرش الأمويين ما هو أسوأ منه والممثل فى: انعدام المفهوم الأخلاقى عنده تماماً ، ومثل هذا الرجل يخافه الناس ولا يحبونه ، ويحذرونه ولايقبلون منه شيئاً لأنهم لا يعروفون ما يخبئه لهم . ولهذا ، وعلى الرغم مما وصل إليه المنصور من قوة وسلطان، فإن أنصاره أنفسهم كانوا يكرهونه فى نفوسهم لأنهم كانوا يخافونه على أنفسهم ذلك أنه كان مستعدا لأن يطيح برأس أى واحد منهم لأتفه الأسباب وأقلها قيمة مجرد أن يساوره الشك فى تصرفات أياً منهم .

وكان المنصور كثير التجسس على الناس ، بل كان يهدى الناس الجوارى والعبيد ، لمجرد خدماتهم، ولكن للتجسس، ولكى يصبحوا عيوناً له عليهم فى بيوتهم، وقد أفسد أخلاق الناس بالرشوة ، وما يجرى مجراها ، وعلى مثل هذا هذا الرجل لايمكن أن ينشىء دولة ثابتة الأركان .

ثالثاً: وهو أن المنصور لم يرزق ولداً قادرا على النهوض بالعبء والمسئولية من بعده. فقد كان له من الأولاد ثلاثة: واحد من قتله بنفسه. أما الاثنان الباقيان فهما عبد الملك الذى جاء من بعده، وقد أشرنا إليه، ثم عبد الرحمن، وكان شاباً سيئ الخلق طائش العقل قاسى القلب مثل أبيه تماماً. وقد دفعه سوء رأيه إلى أن يستصدر من الخليفة المحجور عليه (هشام) عهداً بتعيينه ولى عهده فى الخلافة وكانت نيته أن يتخلص منه بالقتل فيما بعد، ولكن سخط الناس بلغ إلى حد لم يسمح لهم بالاستمرار ، فقامت الثورة على ذلك الشاب وقتل سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م وانتهى أمر بنى عامر فى يوم وليلة (٥٢) .

وفى أواخر أيام محمد بن أبى عامر (المنصور) ، كان قد قـام بنـشاط واسع فى الغزو، لكى يخطو خطواته نحو اتخاذ لقب خليفة فأراد أن يمهد لذلك بانتصارات كبرى فى ميادين الجهاد ، فقام فى سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧ م بأكبر غزواته وهى المعروفة باسم غزوة " شنت ياقب "، وشنب ياقـب أو القـديس يعقوب الحوارى – كما يلقبونه – وهو بالفرنسية " سام جاك " كان من حوارى السيح . وقد وصل إلى أسبانيا فيما تقول الأسطورة ، واتجه إلى شمال غـرب الأندلس وهناك دفن وخفى مقبرته؛ ثم ظهر نجم دل راهبـين علـى مكانـه فكشفوا عنه، وتأكدوا من وجوده فى المكان المسمى" كومبوستيلا " وعلى الفور أقيمت كنيسة عرفت باسم "سنتياجو" أى القديس يعقـوب أصـبحت مـن أعظـم مزارات النصرانية لا فى أسبانيا فحسب بل فى أوربا كلها .

أراد محمد بن عامر (المنصور) أن يغزو شنت ياقب هذه ، فقام بحملـة كبرى حشد فيها كل قواته ، بل نقل الجنود وأثقال الجيش بالبحر حتى مـصب نهر " المينو" وهناك رست السفن ، وتقدم الرجال مع بقية الجـيش . واقـتحم المنصور شنت ياقب بالقوة وضرب مبانيها وهدم كنيستها العظمى ولم يتـرك إلا قبر يعقوب لأنه من الحواريين ، وقد رفعت هذه الغزوة صيت المنصور فى أوربا كلها وأصبح اسم المنصور (محمد بن أبى عامر) رمـزاً للرعـب والذعر والخوف فى كل نواحى أوربا آنذاك (٥٣) .

وكانت آخر غزوة قام بها المنصور هذا فى ربيع ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م وكانت وجهتها برغش وأراضى كونتية قشتالة ، وقد احتلها المنـصور وهـزم قواتها ، ثم عاث فى أراضى مملكة ليون الفرنسية ، ولكن دبيب المرض كان يمشى فى جسمه وجسده كله، وشعر الرجل وهو فى الطريـق إلـى بـرغش بالمرض يهاجمه ، وبعد الواقعة اشتد عليه المرض فحمل فى محفـة، فلمـا وصلوا إلى مدينة سالم ، كانت قواه قد وهنـت تمامـاً . وتقـول المراجـع النصرانية أن النصارى هاجموا جيشه وهزموه فى معركة قرب حصن يـسمى

قلعة النسور. وعقب ذلك بقليل توفى المنصور ودفن فى مدينة سالم . وكان يحمل كفنه معه حسب ما أوردت المصادر .

ما يقوله التاريخ فى المنصور (محمد بن أبى عامر) :

لا شك أن محمد بن أبى عامر، الذى لقب نفسه بالمنصور كان مع مساوئه الذى ذكرناها ، يعتبر من أعظم الرجال . فقد قام بما لم يقم به أحد فى تاريخ الإسلام . استولى على زمام السلطان فى دولة كبرى فى أوج سلطانها . ووجه أمورها وساس أهلها – رغم كراهيتهم له – بسياسة مستبد غاشم ، لا يسمح بأى مشاركة له فى السلطان . وقد استغل فى الوصول إلى ذلك مجموعة الظروف التى أدت بالأندلس إلى ما يمكن أن نسميه بلغة العصر فراغ سياسى ، أو" فراغاً من السلطان ". ومهارته فى أنه عرف كيف يحتل هذا الفراغ ويستغله بسرعة ويمكن لنفسه فيه ، حتى لو كلفه ذلك قتل أحد أبنائه الصغار كبداية يمكن أن تمهد له حسبما أضمر فى نفسه. أما هذه الظروف فهى : ضعف حكم المستنصر فى آخر أيامه ورغبته الشديدة فى أن يصير الملك من بعده لابنه هشام . وكان هشام لايزال فى سن الطفولة لا يتعدى أربعة أعوام من عمره . وخلال هذه المدة كان لابد أن يمسك بتلابيب السطان أحد الرجال الموثوق فيهم أوالمقربون لدى الخليفة الحَكم . وكان من المفروض أن يقوم بهذا الدور صاحب الحجابة – أى رئيس الوزراء – وهو أبو جعفر المصحفى، صاحب الخلق الفاسدة، قاسى القلب أنانياً . وقد افتضح أمره بقتل أمير برئ . كذلك نجد أن أبناء عبد الرحمن الناصر ، وهم أعمام ولى العهد كان ينقصهم الذكاء بُعدالنظر، حيث قتل أحدهم ، واستسلم الثانى للمقادير ثم اختفى. وربما كان عبد الرحمن الناصر مسئولا عن تلك الحالة ، فقد قضى على إرادات الرجال وشل نشاطهم ، وقضى على الكثيرين منهم بسيطرته البالغة.

المهم أن المنصور ، وجد هذه الظروف وقد عاشها واستغلها لصالحه . ولاشك أنه كان مؤهلا للسياسة بطبعه . حائزاً للكثير من الصفات التى يحتاج إليها رجل السلطان . فهو شديد الذكاء دائم اليقظة ، يرى الأمور فى وضوح ، ويتبين خط العمل ، ويعمل فى سرعة يعجز معها خصومه عن التفكير . وقد وصل إلى ما يريد ، قبل أن يستجمع أحد من حوله أفكاره ، إذ كان يخطو من مشكلة إلى مشكلة فى سرعة مذهلة وثقة بالنفس دون أن يدرى أحد بوضوح إلى ماذا يريد . ومن الواضح أن الخطوة الحاسمة فى وصوله إلى السلطان كانت السيطرة على " صبح البشكنسية " زوجة الحكم، الخليفة الأموى ووالد هشام الطفل . فقد تولى محمد بن أبى عامر الأمر باسم هشام مشتركاً فى ذلك مع رئيس الحجابة" أبو جعفر المصحفى " ثم أسقط المصحفى ، وبقى هو فى الميدان وحده يستصدر الأوامر كيفما يحلو له.

وأهم ما استصدره هو، الأمر بفصل جيش الحضرة عن الجيش العام وتعيينه قائداً له- أى تعيين نفسه- فقد أصبحت يده قوة عسكرية لها خطرها، وقد تصورت "صبح " أنه يعمل فى خدمة ابنها هشام " ولى العهد" ففتحت له خزانة المال ، وبالمال استكثر من الجند ، أى أنه كان مستبداً عسكرياً . وهنا لم تبق أمامه عقبة . فهذا قائدعسكرى يحكم بقوة السلاح. ومثل هذا فى التاريخ كثير . ولكن عبقرية محمد بن أبى عامر (المنصور) كانت فى كيفية الانتقال من طالب علم وفقيه إلى رجل سياسة ، ومن رجل سياسة إلى قائد عسكرى .

والسؤال الآن: ماذ فعل محمد بن أبى عامر(المنصور) بما وصل إليه؟.

إن أمامنا الأمثلة كثيرة بالمستبدين بالعروش وما فعلوه ، هناك مثلاً " ريشيليو" ذلك الكاردينال الفرنسى الذى جعل نفسه وصياً على الملك الصغير لويس الثالث عشر. لقد تمتع ريشيليو بسلطان عظيم، أعظم بكثير من سلطان محمد بن أبى عامر (المنصور) ولكنه عمل دائما لرفعة التاج ولخدمة فرنسا . وعندما توفى ريشيليو وأيضا لويس الثالث عشر، جاء لويس الرابع عشر

وكانت فرنسا قد وصلت إلى أوج عظمتها. والفضل فى ذلك يرجع إلى ريشيليو الذى اجتهد فى خدمة فرنسا وتاجها ووحد أمرها وحارب خصومها فى الداخل والخارج حتى وصل بها إلى زعامة أوربا .

ولكن محمد بن أبى عامر (المنصور) استطاع أن يفخربشئ من ذلك . ولكن لنفسه فقد حقَّر حكام الخلافة وحقَّر أمرها وحمل عليها وحرض رجاله وأبناءه عليها، واتجه رأساً إلى القضاء عليها . وكانت الخلافة القرطبية هى عماد قوة الإسلام والعروبة فى بلاد الأندلس ، وبدونها تتعرض للفوضى والأخطار . ولكن المنصور لم ينظر إلى شئ من هذا القبيل، بل اتجه إلى التخريب المتعمد لنظام الخلافة القائم ، وعمل على تقويض دعائمه ، كل هذا لكى يجعل السلطان لنفسه .

وقد ملك المنصور من القوة العسكرية ما لم يملكه أحد غيره فى الأندلس . كان سلطانه أقوى من سلطان عبد الرحمن الناصر ، لأن الناصر رغم نزعته إلى الإستبداد ، كانت له حدود يعرف كيف يقف عندها ؛ فهو لا يسرف فى الحروب مع الممالك النصرانية، لعلمه بأن من المستحيل عليه اخضاعها إلى قرطبة وإشعارها بالضعف عن طريق أداء الجزية، أما المنصور فوالى الضربات دون حساب وهو فى ضرباته لم يحاول أن يقتطع جزءاً من أراضيها ويضمه نهائيا إلى أرض الخلافة. لم يحاول مثلاً القضاء على كل أثر لسلطان النصارى جنوب "دويرو" وإسكان المسلمين فى الأراضى التى يفتحها ليحول هذه البلاد إلى أرض إسلامية ، لو أنه فعل ذلك لكان من الممكن أن يقال أنه فعل شيئاً حاسماً . ولكن جيوشه كانت تضرب وتعود بالغنائم ، فيعود النصارى إلى ما كانوا عليه وهكذا حتى النهاية ، فكأنه فى الواقع لم يفعل شيئاً. كانت هذه السياسة يمكن أن تؤدى إلى نتيجة إذا واصلها الناس .ولكن المنصور لم يخلفه من واصل عمله : فكانت النتيجة أن النصارى استطاعوا خلال السنوات التى أعقبت موته تجديد قواهم واستقروا بعد ذلك على المسلمين .

ولم ينشئ المنصور فى الأندلس شيئاً جديداً ؛ فلا هو أوجد نظاماً جديداً ، ولا أصلح شيئا من عيوب النظام القائم .وأهم ما أنشأه توسيع المسجد الجامع بقدر الثلث من الناحية الشرقية . وقد أضحى بها الجامع أعظم مساجد بلاد الإسلام من ناحية الحجم والهندسة حتى بلغت مساحته ٢٤,٣٠٠ متراً مربعاً ؛ أى ما يزيد عن ستة فدادين . وليس فى الدنيا مسجدا ولا كنيسة ولا أثر آخر بهذا الحجم ، باستثناء قصور فرساى . ولم ينفرد الجامع بالحجم فقط. بل كان طرازه رائعاً حقاً وقد تحدثنا عنه فيما سبق .

لم ينشئ المنصور إذن شيئاً ، بل هدم الكثير ، حطم البيت الأموى تحطيماً ، لم يستطع أن يقوم على قدميه بعده ، وتتبع كل من يرجى خير من أفراده بالقتل والأذى والتشريد ، وفعل مثل ذلك بأبناءالبيوت الموازية. لقد خدم محمد بن أبى عامر(المنصور) الكثيرون من رجالها . ومع هذا جعلهم أتباعاً وندماء وحواشى ؛ والحواشى لا تنفع أحداً ولا تقيم معوجاً .

وقد أحاط المنصور نفسه بسياجات كلها ضرر وخطر على المجتمع: أنشأ الجيش البربرى الجديد فكان بلاءً على الأندلس ، إذ أصبحت القوة العسكرية للبلاد منقسمة إلى قسمين متعاديين : وفى حالة أى اضطراب فى النظام لم يكن هناك مفر من الحرب الأهلية وأنشأ الحزب العامرى من رجال على غراره ، كلهم طامعون أنانيون لا يعمر قلوبهم إيمان،وهؤلاء هم الذين سيرثون الأندلس من بعده ، ويتقاسمونه فيما بينهم . لقد حكم المنصور العامرى سبعة وعشرين عاماً هجرية إنتهت ليلة الأثنين ٢٧ رمضان ٣٩٢هـ/١١أغسطس ١٠٠٢م . ولا نستطيع القول أنها خيراً على الأندلس . لقد أحدث دوياً كبيراً بأعماله وانتصاراته، ولكنه كان كالطبل الأجوف : أى ، صوت كبير وعمل قليل .

وقد أجمعت الروايات الإسلامية على التحدث بمآثر محمد بن أبى عامر (المنصور) دون أن تخفى جرائمه، ومعظمها يصفه بالتقى ويقول أن الجهاد كان قرة عينه .

والحقيقة، أن رجالاً من طراز المنصور كانوا لا يتورعون عن الجرائم فى سبيل سلطانهم . أما خارج السلطان وبعيداً عن منافساته ، فلا مانع من أن يكونوا ذوى عاطفة دينية ، واهتمام بشئون العبادة والإحسان : وما إلى ذلك . هكذا كان أيضا أحمد بن طولون وأبو العباس السفاح وغيرهما من جبابرة تاريخنا . وعلى هذا الأساس من الممكن أن نتصوركيف كانوا يجمعون بين الإجرام والتقى، بين الشر الخالص والخيرالخالص دون أن يكون فى ذلك تعارض ودون أن يحسوا بما يرتكبونه من جرائم .

عبد الملك المظفر بن المنصور :

وقد خلف المنصور فى سلطانه ابنه عبد الملك المظفر الذى تلقب بسيف الدولة. وكانت سنه ٢٨ سنة . وقد ورث عن أبيه ملكاً واسعاً مستقراً فى الظاهر . ولكنه فى الحقيقة مهدداً بالأخطار لأنه رغم استصداره من الخليفة هشام مرسوماً بتفويضه فى الحكم ، كان يشعر أنه غاصباً . وكذلك كان كل من حوله ، وكان هناك كثيرون جدا فى قرطبة ونواحى الأندلس يتربصون به وبآل عامر جميعاً الدوائر [٥٤] .

ولم يكن عبد الملك المظفر لسوء حظ أبيه مؤهلا للوقوف فى وجه العقبات التى كان لابد من تخطيها . كان ينقصه العمق الإنسانى والتكوين الفكرى .فعلى الرغم من اجتهاد أبيه فى تكوينه إلا أنه لم يكن غير جندى جاهل تربى وسط الجنود دون أن يكون لديه موهبة القيادة . فكان طوال حكمه القصير نهباً بين رجاله وأهمهم صقلبى من موالى أبيه يسمى "طرفة " ووزير قوى مدوارمناور يسمى " سعيد بن القطاع" وكان الشاب إلى جانب ذلك مسرفا فى

الشراب .لا يكاد يهبط الليل حتى يعقد مجلس الشراب مع رجاله ، وكلهم ثعالب يجتهدون في الفور منه بأي شئ .وفي ساعات الشراب كان يستمع لوشايات الوشاة ويصدر أحكاماً عنيفة ، ففتك بمولاه "طرفة "ثم قتل "سعيد القطاع" في مجلس شرابه على أسوأ صورة . وقد اتصف هذا الشاب بالطغيان والظلم والغدر وأخذ الفراغ يحيط بهذا الشاب،إلا من عتاة الجند والمرتزقين الذين كانوا لا يشعرون تجاهه بالخير أبداً (٥٥).

وقد قام عبد الملك بن المنصور بغزوات كبيرة لا تخلو من مهارة ، ولكنها كانت من طراز غزوات أبيه . أي أنها كانت ضربات قصيرة الأمد والمدى .غزا قطلونية وبرشلونة سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٣ م وأرغم أميرها "رامون بوريل " الثالث على طلب الصلح. وفي صيف ٣١٥هـ / ١٠٠٥م غزا أرض ليون ، وفي صيف ٣٩٦هـ /١٠٠٦م غزا مملكة نبرة وإحتل بنبلونة، وفي ٣٩٧هـ /١٠٠٧م غزا كونتية قشتالة . ثم غزاها مرة أخرى في العام التالي . وفي ١٦ صفر سنة ٣٩٩هـ/٢١ أكتوبر ١٠٠٨ م وهو في الرابعة والثلاثين من عمره إنتابته العلة وتوفي على أثر التهاب رئوي . بعد أن حكم ٧سنوات فحسب . كانت سنوات رخاء ونصر . ولكن الناس كانوا يتوقعون كارثة ربما لأنهم كانوا يتمنون زوال العامريين . ومن الواضح أن الذي قضى على عبد الملك كان انهماكه في ملذته.

عبد الرحمن بن المنصور "شنجول" :

لقد خلف عبد الملك بن المنصور أخوه عبد الرحمن الذي تلقب بالمأمون ويقال أنه هو الذي قتله . فقد كان شاباً طائشاً قاسياً مجرداً من الصفات الإيجابية المؤهلة للحكم السليم. وكان الناس قد ضاقوا به ذرعاً . وكانت أم عبد الرحمن حفيدة لسانشو جرسيه ملك نبره . وكان أبوها سانشو أباركة ذلك الكونت الأرغوني أحد الأمراء المطالبين بالعرش، والذي أسره

المنصور، ثم أطلق سراحه وتزوج ابنته ، وكان قد انضم إلى المنصور آملا في أن يعينه على الوصول إلى العرش في نبرة(٥٦).

وكان لابد من الإشارة إلى أن قيام الدولة العامرية في الأندلس لم يكن بطريق شرعي، ولكن مؤسسها محمد بن أبي عامر يعتبر مغتصباً للعرش الأموي في الأندلس ، وكان لابد من قيام ثورة مضادة يسترد فيها الخلافة الأموية من جديد خاصة بعد مقتل عبد الرحمن بن المنصور العامري على أثر ثورة قرطبة التي وقعت أحداثها في ٣٩٩هـ /١٠٠٩م .

ثورة قرطبة وبداية الفتنة الكبرى في :
١٦ جمادى الأول ٣٩٩هـ/ ١٥ فبراير ١٠٠٩م

إن نفراً من المتمردين الباقين من بني أمية قرروا انتهاز فرصة ابتعاد عبد الرحمن شنجول والجيش . للقيام بالثورة مستعينين في ذلك "بالذلفاء " أم عبد الملك المظفر، وكانت لاتشك في أن عبد الرحمن شنجول قتل أخاه – ابنها – " بالسم " فاتصلت بنفر من شبان من بني أمية الساعين في سقوط بني عامر ، وكان زعيمهم شاباً مغامراً يسمى"محمد بن هشام بن عبد الجبار " وهو من أبناء عبد الرحمن الناصر، فاتفق هذا الشاب مع أنصاره على أن ينتظروا حتى يدخل بعد الرحمن شنجول أرض النصارى لكي يقوموا بضربتهم لأن الجيش يحتاج إلى شهر لكي يعود من هناك . وبالفعل نفذوا المؤامرة في ١٥ فبراير ١٠٠٩م /١٦جمادى الأولى ٣٩٩ هـ ، بادئين بالهجوم على قصر قرطبة واقتحموه، وقتلوا صاحب المدينة عبد الله بن أبي عامر ثم بايع محمد بن عبد الجبار لنفسه ، وبايعه أصحابه ،واتخذ لقب المهدي واختار قريبا له يسمى سليمان بن هشام وجعله ولي عهده ، وأرغم هشاماً (الثاني) المؤيد على التنازل .فتنازل بعد أن مكث في منصب الخليفة ٣٣ سنة. وكان ذلك يوم الأربعاء ١٧جمادى الأولى ٣٩٩هـ / ١٦ فبراير سنة١٠٠٩م ، ثم تهدمت قصور الزاهرة وتلاشى أمرها في أيام(٥٧) .

وعندما وصلت أخبار الإنقلاب إلى الجيش تخلى معظم رجاله عن عبد الرحمن بسبب احتقارهم البالغ له ، ونصحه مولاه " واضح ". حاكم طليطلة أن يظل مكانه. ولكن شنجول كان يحسب أنه إذا ما اقترب من قرطبة خرج الناس مرحبين به، فسار نحوها ، ورفض زعماء البربر وخاصة محمد بن يعلى الزناتى ، زعيم زناتة أن يوافق عبدالرحمن على اقتحام قرطبة بالقوة ، لأن أولاد البربر وأسراتهم فيها ، وتخلى جميع البربر عنه وتركوه عائدين إلى قرطبة لحماية أسرهم . أما عبد الرحمن ، فما زال يسير حتى وجد نفسه وحيداً وقد تخلى عنه كل الناس. وأنتهى أمره أن قبض عليه رجال محمد بن عبدالجبار فى دير على نهر " أرملاط " قرب قرطبة وقتلوه فى ٣ رجل ٣٩٩هـ/ ٣ مارس ١٠٠٩ م . وكانت تلك هى النهاية المحزنة التى انتهى إليها أمر بنى عامر[٥٨] .

والحقيقة أن الثورة كانت على النظام العامرى المستبد كله، فقد كانت النفوس قد ضاقت بذلك النظام الغاشم الذى لم يخدم إلا مصالح آل عامر. ثم جاء عبد الرحمن شنجول بطيشه وفساده، وقلة تدبيره وحيلته؛ فلم يلبث فى المنصب أكثر من ثلاثة أشهر ثم كانت الثورة وانتهى النظام العامرى بمصرعه.

الفتنة الكبرى :

من سوء الحظ أن محمد بن هشام بن عبد الجبار كان من أسوأ طراز عرفناه فى شباب بنى أمية بالأندلس. فقد كان طائشاً قليل التدبير والتفكير، سوقى النزعات، لطول ما عاش فى الأحياء الفقيرة، متنكراً بين رعاع قرطبة، ولذلك أحاط نفسه بطائفة ممن كانوا على شاكلته؛ لا يحسنون غير النهب والسلب والسرقة فآذوا الناس أذى شديداً. وبدا بوضوح أن الأمل الذى علقه الناس على هذا الرجل لن يلبث أن يتلاشى .

لقد تولى محمد بن عبد الجبار الأمر دون أن تكون لديه أى فكرة عن الدولة وشئونها ؛ واتخذ لقب المهدى .

وقد أجمع الناس عليه أمر الأمر ، مؤملين أنه يستطيع تدارك الأمور وتسييرها فى الطريق الذى سارت عليه إلى الآن . ولكن محمد بن عبد الجبار لم يقم إلا بشئ واحد وهو الإنتقام من العامريين ، والإستمتاع بما ظن أنه من حقوق الخلفاء الأمويين .

ولم يكن الرجل الذى يستدعيه الموقف . فقد كان الوقت وقت انقلاب وفوضى ، ولمست الحاجة ماسة إلى رجل حازم يمسك بزمام الأمور ، ويقرها فى نصابها. ويردع العامة عما أسرفت فيه من الفوضى والنهب والسلب . فالحاجة تستدعى رجل يضع الأمور فى نصابها وإعادة هيبة الخلافة إلى البيت القرطبى الإسلامى من جديد .

فكان لابد من النظر فى العودة إلى قواعدالنظام التى قضى عليها المنصور العامرى بقسوته واستبداده . ولكن محمد بن عبد الجبار لم يكن يملك أية موهبة، وكان سفاكاً قاسياً منحط النزعات ، ولم يهده ذكاؤه إلى شئ غير الاستبداد بالبربر وأذاهم وإهانتهم عقاباً لهم على تأييد بى عامر ثم الإنتقام من العامريين [٥٩].

وقد أساء محمد بن عبد الجبار التصرف لأنه ناصب البربر العداء ، وكان أولئك البربر قد أتى بهم ابن عامر إلى هذه البلاد مرتزقين فى أعداد كبيرة يتزعهم نفر من خيرة زعماء بربر المغربيين الأوسط والأقصى . وكانوا قد كسبوا مالاً كثيراً واتخذوا الأندلس وطنا لهم . فأراد هذا الرجل أن يقضى عليهم . وكان من واجب ابن عبد الجبار أن يؤمن البربر على مراكزهم ومكانهم ، فقد أتوا إلى هذه البلاد للأشتراك فى الجهاد وأبلوا بلاءاً حسناً . وليس ذنبهم أن ابن أبى عامر استقوى بهم على بنى أمية [٦٠] .

وكان ذلك خطأ جسيماً منه، لأن أولئك البربر كانوا قوة كبيرة، ولم يكونوا كما ظن يعتبرون أنفسهم رجال العامريين. بل أنهم بادروا عقب مقتل عبد

الرحمن شنجول بإعلان الطاعة للخليفة الجديد ، ولو أنه كان على شئ من السياسة لقبل ولاءهم. كما فعل جده عبد الرحمن الناصر عندما تولى وأخذ يستأنف الناس حتى استقر له الأمر .

وبدلاً من ذلك نجد محمداً بن عبد الجبار يحاول استذلال البربر، بل أمر يوماً من الأيام بشيخهم "زاوى بن زيرى الصنهاجى" فمُنع من دخول القصر وأُهين، وكانت النتيجة أن تخوف منه البربر، ووقفوا منه موقفا عدائياً، فقرر فى أواخر مارس ١٠٠٩م/ رجب٣٩٩هـ إخراج كل البربر الذين كانوا فى خدمة المنصور من قرطبة، فرفض هؤلاء الخروج وبدأ الصراع بين البربر والأندلسيين فى عاصمة الخلافة الإسلامية فى الأندلس قرطبة [٦١].

وكان هذا الإنشقاق فى صفوف الجيش من أسوأ ما أصاب الأندلس، لأن الجيش كان درع المملكة. وهذا الإنقسام كسر وحدة الأمة، وحرم الدولة من أن تكون لها قوة عسكرية تستطيع الدفاع عنها، وتحميها من التقلبات الداخلية .

ولتوضيح هذه الصورة المزرية نجمل فنقول، أنه كان من الممكن أن تنتهى الأمور بمقتل عبد الرحمن شنجول، ابن الحاجب المنصور، والذى كان من أسوأ الحكام -كما ذكرنا - الذين شهدهم تاريخ الأندلس، وعودة الخلافة إلى بين بنى أمية، لولا أن محمداً بن هشام بن عبد الجبار بن عبدالرحمن الناصركان لا يقل عنه سوءاً كما أسلفنا.

وفى الحقيقة أننا سوف نشهد من الآن فصاعدا سلسلة من الخلفاء الأمويين الأقزام ، المتصارعين على السلطة، والمنتهين جميعاً إلى مصير واحد، جاذبين معهم الأندلس إلى هاوية الدمار والانتحار[٦٢] .

وكان محمد بن هشام بعد أن نجح وأقاربه من بنى مروان فى الوثوب على السلطة ، قد أرسل بعض رجاله إلى سجن العامة ، فأطلقوا سراح من فيه

من اللصوص والمجرمين. وفى تلك الليلة تنازل له هشام المؤيد عن الخلافة ، بعد محاصرة جموع الغوغاء القصر الخلافي؛ فتلقب منذ ذلك الحين بالمهدى .

وسرعان ما أرسل المهدى جموع مؤيديه إلى مدينة الزهراء التى بناهـا الحاجب المنصور قبل ثلاثين عاما (سنة ٣٦٨هـ) لحملهـا علـى الاستـسلام وكانت معقل العامريين. وكانت تنافس قرطبة فى العظمة والبهاء بفضل ما إنتقل إليها من الغنائم على يد الحاجب المنصور طول غزواته السبعة والخمسين لبلاد العدو . فإنقضت عليها هذه الجموع الغوغائية وانتشرت فى قصورها تنهـب ما فيها من مال وتحف ووقائع وعدة وسلاح وذخائر . ثم أمر المهدى بعد ذلـك بهدمها ،وحط أسوارها ،وقلع أبوابها ، وطمس آثارها، فبلغ من تـدمير تلـك المدينة الجليلة إلى مالا تفعله الدهور المتعاقبة، وأصبحت بلقعاً كـأن لـم تغـن بالأمس. وفى ذلك يقول المقرى: "خربت الزاهرة، ومـضت كـأمس الـدابر، وتلاشى أمرها "فلم يرج لفسادها صلاح، وصارت قاعاً صفصفاً، وأبدلت بأيـام الترح عن أيام الفرح والصفاء". وقد كان زوال هذه المدينة شاملاً لدرجة أنه لم يترك صدى فى التقاليد المحلية ، وحتى أنه أدى إلى توليد الشكوك والمتناقضات حول موضعها الإفتراضى .

ولم تكن جريمة تخريب الزاهرة، هى الجريمة الوحيدة التـى ارتكبهـا المهدى محمد بن هشام، فقد جاء الدور على قرطبة ذاتها ، وكان ذلك فى جـو التنفيس عن الحقد على البربر فى صدر السكان العرب الذين نقموا على هؤلاء ارتفاع الشأن على العامريين، فقامت طائفة من العوام والأسافل وقطاع الطرق واللصوص بمهاجمة دور البربر بالرصافة فى الشمال الغربى مـن قرطبـة ؛ وهى دور بنى ماكس بن زيرى، وزاوى بن زيرى وانتهبتها .

وقد أثبت هذا العمل الاجرامى ، أنه كان فاتحة الصراع الـسافر بـين العرب والبربرالذى التهمت نيرانه الأندلس . فقد اتجه البربر بعـد ذلـك إلـى

اصطناع خلفاء من بنى أمية لأسقاط حكم المهدى محمد بن هشام ، بحثا عن راية شرعية أموية يقاتلون تحتها. وكان أول هؤلاء هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر . وكان يلتف حوله مؤيدو وصنائع الحاجب المنصور ابن أبى عامر من الفتيان (الصقالبة). فبيويع الخلافة خارج قرطبة وتلقب بالرشيد ، ولكنه منى بهزيمة ساحقة على يد جيش المهدى وقبض عليه وأمر المهدى بقتله(٦٣) .

وقد تحول غضب المهدى على أثر ذلك إلى البربر ، فأمر العامة فى قرطبهم بتقتيلهم أينما وجدوا وتسارع هؤلاء إلى التنفيذ فوثبوا على البربر وقتلوا عددا كبيراً منهم ونهبوا ديارهم، واضطر هؤلاء إلى الخروج من قرطبة إلى الثغر، بعد أن تخربت منازلهم . وقد وصف ابن حزم هذا الخراب بقوله : "وقفت على أطلال منازلنا بحومة بلاط مغيث من الأرباض الغربية، ومنازل البربر المستباحة عند معاودة قرطبة ، فرأيتها قد أمحت رسومها وطمست معالمها وخفيت معاهدها وغيّرها البلى فصارت صحارى مجدبة بعد العمران، وفيافى موحشة بعد العمران والأنس ومأوى للذئاب ومخابئ للصوص، بعد طول غنيانها برجال كالسيوف ، وفرسان كالسيوف والليوث ... الخ " .

وكان من الطبيعى أن يتزايد حقد البربر على العرب ، ولم يعدموا قذماً آخر من البيت الأموى ، وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر ، فعقدوا له الخلافة فى شعبان سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م ، وتلقب بالمستعين بالله . وقد أطلق عليه أهل قرطبة اسم " إمام البربر " وهو الخليفة الأموى الثالث فى خلال شهرين تقريباً .

وسرعان ما اتجه كل من الخليفتين الأمويين؛ المهدى، والمستعين بالله، إلى الإستعانة بالممالك المسيحية فى شمال الأندلس فى تغليب كفته على الآخر؛ فقد تقدم البربر قاصدين قشتالة للإستعانة بشانجة بن جارسيا بن فرنذلند، عاهل

قشتالة ، ووصلواإلى وادى الحجارة وهزموا جيش "واضح" الفتى (الـــصقلبى) صاحب طليطلة والثغر الأوســط، ودخلوهــا عنــوة ، واســتباحوا أهلهــا ووصلواإلى مدينة سالم ، ولكن"واضحاً" الصقلبى تمكن مــن إبعــادهم عنهــا، فأرسلوا رسلهم إلى شانجة يطلبون مساعدته على أن يدخل سليمان بن الحكــم قرطبة. فوجدوا عنده رسل المهدى محمد بن هشام ورسل "واضح" الفتى يسألانه المساعدة بدورهما، على أن يعطياه ما أحب من مدائن الثغر. وقد حملا إليــه هدايا " منها خيل وبغال وكُسى وما لايحصى من الطرائف والتحف .

وهكذا انقلبت موازين القوى فــى العلاقــات بــين العــرب والممالــك المسيحية فى شمال أسبانيا . فبعد أن كان الملوك الأســبان يطلبــون مــساعدة الحكام الأمويين فى نزاعتهم ،ويتيحون لهم بذلك التدخل فى الشئون الداخليــة لبلادهم ، أصبح الحكام الأمويين هم الذن يطلبون من الأسبان المساعدة فى قتال بعضم البعض (٦٤).

وكانو سانشو على مستوى الموقف فى الإستفادة مــن تلــك الفرصــة المتاحة، إذ رأى القضاء على قوة المسلمين بالاستعانة بالبربر . ثم ينقض بعد ذلل على البربر، فعرض عليهم الإستجابة لطلبهم "على أن يعطوه إذا ظفروا ما أحب من المدائن فى الثغر" فقبلوا ذلك. وهنا رد رسل المهدى وواضح رافــضاً مساعدتهم.

وسار شنجة على رأس جيش كثيف لمساعدة البربر والمستعين بـــالله . واشتبك الجيشان الحليفان مع جيش "واضح " بالقرب من قلعة يقال لها " قلعـــة عبدالسلام" فى وادى شرنبة فى محرم٤٠٠هــ / ١٠١١ م وألحقا به الهزيمة . ثم سار إلى قرطبة حيث كان المهدى يحضر الحفائر حول أرباضها ، وهــو "لايفيق من سكر، وبعض الناس يهجونه ويتكلمون بقبيح أفعاله" - كما يقول ابن عذارى - وانتهت المعركة التى نشبت بين الجيشين بهزيمة جيش المهدى هزيمة

نكراء وفرار "واضح" إلى الثغر ووضع البربر السيف على أهل قرطبة، فقتلوا منهم خلقاً عظيماً ، وحرق كثيرون في الوادي ، وبلغ عدد القتلى عشرة آلاف في رأي بعض الأقوال .. وهرب المهدي إلى طليطلة ليلحق بـ " واضح " في أول جمادى الأولى سنة ٤٠٠هـ /١٠١١م .

على هذا النحو بدا أن الأمر قد استقر لسليمان المستعين في قرطبة ؛ لولا أن المهدي المخلوع وفتاة "واضح" كانا ينويان مواصلة الصراع بالإستعانة بالممالك الأسبانية في الشمال فقد خرج "واضح" من مدينة سالم إلى طرطوشة قريبا من الحدود الفاصلة بين الثغر واقليم قطالونيا. وعقد حلفاً مع عاهل برشلونة ريموند بوريل الثالث وأخيه أرمنجول (أرمقند كما يطلق عليه العرب) مقابل التخلي لهم عن مدينة سالم، قاعدة الثغرالأوسط. فدخلها الأسبان بعد أن أخلاها "واضح" ممن كان فيها من المسلمين، ليقاتلوا البربر. وقد كان أول مافعلوه أن حولوا جامعه إلى كنيسة، ووضعوا فيها الناقوس، واشترطوا على "واضح" أن يصرف لكل رجل منهم دينارين يومياً فضلاً عن طعامه وشرابه، بالإضافة إلى مائة دينار لريموند بوريل الثالث " وعلى أن لهم ماحازوه من عسكرالبربر من سلاح وكراع ومال، وأن نساءهم (أي نساء البربر) ودماءهم وأموالهم حلالا لهم " .

وتقدم جيش واضح وحلفائه الأسبان إلى سرقسطة ، فساموا أهلها سوءالعذاب ، ومنها إلى طليطلة حيث أنضم إليهم المهدي . وبذلك بلغ عدد الجيش ٣٩ ألفاً منهم تسعة آلاف من الإفرنج وزحف الجميع على قرطبة ،فألحقوا الهزيمة بسليمان المستعين وجيشه البربري ،بعد أن ألحق البربر بأعدائهم خسائر جسيمة . إذ قتلوا من الأسبان عدداً كبيراً وعلى رأسهم الملك أرمنجول (أرمقند). وعاد المهدي إلى قرطبة، حيث أخذ لنفسه البيعة من جديد. وبدأت مرحلة جديدة في الصراع الانتحاري في الأندلس .

ذلك أن المهدى أراد استغلال النصر الذى حققه فى القضاء على البربر، وزحف بجيشه وبجيش واضح والجيش الأندلسى على البربر وادى "آره Guadiaro" بالقرب من رندة فى٦ من ذى القعدة ٤٠٠هـ / ٢١يونيو ١٠١١م. ولكنه تلقى هزيمة ساحقة وقتل البربر من الأسبان ما يبلغ ثلثمائة ألف ، وغرق منهم كثيرون، وكان من بين القتلى وزير يهودى لملك الإفرنج ريموند بوريل. وعند ذلك امتنع الأسبان عن القتال ، وعادوا إلى بلادهم ،وبات المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار يواجه البربر وحده فى قرطبة (٦٥).

على أن واضحاً الصقلبى كفى البربر مهمة القضاء على المهدى، خصوصاً بعد أن انصرف هذا فى إبان ذلك الخطر الجسيم إلى الفسق والفجور فدبر قتله عن طريق طائفة العبيد العامرية يوم ٨ ذى الحجة سنة ٤٠٠هـ. وبعث برأسه إلى سليمان المستعين. طالباً منه ومن حلفائه البربر الدخول فى طاعة هشام المؤيد الذى عزله المهدى. ولكن هؤلاء لم يستسيغوا خيانة "واضح" الفتى (الصقلبى) لمولاه. ودخلوا مدينة الزهراء فى ٢٣ ربيع الأول سنة ٤٠١هـ /٤ نوفمبر سنة١٠١١م . وضربوا الحصار على قرطبة. وحاول واضح الهرب إلى الثغر ، ولكن الجند فطنوا له ، فقبضوا عليه واجتز ابن وداعة القرطبى رأسه يوم ١٥ ربيع الثانى ٤٠٢ هـ / سبتمبر ١٠١١م . حيث قتل هشام المؤيد ، ولشاع أنه فرّ لوجهه ، وعمل سقاءاً بالمرية .

على هذا خلا الحكم لسليمان بعد قتل المهدى وواضح وهشام المؤيد. وبدأ حكم البربر من قرطبة ، فانتقل مع جماعة جيشه البربرى إلى مدينة الزهراء بينما أقام بنو حمود العلويون فى شقنده ، وقسم بعض كور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية ارضاءً لهم. الأمر الذى دفع العامريين إلى الهرب إلى شرق الأندلس خوفا على أنفسهم من البربر، وقاموا لهم دولا فى بلنسية وشاطبة ودانية ولورقة وميورقة والمرية. وأخذوا يدبرون المؤامرات لسليمان المستعين .

ولما كانت جميع القوى فى الأندلس قد اقتتلت، فقد صار على العامريين الاستعانة بقوى من الخارج. فتطلعوا إلى على بن حمود أمير سبتة ، للقدوم إلى الأندلس، والإستيلاء على الخلافة. ونجحوا فى اقناعه بذلك، فلم يتوان عن التوجه إلى الأندلس بحجة الإفراج عن هشام المؤيد، وواجهه سليمان المستعين بجيشه فى محرم سنة ٤٠٧هـ/ ١٠١٦م: ولكن الهزيمة لحقته. ودخل على بن حمود قصر قرطبة فى ٢٢ محرم سنة ٤٠٧هـ / يوليو سنة ١٠١٦م وأمر بإحضار سليمان المستعين ، فضرب عنقه بيده ، ثم ضرب عنق أخيه عبد الرحمن ، ثم عنق أبيهما الشيخ ، وجعل رؤوس الثلاثة فى طست وأخرجت من القصر إلى المحلة ينادى عليها : " هذا جزاء من قتل هشاماً المؤيد " .

وقد بويع لعلى بن حمود فى باب السدة من قصر قرطبة فى ٢٣ محرم سنة ٤٠٧هـ/ يوليو سنة ١٠١٦م؛ وتلقب بالناصر لدين الله . وبذلك بدأ حكم بنى حمود، وبدأت مرحلة جديدة فى الصراع الانتحارى بالأندلس. ذلك أن تعصب وتشدد على بن حمود لحزبه البربرى قد أدى إلى انصراف الناس عنه. فى الوقت الذى ظهر قزم آخر فى البيت الأموى بشرق الأندلس يدعى عبدالرحمن بن عبد الملك بن الناصر، بويع بالخلافة وتلقب بالمرتضى. ومال أهل قرطبة إلى الخليفة الجديد لكراهيتهم للبربر. وتبرم لعلى بن حمود خدمه وفتيانه من صقالبة بنى مروان فوثب عليه منهم ثلاثة هم: منجح ولبيب وعجيب، وقتلوه فى حمام قصره فى أول ذى القعدة سنة ٤٠٨هـ/ ١٧ مايو سنة١٠١٧م.

وقد خلفه أخوه القاسم بن حمود . ولكن أمراء شرق الأندلس أعدوا للخليفة المرتضى جيشاً كبيراً لفتح قرطبة؛ وإعادة الخلافة إلى أصحابها الشرعيين من المروانيين. وتوجه هذا الجيش إلى غرناطة لمحاربة بنى زيرى الصنهاجيين . ولكن فى ذلك الحين اكتشف أمراء شرق الأندلس صرامة وحدة فى طبائع المرتضى، فخافوا من عاقبة تمكنه من البربر، فتخلوا عنه وتركوه

وحيداً ، فلم يجد سوى الفرار .ولكنه قتل من وادى آش ، وبــذلك خلــص الأمر للبربر[٦٦] .

غير أن الصراع الإنتحارى استمر بين أسرة بنى حمود نفسها ؛ فقــد اتفق كل من يحيى وادريس، ابنا أخى على بن حمود على خلع عمهما القاســم. وجمع يحيى جيشاً فى مالقه من جيرانه البربر زحف به إلى قرطبة ، وأسقط حكم عمه الذى فرّ إلى أشبيلية فى ٢٢ ربيع الثانى ســنة ٤١٢هـــ/ ١٠٢١م. وبايعه البربر وأهل قرطبة بالخلافة فى أول جمادى الأولى من الــسنة ذاتهــا تلقب بالمعتلى بالله . ولكنه لم يهنأ بالخلافة طويلا. إذ سرعان ما خلعــه أهــل قرطبة فى ١٢ ذى القعدة سنة ٤١٣ هـ/١٠٢٢م ، واستدعوا القاســم مــن أشبيلية، فدخل قرطبة بعد أن فرّ يحيى إلى مالقة ؛ وجددوا له البيعــة فــى١٨ ذى القعدة من السنة ذاتها ؛ ثم سرعان ما أجمعوا على خلعه فى ٢١ جمــادى الآخر سنة ٤١٤هـــ/ ١٠٢٣م، وحاصروه فى قصره أياماً ، حــى إذا ارغمــوه على مغادرته إلى الربض الغربى منها فى جيشه البربرى، وقاتلوا البربر قتال الموت ، وألحقوا بهم هزيمة شنعاء . ففر القاسم إلى أشبيلية حيث كان يوجد بها ولداه محمد والحسن، ولكن أهل أشبيلية أغلقوا أبواب مدينته فى وجهه لكراهتهم البربر، وطردوا إليه ولديه. فلم يجد بداً من الرحيل إلى شريش. وكان يحيى يترقب هذه الفرصة ، فزحف على شريش واستولى عليها وقبض على عمــه، وحمله مقيداً إلى مالقه .

على هذا النحو فشل بنو حماد (حمود) فى البقاء فى قرطبة أكثر مــن سبع سنوات . ورأى أهل قرطبة أن يعيدوا الخلافــة إلــى البيــت الأمــوى ، فاختاروا من أمراء المروانية ثلاثة هم : سليمان بن المرتضى، ومحمد بــن العراقى ، وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار . واجتمع الناس فــى جــامع قرطبة فى الرابع من رمضان لاختيار واحد : وكان الإتجاه إلى ســليمان بــن المرتضى ، لولا قدوم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار فى شــرذمة مــن

رجاله شاهرين سيوفهم ، فبويع له على الفور ، وتلقب بالمستظهر بالله ، ومع أنه كان أفضل الأقذام من بنى مروان الذين ظهروا على مسرح الأحداث منذ مقتل شنجول. إلا أنه لم يستمر طويلاً (شهراً واحداً) فقد حاصره أهل قرطبة فى القصر؛ وأجلسوا فى الخلافة محمد بن عبدالرحمن بن عبيد الله الناصر فى ٣ ذى القعدة سنة ٤١٤هـ، الذى تلقب بالمستكفى بالله. وقد حمل إليه المستظهر المخلوع، فأمر بقتله ، ما قتل محمد بن العراقى الذى كان مرشحاً للخلافة بين المروانيين الثالثة ، السابق ذكرهم ، برغم أنه بن عمه ، وكان القتل خنقا سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤ م .

وهكذا أثبت المستكفى أنه أكثر أسلافه القريبين دموية وسوءاً. وفى الواقع أن المؤرخين الإسلاميين ينعتونه بأنه كان "عاطلاً من الخصال والفضائل " ويشبهونه بالمستكفى بالله العباسى فى الفسق واعتداء كل واحد منهما على ابن عمه ، واتفاقهما فى الأخلاق والعهر واللعب ، وأن كل واحد منهما عاش اثنين وخمسين سنة، وكل واحد ملك نحو سنة وخمسة أشهر ، وتوافق فى اللقب ، وبالجملة فهم رذلى قومهما، وفى أيامه امتد الدمار إلى قصور عبد الرحمن الناصر فى قرطبة وقصور الزاهرة .

ولم يلبث المستكفى أن لقى جزاءه . ففى ٢٥ربيع الأول سنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م طلب منه وزراءه الخروج لمقاتلة يحيى بن على بن حمود ، الذى زحف من مالقة يريد العودة مرة أخرى إلى قرطبة ، فتظاهر بالقبول ، ثم فرّ إلى غانية فى زى متنكر ، بل يذكر بن عذارى أنه خرج فى زى متنكراً إلى غانيتين "لم يميز بينهن" ويبدو أنه اختلف مع رجاله فى الطريق على مال، فقتلوه فى بلده اقليبح .

وعلى هذا النحو ، استعاد يحيى بن على الخلافة فى ١٦ رمضان سنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥ م . وأقام بقرطبة أربعة أشهر ، ثم عاد إلى مالقة تاركا

وزيره أبا جعفر أحمد بن موسى على قرطبة . ولكن العامريان ،الموفق مجاهد وخيران انتهز الفرصة للزحف على قرطبة . ونجحا فى ذلك ، فآثر يحيى البقاء بمالقة خشية أن يبطش به أهل قرطبة، ولكنه قتل خارج قرمونة فى محرم سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٥ م على أيدى رجال أسماعيل بن عباد ، واستمر خيران ومجاهد العامريان فى قرطبة نحو شهر ، ثم اختلفا وتنازعا ، وانسحب خيران من قرطبة فى أواخر ربيع الآخر سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م بينما بقى مجاهد فترة من الوقت وغادرها إلى دانية[٦٧] .

وقد أجمع أهل قرطبة بعد رحيل الفتيين العامريين على تنصيب هشام بن محمد بن عبد الملك أخى المرتضى خليفة ، وتلقب بالمعتد بالله. ولكن لم يطل عهده هو الآخر بقرطبة ، إذ أخذ أحدالأمراء المروانيين واسمه أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان يحرص على خلعه طمعا فى الجلوس على كرسى الخلافة مكانه . وثار أهل قرطبة وراء أمية فى ١٢ ذى الحجة سنة ٤٢٢هـ /١٠٣٢ وحاصروا قصر الخلافة ، وأخرجوا هشام من قصره هو ونساؤه وولده. واجتمع شيوخ قرطبة ووزراؤها برئاسة أبى الحزم بن جهور لبحث المسألة ، فقرروا خلع المعتد بالله ، وإبطال الخلافة ذاتها .ونودى بالأسواق بألا يبقى فى قرطبة أحد من بنى أمية ،وألا يستضيفهم أحد ، فانتهى بذلك ملك بنى أمية فى بلاد الأندلس بعد أن استمر قرابة مائة وخمسة وسبعون عاماً تقريباً (١٣٨هـ/ ٧٥٥- ٤٢٢هـ /١٠٣٢ م) ترك المسلمون فيها حضارة إسلامية لازالت شامخة تنطق بأمجاد وعظائم الإسلام وحضارته ويفخر بها معظم الأندلسيين أنفسهم .

هوامش الفصل الثالث :

(1) Dozy, R; Stples. F/ G; Spanish Islam, London. 1931, p 397.

(2) Diehl C, Marcais, G; Le Monde Oriental de 395 a 1018 (Hist. du Moyen. Age, tome, 3, Paris, 1936, p. 400.

(3) Cam. Med History, Vol. 3 , pp. 419 – 420.

(4) Diehl Op. Cit pp. 400 – 404.

(٥) ليون بول ، العرب فى أسبانيا، ص ١٣٧ .

(6) Can. Med. Hist. vol , P. 422 .

(7) Dozy. op. cit, pp. 492 – 495 .

(8) Camp. Med. Hist. op. cit, p.425 .

(٩) ليون بول، المصدر السابق، ص ١٥٣. وراجع
Diehl , op. cit, P. 411.

(١٠) أحمد مختار العبادى، فى المغرب والأندلس، (عصر الخلافة الأموية فى الأندلس) وراجع أيضا: السيد عبدالعزيز سالم، الإسلام وأثره فى الأندلس، راجع ثورة ابن حفصون .

(١١) ان عذارى، البيان المغرب، جـ ٤ ، ص ١٥٠.

(١٢) حسين مؤنس "السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين، المجلة المصرية التاريخية، المجلد الثالث، العدد الأول ،مايو ١٩٥٠ ، ص ٥٩.

(١٣) الطاهر مكى، حضارة الاسلام فى الأندلس، عدد خاص من مجلة الهلال، يونيو ١٩٧٦م ، ص ٩٠ – ٩٥ .

(١٤) حسن على حسن، الحضارة الإسلامية فى المغرب والأندلس فى عصر الموحدين، القاهرة. ١٩٨٠، ص ٨٧- ٩٣. وراجع عاشور، أوربا العصور الوسطى، جـ ١ ص ٢١٩- ٢٢٠ .

(١٥) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٤٧ - ٤٩. وراجع: ليون بول: العرب فى أسبانيا ، ص ١٥٢ - ١٥٤ .

(16) Cam.Med.Hist. Vol, 3, pp. 428 – 430.

وراجع : سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٢٣.

(17) Dozy . op. cit , pp. 583 – 585 .

وراجع : سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٢٢.

(١٨) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٤٠ -٤٣ ، وأيضا: الميدى، جذوة المقتبس ،ص ٢٢٧- ٢٢٨.

(١٩) المقرى، نفح الطيب ، جـ ٢، ص ٧٢ - ٧٣، وأيضا ابن القوطية، المصدر السابق ،ص ٥٦.

(٢٠) عبدالرحمن على الحجى، التاريخ الأندلسى، ص ٦٥-٧٥ وراجع : الخشنى، قضاة الأندلس ، ص ٢٣ - ٢٧ .

(21) Dozy ,op. cit , . 397.

وراجع : سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٢٠.

(22) Diehl , Marcais , op. cit, ppl. 400 – 403.

وراجع : ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلدالثانى ١٩٨٣م ، المجلد الثالث ١٩٨٥م .

(٢٣) سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى، جـ ١، ص ٥٢٠. وراجع ، أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ،(عصر عبد الرحمن الناصر).

(24) Dozy, op. ict, pp. 492 – 495.

وراجع : السيد عبدالعزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية جـ١ ، ص ١٤٦ ومابعدها .

(٢٥) أحمد هيكل ، الأدب الأندلسى ، ١٧، ٢٨- ٣٥ .

(٢٦) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٩- ٣٣.

(٢٧) ابن القوطية ، افتتاح الأندلس ، ص ٥١-٥٧ .

(٢٨) محمود على مكى:
Euzayos Sobrelas aportaciones orieutales euLa Espania muslamana, p.130.

(٢٩) عبدالرحمن على الحجى، التاريخ الأندلسى ، ص ٦٠ – ٧٠.

(٣٠) أخبار مجموعة ، ص ١٠٦ -١٠٧ .

(٣١) لين بول، العرب فى أسبانيا ، ص ١٣٧ ، وراجع سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥٢١.

(32) Cam. Md. History, Vol, 3 , p. 424 .
وراجع أيضا : لين بول، العرب فى أسبانيا ، ص ١٣٨ .

(33) Dozy , op. cit, pp. 492 – 493 .
وراجع: سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥٢١ .

(٣٤) ابن الفرض، علماء الأندلس، ص ١٧٩-١٨١، وراجع: الحميدى، المصدر السابق، ص٢٠٤ – ٢٠٥. وأحمد هيكل، المرجع السابق، ص٦٢.

(٣٥) أخبار مجموعة، ص١٠٧، سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥٢١.

(٣٦) السيد عبدالعزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية جـ١ ، ص ١٤-١٥٠ ومابعدها .

(٣٧) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٣ - ١٧. مؤلف مجهول، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، ص ٣٦- ٤٠.

(٣٨) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين (آثارهم فى الأندلس، ص ١٥٣-١٦٣).

(٣٩) ابن عذارى، البيان المغرب، ط ١، ص ٥٤- ٥٦.

(٤٠) ابن بسام ، الذخيرة القسم الثانى، م/١ ص ١٤-١٧. وراجع أيضاً :ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ،م/٢ ، ١٩٨٣.ص ٢٦٥-٢٩٣ .

(41) Cam. Med. History, Vol, 3 ,p. 424 .

وراجع: سعيد عاشور ، المرجع السابق ،جـ ١ ص ٥٢١ .

(42) Dozy, op.cit, pp. 492 – 494.

وأيضا، لطفى عبد البديع ، الإسلام فى أسبانيا ، ص ٧٣ .

(43) Cam.Med. Hist. Vol , 3 p. 425 .

وراجع : لين بول ، العرب فى أسبانيا ، ص ١٥٢ .

(44) Diehi, Marcais, op. cit, . 402.

وراجع: سعيد عاشور ، المرجع السابق ،جـ ١ ص ٥٢١ .

(45) Cam. Med.Hist. Vol,3, p. 425.

(46) Diehl , Marcais, op. citp. 401.

(47) Dozy, Op. it, p. 511.

(٤٨) لين بول ، العرب فى أسبانيا ، ص ١٥٣ . وراجع : سعيد عاشور ، المرجع السابق ،جـ ١ ص ٥٢٢ .

(٤٩) مؤلف مجهول ،أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، ص ٤٣ – ٤٥.

(٥٠) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ط ١ ، ص ٥٤- ٥٦.

(٥١) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص١٥٣-١٦٣ .

(٥٢) أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، " عصر الدولة العامرية ".

(٥٣) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس،ص ١٥ -١٩ .

(54) Doze , op. cit, p. 585 .

(55) Dihel, Marcais

(٥٦) سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا للعصور الوسطى، جـ١، ص ٥١٧ - ٥٢٣.

(57) Cam. Med.Hist. vol, 3. p. 428.

وانظر ، عاشور ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٥٢٣.

(٥٨) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٧ .

(٥٩) مؤلف مجهول ،أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، ص ٣٦ – ٤٠.

(٦٠) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٥٧- ٥٨.

(٦١) ابن الخطيب ،أعمال الأعلام ، ص ١٥٧.

(٦٢) ابن بسام ، الذخيرة القسم الثانى، ج/٢ ص ٤٥.

(٦٣) أحمد مختار العبادى ، المرجع السابق ، " فى خلافة آل عمار فى الأندلس " .

(٦٤) ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـ٢ ص ٢٠٣ .

(65) Cam. Med. Hist. vol, 3, 438.

(66) Diehl , Marcais ,op. cit,p. 404 .

(٦٧) لين بول ، العرب فى أسبانيا ، ص ٩٣ - ٩٤ .

الفصل الرابع
عصر ملوك الطوائف

- تمهيد
- المرابطون وإنقاذ الأندلس.
- معركة الزلاقة ٤٧٩ هـ /١٠٨٦م
- الأندلس بين يوسف بن تاشفين والسيد القمبيطور .
- الأندلس الإسلامية والحروب الصليبية .
- بابوات روما وتجييش الجيوش لطرد المسلمين من الأندلس .
- زوال دولة المسلمين في أسبانيا بعد ثمانية قرون .

عصر ملوك الطوائف :

بنهاية ملك بنى أمية فى الأندلس ، انتهت معها الأندلس كدولة موحدة مهابة يدين لها الملوك الأسبان فى الشمال بالخضوع والولاء ، ولم يكن لواحد منهم فضل فى هذه الناحية المأساوية الفريدة ، التى انتهت بتخريب الزاهرة ، وانهيار قرطبة وسقوط الدولة الأموية،وتمزق المملكة أشلاء شتى .

كان تمزق دولة الأندلس بأيدى بنيها على النحو الذى مرّ بنا، من أكبر المآسى التى أصابت الأمة الإسلامية ؛ إذ كان بداية الطريق إلى ضياع هذه القطعة الغالية من الأرض الإسلامية فى يد الممالك المسيحية الأسبانية ، بعد أن كانت هذه الممالك تدور فى فلك الدولة الإسلامية، وتدين لها بالولاء والخضوع. وهكذا يصاب العرب بانقسامهم بأكثر مما يصابوا بتآلب الأعداء ضدهم .

ويمكن فهم الآثار المدمّرة التى ترتبت على هذا الصراع الإنتحارى الذى اندفع فى الأندلس بعد موت عبد الملك المظفر ؛ إذا عرفنا أنه أخّر الأندلس قرناً من الزمان. فقد استمرت الفتن أولاً فى الأندلس حوالى ربع قرن ، أى منذ مقتل عبد الرحمن شنجول عام ٣٩٩هـ / ١٠٠٩ م حتى إعلان أبى الحزم بن جهور انتهاء الخلافة وسقوط ملك بنى أمية بالأندلس سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٢ م. وقد رأينا كيف أخذت الفرق المتصارعة تستعين بالقوى المسيحية الأجنبية فى الشمال ضد بعضها البعض مما أتاح لتلك القوى التدخل فى شئون الأندلس الداخلية، بعد أن كان حكام قرطبة هم الذين يتدخلون للممالك المسيحية الأسبانية .

ولم يعد يعلن بن جهور إنتهاء الخلافة، حتى استقل كثير من الأمراء بمدنهم ومقاطعتهم، حتى أصبحت هناك فى الأندلس نحوا من عشرين أسرة حاكمة. واستمر من سنة ٤٢٢هـ /٤٨٤هـ/١٠٩٧م. وكان السلطان بصفة

عامة للبربر في الجنوب . وخضع الشرق الأندلسي للصقالبة ، وانتثر في المدن الأخرى أمراء وحكام آخرون. بينما كانت الممالك المسيحية تتوحد في الشمال.

وقد صوّر المؤرخ ستانلي لين بول Stanley Lane – Pool أوضاع الأندلس في تلك الفترة تصويراً دقيقا فقال (١) :

" تمزقت الدولة إلى إمارات صغيرة في الوقت الذى كان ألفونس السادس ، يوحد تحت أمرته إستورياس وليون وقشتالة . وقد عرف ألفونس ماينبغي عمله تماماً ، لقد عرف أنه ليس عليه إلا أن يمد الحبل لملوك الطوائف ليشنقوا به أنفسهم، لأن هؤلاء الجهلة لم ينظروا في العواقب ، ولم يهتموا إلا بأنفسهم .ولم يدخروا أى جهد في سبيل إضعاف منافسيهم ، وكانوا يجثون عند قدم الفونس يستجدون معونته ضد أخوانهم المسلمين .وتقرّبت كل الدويلات الإسلامية إلى ألفونس عن طريق تقديم الإتاوات. وكان ألفونس يزيد فيها كل عام كلما زادت قوته ، لأنها ثمن عطفه وحمايته، وكان ألفونس ينقل خطوطه إلى الأمام في كل فرصة ، ويستولى على الحصون والقلاع واحدة بعد الأخرى ، حتى وثب وثبته التى استولى فيها على طليطلة سنة ٤٧٨هـ . فدب الفزع في صفوف المسلمين بأسبانيا وأحس ملوك الطوائف بالخطر على إماراتهم من السقوط .

وأغلب ملوك الطوائف لا يستحقون الذكر ؛ وأكثرهم جاء وليد الضعف أو المصادفة ؛ وأن يبقى أن أهم هؤلاء هم بنو عباد في أشبيلية . وقد كوّن هذه الأسرة القاضي محمد بن عباد الذى تغلب على القاسم بن حمود حين أراد أن يضم أشبيلية إلى مالقة التى مكّن لنفسه فيها. واستمرت إمارة بني عباد بأشبيلية من سنة ٤١٤هـ إلى عهد ملوك الطوائف. وأخذت تتوسع على حساب جاراتها. فضمت إمارات بني حمود بالجزيرة وورنده وموردن وأركس ونبله وإمارة بني جهور بقرطبة(٢) .

على أنه وجدت إمارات أخرى مستقلة عن حكم بنى عباد ، مثل إمارة بنى حمود بمالقة ، وبنى زيرى بغرناطة ، وبنى رزين بالسهلة ، وبنى الأفطس فى بطليوس ، وبنى ذى النون بطليطلة ، والعامريين ببلنسية ،وبنى هود بسرقسطة ولاردة وقلعة أيوب.

فى ذلك الحين كانت قد تكونت ثلاث ممالك مسيحية فى الشمال الأسبانى هى: مملكة كتالونيا، ومملكة أرجون، ومملكة قشتالة. وكان يفصل بينهما وبين الأندلس مجرى نهر التاجة من مصبه إلى منبعه . ثم يتجه خط الحدود بعد المنبع شمالا إلى سرقسطة، ثم إلى الشرق حتى يصل إلى البحر المتوسط عند مدينة طركونة .

وقد قسّم العرب خط الحدود هذا إلى ثلاثة أقسام : القسم الشرقى وقد سمى بالثغر الأعلى ، والقسم المتوسط الأوسط. وقد سمى بالثغر الأوسط، ثم القسم الغربى . وقد عرفنا من الصفحات السابقة أن الثغور هى مناطق الحدود مع العدو. وهى عبارة عن سلسلة من الحصون تقام بعد نهاية كل فتح .لحماية هذا الفتح ، وليست مهمتها الغزو. وإنما يقوم بالغزو الجند داخل البلاد فيما عرف باسم الصوائف والشواتى.ومهمتها الحماية أيضاً وليست التوسع، الحماية عن طريق الهجوم لا الدفاع ،وضرب العدو داخل أرضه بدلاً من الانتظار حتى يتقدم العدو داخل الأرض الإسلامية .

مناطق الثغورإذن هى مناطق ثابتةلا تتغير إلا كل بضعة قرون حين تتغير الظروف تغيراً جذرياً ، فتتحرك لحساب هذا الطرف أو ذاك. أى لحساب المسلمين أو لحساب الأوربيين.

وقد أخذت مناطق الثغور فى الأندلس تتحرك جنوباً على يد الممالك الأسبانية الشمالية فى أيام ملوك الطوائف .وكان أهم ملوك الأسبان آنذاك هو الفونسو السادس ملك قشتالة . وهو ملك تطبع بالخشونة فى قفار قشتالة

وجبالها . فهو على النقيض تماما من ملوك وفرسان المسلمين الذين كـانوا قـد بلغوا فى ذلك الحين ، على الرغم من الضعف السياسى ذروة الترف والأناقـة والعناية بالثياب الغالية والآلات الحربية المزخرفة بفصوص الذهب والفـضة ، فضلا عن آداب المعاملة وأساليب الشهامة والفروسية . ولذلك حظى الفونسو باحتقار الفرسان المسلمين كهمجى رغم دفع ملوكهم الجزية له . وهـذا هـو الفونسو الذى سيقود حركة الإسترداد فى بلاد الأندلس ضد المسلمين (٣) .

المرابطون وإنقاذ الأندلس :

بينما كان حال المسلمين فى الإندلس على نحو ما مرّ بنا ، كان حـالهم يتجه نحو الوحدة فى البلاد المغرب على يد يوسف بن تاشفين الـذى تـم لـه الإستيلاء على كل المغرب الأقصى الشمالى والجنوبى، الأمر الذى دعـاه إلـى اتخاذ لقب "أمير المسلمين وناصرالدين" ثم أخذ يتطلع إلى مـد حـدوده إلـى الجزائر ، فغزا تلمسان سنة ٤٧٢هـ، وفتح الريف فى العام التالى .وفى عام ٤٧٤ هـ /١٠٨٧ م دخل مدينة الجزائر بعد أن قطع فى طريقه وهران وتنس وجبال الونشريش ووادى الشلف . ووصل إلى حدود مملكة بجاية وبذلك حقـق يوسف بن تاشفين ما وقف دونه المسلمون الأوائل ، ومن قـبلهم الرومـان . وأهل البلاد لأنفسهم : وصاغ وحدة إسلامية تمتد إلى ضفاف نهـر الـسنغال والنيجر ثم فى أرجاء المغرب الشمالى من الجنوب إلى الشمال . ومن غربـه إلى شرقه .وبذلك انفرد يوسف بن تاشفيه بالفخر وحده لهذا العمـل علـى رأس شيوخ المرابطين، حيث قاد ووجه منذ عمليـة تامهيـدت إلـى عمليـة الجزائر، وأقام مجتمعاً جديداً فى هذه المنطقة أو فى تلك المناطق جميعها على نمط المثال المالكى، الأمر الذى رفع المالكية من مستوى المذهب إلى مستوى الدين ، وأثبت مدى استجابة المغرب لدواعى حضارته الإسلامية ، وإمكانياته المدخرة فى خدمة الإسلام (٤).

وعموما فوصول الدولة المرابطية إلى هذا الإمتداد على طول البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، تكون قد تهيأت تماماً للقيام بدورها فى الصراع مع أوربا وإنقاذ المسلمين فى الأندلس .

ولعل القارىء قد لاحظ من خلال ما تقدم أنه لايمكن إنقاذ المسلمين فى الأندلس غير هذا الكيان الجديد الممثل فى دولة المرابطين وعلى يد يوسف بن تاشفين على وجه الخصوص . فمنذ أن سقطت الأندلس فى هوة الانقسام والتشرزم والصراع الإنتحارى، وتمزقت بين ملوك الطوئف. فبينما كانت حركةالاسترداد المسيحى للأندلس تجرى على يد سانسو الكبير ثم على يد ولده فرناندو الأول ومن بعده الفونسو السادس ، كان عبدالله بن ياسين يظهر بين قبائل الملثمين فى " أزقى" مركز قبيلة المتونة ، ثم يخرج منها ليؤسس رباط السنغال . ثم يتوسع من هذا الرباط جنوباً وشمالاً ، ويتولى بعده يوسف بن تاشفين، فيمد حدود الدولة شمالاً وشرقاً فى الوقت الذى كان فيه الفونسو السادس يقوم بهذا العمل على حساب الدويلات الطائفية جنوباً . فكان كلاً من الخصمين كان يقترب من الآخر على غير تدبير ، حتى إذا ما استكمل يوسف بن تاشفين فتوحاته شرقاً فى الجزائر حتى " وجدة " سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨٧ م ، كان الفونسو السادس يثب وثبته التى استولى فيها على طليطلة سنة ٤٧٨/ ١٠٩٢م . وبذلك أصبح الخصمان وجها لوجه(٥).

وذلك أن سقوط طليطلة كان نذيراً لكل ملوك الطوائف بالمصير الذى سوف ينتظرونه وينتهون إليه . وفى الوقت نفسه ملأ النفوس رعباً . " حتى انقطع الرجاء من استيطان الأندلس " . وعندئذ هب الجميع للبحث عن منقذ ، وتركزت الأبصار على المرابطين طلباً للإغاثة .

ويختلف المؤرخون حول من طلب الإغاثة : هل هم الفقهاء أم الأمراء ؟ فترى بعض المصادر أن المعتمد بن عباد" أمير أشبيلية " حين أدرك ألا قِبَلَ له

بالوقوف في وجه الزحف المسيحي الذي يقـوده الفونـسو الـسادس ، قـرر الاستعانة بالمرابطين. وقد حذره ابنه الراشد من أن يطمع المرابطون في ملكه ، وينتزعونه منه ، فرد قائلاً :" لأن أكون سائق جمال في صحراء أفريقيـة ، خير من أن أرعى الخنازير في " قشتالة " [٦] .

على أن المصادر الأخرى تذكرأن طلب النجدة إنما فرضته الجمـاهير الأندلسية على حكامها ، فتبناه الأمـراء مـداراة لجمـاهيرهم. إذ تـروى أن اجتماعاً عقد في قرطبة دعا إليـه فقهـاء الأنـدلس ، وقـرروا الاسـتعانة بالمرابطين. وكلف الفقهاء أبا الوليد الباجي بالطواف على أمـراء الطوائـف يدعوهم إلى هذه الفكرة . وكان ضغط الفقهاء أمرا لاينبغي التغاضي عنه.

على أن غالبية ملوك الطوائف كانت تتوجس خيفة من دعوة المرابطين للقدوم إلى الأندلس، وكانوا يحتجون بأن "السيفين لايجتمعان في غمد واحد"، أي أنهم لا يجتمعون أبداً مع المرابطين في غمد واحد هـو "الأنـدلس". ونـصحوا المعتمد بن عباد بمداراة للفونسو السادس ومصانعته وإجابته لما يطلب[٧].

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الإحساس بالمجتمع الأندلـسي كـان يجمع بين المسيحيين والمسلمين رغم اختلاف الدين . ويرون أن هذا الشعور هو الذي دفع الأندلسيين إلى عداوة المرابطين . وهؤلاء ينسون أن غرض وهـدف الفونسو السادس كان طرد المسلمين من الأندلس ، واسترداد شـبه الجزيـرة الأيبيرية من أيديهم ، وبالتالى لم يكن هناك مثل هذا الإحساس ليـربط بـين الفريقين. ولكن الاستعانة بالممالك الأسبانية كان أمراً اعتيادياً من جانب أمراء الطوائف آنذاك . بل أن المعتمد بن عباد سبق له أن حالف الملـك الفونـسو السادس ضد زميله ملك طليطلة ، على أنه بعد أن أحسّ بأن ملكه ذاهب إلى يده ، فضّل – كما قال– " أن يكون راعي غنم في أفريقية علـى ألا يرعـى الخنازير في قشتالة" [٨] .

وعلى العموم فإن ضغط الفقهاء نجح فى حمل أمراء الطوائف على الاستعانة بالمرابطين ، وكان الذين أوفدوا وفودهم سنة ٤٧٩هـ / ١٠٩٣ م إلى يوسف بن تشفين أربعة أمراء هم : المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية ، وابن الأفطس، صاحب بطليوس ، وعبدالله الزيرى صاحب غرناطة ، وأخوه صاحب مالقة .

وعندما وصلت الدعوة إلى بن تشفين شاور أخوته وبن عمّه ، فأصبح رأيهم الذى كان أشبه بفتوى دينية، على أن " من واجب المسلم إغاثة أخيه المسلم " . ثم استشار بن تاشفين فقهاء المغرب فأفتوه : " بأن مجاهدة الإفرنج فريضة " وبذلك بدأ فصل جديد فى الصراع بين العرب وأوربا فى الأندلس .

معركة الزلاقة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦م :

عندما انتهى الأمر إلى يوسف بن تاشفين بضرورة محاربة الفونسو السادس، باعتباره فريضة جهاد ضد المشركين، فرضته الأحوال المتردية والتشرزم السياسى فى بلاد الأندلس، قررعبور البحر والمحيط من أفريقية إلى الأندلس فى عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م، فكان حدثاً من أحداث التاريخ الكبرى وعلامة بارزة فى تاريخ الصراع بين العرب وأوربا . إذ سينهى عهداً من التمزق والضعف وحالة التردى للمسلمين فى الأندلس امتد نحو(٨٠ عاما) أى ما يقرب من قرن من الزمان (٣٩٩-٤٧٩هـ) . ويعيد الأندلس إلى سابق عهدها : قلعة عربية موحدة تقف فى وجه أوربا على مستوى متكافئ ، وتنتزع منها الإحترام ،وتكيل لها الضربات وتلحق بها أفدح الهزائم (٩) .

وتعتبر قوة المرابطين من قوى التجديد فى العالم الإسلامى فى ذلك الحين، وهى تمثل فى المغرب الإسلامى ما ممثلته دولة السلاجقة فى المشرق الإسلامى ، من نهضة وبعث ، وتتفق فى ظهورها مع ظهور تلك الدولة . وقد لعبت نفس الدور الذى لعبته أيضا، مع فارق واحد هو أن دولة الصلاجقة

حاربت امبراطورية هرمة دبت فى أواصلها السوس الذى ينخر فى العظم ، هى تلك الإمبراطورية البيزنطية حينما كانت فى إحدى مراحل ازدهارها فقربت نهايتها . بينما حاربت دولة المرابطين قوة بازغة ودولة فتية هى قشتالة التى هددت بانهاء صفحة المسلمين فى الأندلس ، فأزالت خطرها،وأضعفت قوتها، ثم تصدت للدولة المسيحية الأخرى التى رفعت لواء الزعامة ، وهى أرجونة ، فألحقت بها الهزائم، وأعادت الثقة للمسلمين فى قدرتهم على إحراز انتصارات على أوربا مرة أخرى، بعد أن نسى الناس هذه الإنتصارات فى ظل الإنقسام وملوك الطوائف .

ولعلك تتفق معى أيها القارئ الكريم، على أن دولة المرابطين قامت على مبدأين هامين - كما ذكرنا من قبل - هما: مبدأ الجهاد ومبدأ الوحدة. فأما مبدأ الوحدة فقد حققت هذه الدولة ما لم يستطع المسلمون الأوائل تحقيقه، ولا الرومان أنفسهم الذين سبقوا المسلمين إلى هذه البلاد. فلقد صاغت دولة المرابطين وحدة إسلامية تمتد إلى ضفاف نهر النيجر والسنغال جنوباً، وإلى ساحل المحيط الأطلسى غرباً وتشتمل على أرجاء المغرب الشمالى من شرقيه إلى غربيه. أما بالنسبة لعامل الجهاد : فنحن أمام دولة قدست الرباط منذ نشأتها، وغيّرت بيئتها عدة مرات، من الصحراء إلى جبال المغرب، ثم إلى جبال الأندلس، بكل ما كان يتطلبه هذا التغيير من تكيف مستمر. وكان الجهاد ركناً من أركان مذهبها، وقد أملى عليها مواقفها السياسية جميعها؛ وهو مصدر إعجاب المؤرخين بها -ومصدر إعجاب المسلمين والمسيحيين على السواء[١٠].

فقد كان مبدأ الجهاد الدينى بالشكل الذى دانت به دولة المرابطين ؛من الأسباب التى جعلت هذه الدولة امتداداً للدولة الإسلامية الأولى، والتى اتصفت بالدين والطهر، إذ اتصف ملوك دولة المرابطين بالتقوى والورع والخشوع والإقبال على التفقه فى الدين .والإعتماد على الفقهاء والقضاة بشكل يكاد يكون كلياً . وتوسعهم بالتالى فى تطبيق مبدأ الشورى . وقد بلغ من استقامة هؤلاء

الحكام . واستقامة دولتهم ، أن أطلق بعض الباحثين على دولة المرابطين اسم " الدولة القديسة " . ولا يوجد من أرخ لها دون أن يعجب بها فى قرابة نفسه ويجلها بكل ما تحمل الكلمة من معنى .

وكما ذكرنا من قبل فى شأن اختلاف الفقهاء والأمراء الأندلسيين فى استقدام المرابطين للتصدى للفونسو السادس ملك قشتالة؛ يذكر بعض المؤرخين أن يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين كان يعد العدة للتدخل فى شئون الأندلس حتى ولو لم يستنجد به ملوك الطوائف . لقد نقل عن يوسف بن تاشفين قوله : " لأن عشت لأعيدن جميع البلاد التى ملكها الروم إلى المسلمين ، ولأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بها. ولا علم عندهم برخاء العيش " (١١) .

ولهذا السبب أخذ المعتمد بن عباد يماطل فى تنفيذ الاتفاق الذى أبرمه مع يوسف بن تاشفين ، وكان يقضى بتسليم المرابطين " الجزيرة الخضراء " بينما المعتمد بن عباد ينتظر ويفكر فى الأمر، فوجئ قوات أشبيلية بقوات المرابطين تحدق بهم بعد عبورالمضيق ، وتستولى على الجزيرة . وعندما عارضه الراضى بن المعتمد فى ذلك، رد عليه داود بن عائشة قائد الجنود "وعدتمونا بالجزيرة الخضراء ، ونحن لم نأت بأخذ بلد ، وأنما آتينا للجهاد ، فإما أن تخليها من هنا إلى وقت الظهر من يومنا هذا، وإلا فالذى نقدر عليه نصنع " . فلم يجد أمير أشبيلية بداً من التسليم بالأمر الواقع (١٢) .

وعلى هذا ، اتخذت طلائع المرابطين من الجزيرة الخضراء معسكراً كبيراً ، وقاعدة عسكرية تتدفق عليها قواتهم . ثم اتجهت بقيادة بن سليمان داود بن عائشة صوب أشبيلية ؛ فإنضمت إليها قوات المعتمد بن عباد . والمتوكل بن الأغطس ، وبعض قوات ابن صمادح صاحب المرية ، وصاحب غرناطة والثغر الأعلى ، وابن ذى النون وابن عزون " حتى لم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر وأعان وخرج وأخرج " .

ومن الطريف أن منظر المرابطين في البداية كان صدمة لأهل الأندلس الميسورين، الذين يعيشون عيشة مترفة ، والذين لم يرقهم من قبل خشونة وجلافة الفونسو السادس وجنوده،وهزأوا بقذارة أظفاره ورائحة ثيابه . فعندما هرعوا لرؤية المرابطين من كل مكان ، تعجبوا لهيئاتهم ، واحتقروا زيهم ونغماتهم ، واستصغروهم ، وقدروا أنهم سيكونون " طعماً للسيوف ، وغرضاً للحتوف ، وهدفاً للرماح ،ونهباً للسلاح " وفى الوقت ذاته لم يرق للمرابطين البزخ الذى يعيش فيه الأندلسيون ، فقد وصف يوسف بن تاشفين الترف الذى يعيش فيه المعتمد بن عباد ، وقصوره الكثيرة الفخمة بأنه : " مضيع لما فى يده من الملك، لأن هذه الأموال بهذا القدر ، قد أخرجت فى الترهات ، وإن هذا لمن أفحش الإستهتار ".مع أن المعتمد بن عباد كان من أفضل الملوك ، وكان مفخرة عصره ثقافة وفروسية. وقد دل على بعد نظره بإستنجاده للمرابطين .

وعلى صدمة هذا اللقاء بين مجتمع البداوة والحضارة ، لم تمنع الجميع من الشعور بالحماس لعودة الوحدة إلى صفوف المسلمين ، ووصل ما أنقطع من تاريخ الأندلس ،منذ وفاة المنصور بن أبى عامر ، الذى ألقى الفزع واليأس فى قلوب ملوك الأسبان(١٣).

وأحس المعسكر المسيحى بالخطر ، وكان الفونسو السادس يشدد الحصار فى ذلك الوقت على سرقسطة، فاضطر إلى رفع الحصار . وبدأ يحشد القوى الأوربية كلها وراءه ، ودوت أصوات استغاثته فى أرجاء أوروبا كلها ، فرفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم، ونشروا أناجيلهم وخف الفرسان من إيطاليا ومن وراء جبال البرانس ومن قشتالة وأرجونية وغاليسية وليون واستورياس وأخذت قوات الفونس السادس تتقدم جنوباً لملاقاة المسلمين.

وهكذا كانت قوى العرب وأوربا تحتشد لهذه المعركة التاريخية العظيمة التى جرت فى رجب سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م ودخلت التاريخ تحت

اسم " معركة الزلاقة" ويتفق المؤرخون على أن الفونسو السادس هو الذى بدأ بالهجوم ، اعتداداً بقوته من جهة وليأخذ العرب على غرة من جهة ثانية . وكانت قوة المسلمين قد اتجهت إلى بطليوس وعسكرت فى منطقة يقال لها " فحص الزلاقة " وهو اسم حرّفه المسلمون بتقديم اللام على القاف ، إذ أن أصله الأندلسى " أزقاله " ، ويسميه الأسبان أيضا " سكر الياس " وهو اسم يحمل معنى بلاط الشهداء ،كما يقول الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة وقد انقسمت القوات الإسلامية إلى معسكرين ، معسكر الأندلسيين ومعسكر المرابطين، وفقاً لما كان متبع بالنسبة لأمرائهم (١٤) .

وكانت خطة الفونسو، التخلص أولاً من الأندلسيين، الذين كان يراهم أضعف الطرفين الحليفين ، فإذا قضى عليهم أضعف قوة الطرف الآخر المتمثل فى المرابطين . وبالفعل استطاع أن يلحق الهزيمة بالقوات الأندلسية ، وأخذت تتقهقر إلى أسوار بطليوس فأرسل إليها يوسف بن تاشفين فرقة من القوات المرابطة بقيادة داود بن عائشة لشد أزرهم . كما أرسل فرقة أخرى بقيادة سيد بن أبى بكر ، تتكون من جنود زناتة ومغراوة،وأخيراً سار بنفسه على رأس جيش لمتونة فهاجم معسكرالعدو من الخلف وأضرم فيه النار ، فاضطرت قوات الفونسو السادس إلى الإرتداد لإنقاذ المعسكرمن الوقوع فى يد المرابطين. وعندئذ انقلب الأندلسيون من الفر إلى الكرّ ، وأصبح جيش الفونسو بين شقى الرحى .

وقد لعب الفن الحربى المرابطى دوره فى تقرير مصير المعركة؛ فبينما اعتمد جيش الفونسو السادس على الفرسان فى الزرد والدروع، تحركهم روح الشجاعة الفردية والفروسية ؛ إعتمد المرابطون على حيل حربية أخرى. فقد أقاموا صفاً من الإبل بمثابة درع يتقدم قواتهم المهاجمة ، ويوقع الرعب فى صفوف الأعداء . ويثير الاضطراب فى خيولهم . واستعانوا بالقذائف من السهام والرماح ، يصوبونها إلى الخيول فتسقط بالفرسان، حتى

صار كل فارس أوربى مشغولاً بفرسه يجر عنانه والخيول منتصبة على أقدامها الخلفية . وقد روى أ. عبد الله بن عنان الذى شهد ميدان المعركة حديثاً ، أنه لكثرة ما أطلق من سهام فى أثناء المعركة ، مازال منها باقيا إلى الآن ؛ بحيث يستطيع أى سائح إذا حفر الأرض بيديه أن يحصل على سهم . وقد وقع عبد الله عنان فعلاً على بعض هذه السهام فى أرض المعركة[١٥] .

أما الحيلة الأخرى التى استخدمها المرابطون فهى الطبول . فيذكر المؤرخ بيدال "Pidal" أنهم استعانوا بطبول هائلة لم تكد تدق حتى صمت الآذان بدويها المزعج . وألحقت الرعب فى قلوب الفرسان والخيل على السواء . ولا شك أنهم اقتبسوا طريقة الطبول من القبائل الزنجية الواقعة إلى جنوب حوض السنغال، كما يرى بعض المؤرخين ،لأن الطبول تلعب فى الفن الحربى عند الزنوج دوراً كبيراً فى المعركة.

وقد انتهت بذلك نتيجة المعركة بانتصار المسلمين وهزيمة الفونسو السادس، وأصيب الفونسو نفسه فى إحدى ركبتيه.

وقتل الكثيرون ، وهرب إلى تل قريب نحو ٥٠٠٠ ألاف فارس جرحى، فقدوا خيولهم ، وعليهم الدروع وألواح السيقان تثقل حركاتهم ولا يستطيعون خلعها والفرار خفافاً خوفاً على حياتهم . بينما كان المسلمون يجمعون الغنائم تحت أبصارهم . وأخيراً تسللت فلول الجيش القشتالى تحت جنح الظلام ، مخلفة ورائها للمرابطين نصراً عظيماً .

ترك يوسف بن تاشفين العدو يهرب من أمامه ، ولم يتعقبه ، مما أثار ذلك جدلاً عند المؤرخين . ولكن من الواضح أن الأحوال فى المغرب حتمت عودته ، لسبب وفاة أمير الملثمين الأكبر ، أبى بكر بن عمر ؛ فقد كان يوسف عامله على المغرب ، وهو أحق بأن يخلف أبا بكر بن عمر فى زعامة دولة المرابطين [١٦].

وكان من جراء هزيمة الفونسو السادس وانتصار المرابطين في معركة الزلاقة نتائج خطيرة ، كان لها تأثيرها فى مرحلة الصراع المقبل بين العرب وأوربا . فقد استرد الأندلس ثقته بنفسه ، وأحس بأن أيام المنصور بن أبى عامر الزاهرة قد عادت من جديد ، وفى الوقت نفسه استقرت هيبة الملثمين فى نفوس الناس بعد أن كانوا يستهينون بهم فى بداية الأمر ، ويتوقعون أن يصبحوا طعماً للسيوف . بل استقرت هيبة المرابطين أيضاً فى نفوس الأندلسيين ، أعنى هنا الأسبان النصارى ؛ " فأشربوا منذ تلك الواقعة خوفاً وانكماشاً " كما تدعمت هيبتهم أيضا فى المغرب . حيث قرئت رسائل النصر منم فوق منابر المغرب حتى مدينة المهدية والقيروان . وترددت أصداء النصر فى المشرق أيضاً ؛ إذ يقال أن تهنئة وصلت من الإمام الغزالى . وقد حمل يوسف بن تاشفين بعد هذا النصر لقب "أمير المسلمين وناصر الدين". واستتبع هذا اللقب الإتصال بالخلافة العباسية طلباً لصحة شكل الإمارة من الناحية الشرعية؛ لأن المرابطين كانوا مالكية يحتم مذهبهم استمداد الشرعية من الخلافة . وقد افتى الإمام الغزالى بنيابة ابن تاشفين .

وبناء على ما سبق ، اضطر يوسف بن تاشفين إلى العودة لبلاد المغرب ، بعد أن جمع أمراء الأندلس غداة الزلاقة فى مجلس عام .وأوصاهم بالاتفاق والائتلاف وتوحيد الكلمة ،لأن المسيحيين لم يتجرأوا على المسلمين ، إلا للذى كان من تشتيتنا ، واستغاثة البعض بهم على البعض .

كما ترك بالأندلس ثلاثة ألاف مقاتل للمرابطة فى الثغور وحماية الأندلس ، وأسند قيادة هؤلاء الجنود إلى أحد قادة الزلاقة وهو سيد بن أبى بكر (١٧).

على أن الأمور أخذت تسير بعد ذلك فى الأندلس وفقاً لميزان القوىالجديد الذى أحدثه عودة المرابطين . فصحيح أن نصرالزلاقة كان نصراً

ساحقاً، ولكن عودة يوسف بن تاشفين إلى المغرب جعلت هذا النصر غير حاسم. ويجب علينا أن نذكر أن عبور المرابطين إلى الأندلس، لم تكن بغرض الفتح ، وإنما كان بغرض الإنقاذ . وكان الاتفاق بين ملوك الطوائف يوسف بن تاشفين على أن يأتى بغرض الجهاد فقط. " وألا يتعرض لأحد من رؤساء الأندلس ،وألا يقبل من رعاياهم أحداً ولا قولا ولا يأخذ منهم بلداً " . ثم كان على يوسف بن تاشفين التعجيل بالعودة إلى المغرب لظروف وفاة أمير الملثمين الأكبر(١٨) .

وقد ترتب على ذلك أن وجود الملثمين فى الأندلس بعد معركة الزلاقة، لم يكن بالحجم أو الثقل الرادع للممالك المسيحية فى الشمال ، فى الوقت الذى أحست فيه هذه الممالك بالخطر على نفسها. وأخذت تنظم قواها من جديد لإزالة آثارالزلاقة ،بينما ركن ملوك الطوائف إلى الإسترخاء واعتماداً على المرابطين. وانصرف كل أمير إلى بلده ، وانصرفوا أيضا عن الجهاد إلى منازعاتهم الإقليمية. واضطر قائد الجيوش المرابطين فى الأندلس سيد بن أبى بكر إلى الكتابة إلى يوسف بن تاشفين يشكوا من الأوضاع التى يعانيها الجنود المرابطون فى الثغور ، ويقول : " إن الجيوش فى الثغور تقوم على المكابدة تجاه العدو وملازمة الحرب والقتال فى أضيق عيش وأنكده، وملوك الأندلس فى بلادهم وأهليهم فى أرغد عيش وأطيبه ".وأصبحت البلادفى الواقع فى حالة لا تمكنها من الدفاع عن نفسها .

فى تلك الظروف أخذ الفونسو السادس يعاود الكرة من جديد. فخرج غازية حتى وصل إلى قرب أشبيلية ، وأخذ الأسبان فى حصن ليبط ، المعروف فى اللغة الأسبانية باسم حصن أليدو ، وهو واقع فى أرض الإسلام بين مرسية ولورقة ، يعيثون فى منطقة مرسية ويهددون المعتمد بن عباد فى أشبيلية من جهة الشرق .

وهكذا، عادت الظروف تحتم العودة على يوسف بن تاشفين من جديد. وكان المعتمد بن عباد هو الذى استدعاه للمرة الثانية. فقد عبر إلى المغرب وقابله قائلاً: "وجئتك إحتساباً واجتهاداً واعتصاماً للدين وقد اشتد خطر النصارى من حصن لييط، وعظم أذاهم، ولا جهاد أعظم منه، ولا أثقل فى الميزان"(١٩).

على كل حال عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس مرة ثانية سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م. ونزل بقاعدته التى تنازل له عنها المعتمد بن عباد ،وهى الجزيرة الخضراء . وكتب إلى ملوك الطوائف لإرسال جيوشهم ؛ ثم غادر الجزيرة إلى مالقة ، ثم إلى المرية ودخل لورقة وهناك لحقت به قوات المعتمد بن عباد ، واتجهت القوات المتحالفة إلى حصين لييط على مسيرة نص يوم من مدينة لورقة حيث فرضت الحصار. وتوافدت آنذاك قوات غرناطة ومالقة والمرية وشقورة وبسطة وجيان ومرسية . واستمر الحصار لأربعة أشهر حتى جاء الشتاء ، فارتد يوسف بن تاشفين إلى لورقة . وفى تلك الأثناء تقدم الفونسو السادس إلى الحصن ،فأنقذ المحاصرين فيه ، ثم دك الحصن دكاً ،وانسحب إلى طليطلة حتى لا يشتبك مع المرابطين فتتكرر هزيمة الزلاقة ، وبذلك انتهى خطر هذا الحصن على اشبيلية وعلى المعتمد بن عباد .

على أنه فى أثناء الحصار تبين ليوسف بن تاشفين ضرورة إزالة حُكم ملوك الطوائف. وتوحيد الأندلس تحت حكم المرابطين. ذلك أن المنازعات تجددت هؤلاء الملوك أثناء الحصار وانكشفت العداوات، فلم يزد الرؤساء إلا توحشاً ، ولا الرعية إلا تسلطاً . وقد اتهم المعتمد بن عباد أمير مرسية ابن رشيق بمؤازرة الأعداء ، فاعتقله يوسف بن تاشفين ،فانسحب جنوده وفى تلك الظروف رأى ابن تاشفين الإرتداد إلى لورقة ، ولكن خوف الفونسو السادس من الاشتباك مع ابن تاشفين مرة أخرى دعاه إلى العودة إلى طليطلة كما ذكرنا بدلا من التقدم إلى لورقة . فكان انتصار لييط هو أثر من آثار معركة الزلاقة وما بثته من رعب فى قلوب الأسبان من لقاء المرابطين (٢٠) .

وقد عمد بن تاشفين على أثر ذلك إلى خلع ملوك الطوائف واستخلاص السلطة في يده. وكانت جماهير الأندلس وفقهاؤها يلحّون عليه فى ذلك . فلم يكن المرابطون – كما ذكرنا – دعاة جهاد فقط . بل كانوا دعاة إصلاح أيضاً . وكانوا امتداداً للدولة الإسلامية الأولى .ومن ثم كانت إصلاحاتهم الاجتماعية والاقتصادية تسير فى أعقاب جيوشهم ، فكانوا يقومون بالغاء الضرائب ولا يفرضون إلا ما أمر الله به فى كتابه وسُنة نبيه ؛ ولذلك كانت الرعية فى الأندلس تتردد على معسكرات المرابطين شاكية متظلمة ، طالبة العدل والإنصاف الذى يتمتع به المسلمون فى المغرب . وعندما كان بن تاشفن يحاصر حصن لييط . كانت الرعية تتوافد عليه شاكية مظلمتهم من جور أمرائها وتعسفهم. وكان ينصت إليهم فى عطف مما أوغر صدورالأمراء عليه .

غير أن يوسف بن تاشفين أراد قبل أن يخلع ملوك الطوائف إرهاب القوى الأسبانية فى الشمال. حتى لا تنتهز فرصة انشغاله بقتال هؤلاء الملوك، فتوجه له ضربة من الخف . فأطبقت جيوشه على طليطلة وحاصرتها ، وعاثت فى نواحيها، ووصلت فى زحفها إلى المدن فى الحدود الشمالية .كما حاصرت قلعة رباح التى تسيطرعلى الطريق المؤدى إلى مملكة قشتالة [٢١] .

ثم زحفت هذه القوات إلى غرناطة لاتصال أميرها عبد الله بن بلكين بالأسبان ودفع الجزية لهم . فعزلته فى عام ٤٨٣هـ /١٠٩١م كما استوت على البيرة ، وجيان ومالقة ، والمنكب فقضت بذلك على ملك بنى زيرى فى الأندلس . وأحس المعتمد بن عباد بالخطر، فقام بتحصين أشبيلية، وطلب معونة الأسبان ، فاستفتى المرابطون الفقهاء فى خلعه ، فأفتوا بذلك ، واستولت قوات المرابطين على أشبيلية فى رجب سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩٢م . كما استولت على قرطبة وقرمونة ورندة والمرية وبطليوس وشلب وبايرة والسهلة ودانية وشاطبة وبياسة وأيده وحصن بلييط وشقورة ؛ وأخذوا يهددون بلنسية وغيرها. وبذلك تم توحيد الجبهة الجنوبية فى الأندلس تحت حكم المرابطين.

وفى تلك الأثناء ظن الفونسو السادس أن الفرصة مواتية للإنتقام لهزيمة الزلاقة فحين استنجد المعتمد بن عباد به أرسل جيوشه بقيادة البرهانس لنجدته ، ولكن المرابطين سارعوا إلى لقاء هذه الجيوش بقيادة الأمير ابراهيم بن اسحق اللمتونى ،عند حصن المدور . ودارت رحى معركة انتهت بهزيمة القوات القشتالية وإبادتها . وكانت لهذه الهزائم تأثيرها فى اضعاف مملكة قشتالة .

ولم يلبث المرابطون أن تهيأوا لنضال آخر فى شرق الأندلس . وكان الشرق الأندلسى فى ذلك الحين قد أوشك على السقوط فى يدى القوى المسيحية بسبب تفتته بين أمراء المسلمين ، استقل كل منهم ببلد أوحصن. وأقام لنفسه دولة متسمياً باسم كبير . فكان هناك من أمثال هؤلاء " تأييد الدولة"، "صاحب لاردة" ، "سيد الدولة" صاحب طرطوشة و "حسام الدولة" صاحب شانت برية وغيرها من الأسماء كثيرة تحت نفوذ صغار الملوك. ولم يكن بشرق الأندلس من الكيانات الإسلامية الكبيرة غير دولة بنى هود فى سرقسطة . وقد تعاقب عليها ثلاثة أمراء على جانب كبير من الأهمية هم : المقتدر بالله (٤٤١-٤٧٤هـ) الذى وحّد الإمارة وعقد أحلافا مع جيرانه الأسبان أعانت دولته على البقاء، ثم المؤتمن (٤٧٤ -٤٧٦هـ) والمستعين (٤٧٨ – ٥٠١هـ) وقد تمكن من هزيمة قوات الفونسو السادس لأكثر من مرة ؛ كما اكتسب ود يوسف بن تاشفين، فلم يعزله، كما عزل غيره من أمراء الطوائف ، بل كتب له خطاب ، أمان من العزل .

على أنه فى تلك الأثناء كانت القوة المسيحية قد أخذت منذ معركة الزلاقة ، تتقدم صوب حوض الإيبرو . وتشدد الضغط على بنى هود بسرقسطة، بينما كانته سفن جنوه وبيزا تغير على موانىء الشرق الأندلسى. ولم يتنبه يوسف بن تاشفين ، الذى كان مشغولا بالجهاد فى الجنوب ، إلا والخطر قد أحدق بهذا الأقليم، ليتهدد بلنسية فى الصميم [٢٢] .

وقصة بلنسية تثير فى المؤرخين الإسلاميين كوامن الحزن . لأنها مأساة هزت للعالم الإسلامى فى ذلك الحين ، وأفزعت المسلمين فى المغرب والأندلس. فقد كانت ضحية مؤامرة بين الفونسو السادس والقادر بن ذى النون صاحب طليطلة (التى كان سقوطها سببا فى استدعاء المرابطين لإنقاذ الأندلس). ذلك أن الاتفاق كان قد تم بين الملك الأسبانى وأميرطليطلة على أن يسلمها الأخير له. مقابل تعويضه عنها ببلنسية، بعد انتزاعها من أميرها المسلم عثمان بن عبد العزيز . وقد استطاع الفونسو السادس هزيمة بن عبد العزيز وتولية القادر بن ذى النون عليها رغم إرادة أهلها [٢٣] .

وقد ظل القادر أميرا على بلنسية حتى تقدم المرابطين صوب مرسية واستولوا عليها، وتدفقوا صوب دانية وشاطبة، فأصبحت قواتهم تطأ إقليم الشرق، وتجاور إمارة بلنسية من الجنوب وذلك نشأ موقف جديد .

ذلك أن أهالى بلنسية انتهزوا فرصة وجود المرابطين فى الشرق ، فأعلنوا دخولهم فى طاعتهم ، ثم صاروا على القادر فقتلوه، وولوا عليهم القاضى جعفر بن جحاف، فصارأميرا على بلنسية ورمزاً لتطهير المدينة من الخيانة .

على أن هذه الثورة كانت بمثابة تحدى للقوى الأسبانية التى أعانت القادر بن ذى النون على بلنسية . وقد هبت هذه القوى لإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه والإنتقام من أهل بلنسية ، وكان على رأس هذه القوى فارس أسبانى من أشهر من يعتز بهم التاريخ السياسى الأسبانى ، ويحيطونه بهالات أسطورية ؛ وهو الذى عرف باسم " السيد القمبيوطر" أو " السيد القميطور" وكان هذا الفارس هو الذى تصدى له يوسف بن تاشفين .

الأندلس بين يوسف بن تاشفين والسيد القمبيطور :

على طول ملحمة الصراع بين العرب وأوربا على المسرح الأسباني برز أبطال عظائم أنتجتهم الظروف الدينية والاجتماعية والسياسية والتاريخية التي نشئوا فيها. وقد ظهر هؤلاءالأبطال في كلا الجانبين العربي والأوربي ، على السواء فرأينا في الجانب الإسلامي ، موسى بن نصير ، وطارق بين زياد ، والمسح بن مالك الخولاني ، وعبدالرحمن بن عبد الله الغافقي . وعبد الرحمن الداخل ، والحكم بن هشام الربضي، وعبدالرحمن الأوسط، ثم عبد الرحمن الناصر .والمنصور بن أبي علمروغيرهم ؛ أما الجانب الأوربي ، فرأينا فيه شارل مارتل ، وبلايو وشارلمان وسانشو الكبير وفرناندو الأول والفونسو السادس (٢٤) .

على أن أهم ما اهتم به تاريخ أسبانيا القومي، وأحاطه بهالات الأساطير، هو من عرف باسم " السيد القمبيطور " . ومن ثم فلا يتأتى أن تعرض بالدرس لتاريخ الصراع بين العرب وأوربا في الأندلس أن يغفل شأن هذا الفارس أو يهمل أمره، ليس فقط لأنه بطل من أبطال الإسترداد المسيحي لأسبانيا؛وإنما لأنه قطع شطراً من حياته في القتال في صفوف المسلمين .

والإسم الأصلي للسيد القميطور هو لذريق (رودريجو). وقد تعرف القرّاءالمتتبعون لهذه الدراسة على هذا الاسم عند الفتح العربي لأسبانيا لأن صاحبه كان ملك القوط الذى انتزع منه العرب أسبانيا (الأندلس) . ومن هنا نسب المؤرخون إلى الأخير القول بأن الأندلس ضاع على يد لذريق وسيعود إلى المسيحيين على يد لذريق آخر . وطبعاً أثبت التاريخ أنه كان فعاليا في التفاؤل، لأنه مات بعد أن أثخنه القتال ، والأندلس مازال في يد المرابطين(٢٥).

ومن الطريف أن السيد القمبيطور لم يكن ملكاً على أية جهة من الجهات وإنما كان مجرد فارس من الفرسان . ذلك أنه في أثناء الحروب

الطويلة التى دارت بين ملوك أسبانيا النصرانية بعضهم وبين المسلمين ، ظهرت فى صفوف جيشهم أو جيوشهم طائفة من الفرسان ذوى القدرة والكفاءة الفردية ، ساعدة على ظهورهم ظروف المجتمع الإقطاعى السائد فى ذلك الحين ، وقد نسجت حولهم الأساطير . فظهر فى الجانب الإسلامى على الحدود الإسلامية فى آسيا الصغرى " السيد البطال " وفى المغرب " أبو زيد الهلالى " و " الزناتى خليفة " وفى الجانب الأوربى ، ظهر الإنجليزى جون هوكود ، والأسبانى ، ريموند القرطبى ، والقشتالى ، لذريق أو السيد القمبيطور .

وهؤلاء يمثلون مجموعة من القادة المستقلين من الفرسان، منفصلة عن التبعية لملك من الملوك: وتطلق عليهم المراجع العربية اسم " رؤساء الحرب " ويعرفون فى المراجع الأجنبية باسم ، كوندتيورىCondottior . وقد كثرت مجموعاتهم فى أسبانيا وايطاليا وفرنسا فى العصور الوسطى ، والتحموا بأحد جوانب الصراع بين البابوية والإمبراطورية، وبين المرابطين والممالك المسيحية فى أسبانيا . فهم مرتزقة العصورالوسطى.

ولم تعرف أسبانيا نظام الفرسان إلا متأخراً من غرب أوربا. وقد درج ملوكها على اختيار الفرسان من أبناء المزارعين وصغار الناس ؛ لا من أبناء النبلاء كان الحال فى فرنسا مثلاً . ولذلك كان البلاء يحتقرونهم وكان السيد القمبيطور من أبناء الأصاغر . وقد عاداه النبلاء الفرسان لهذا السبب ، وكان لهذا أثر بعيد فى تاريخه.

وقد بدأ القمبيطور حياته فى بلاط الملك فرديناندو، أو (فرناندو) الأول كفارس من فرسان ابنه الأمير سانشو الذى رسمه فارساً سنة ١٠٦٣م . وكانت قشتالة نذاك فى صراع وحروب مع جارتها أرجونة ، فاشترك السيد القمبيطور فى هذه الحروب . وعن طريق هذه الحروب المعقدة ،التى أحيانا تأخذ شكل أحلاف مسيحية إسلامية ضد أحلاف مسيحية أو أحلاف مسيحية

إسلامية أخرى . حارب القمبيطور إلى جانب المسلمين فى أول معركة يذكرها له التاريخ[٢٦].

ذلك أن دولة بنى هود فى سرقسطة أنذاك كانت قد تمكنت من الاحتفاظ باستقلالها عن الحروب والصراعات بين الممالك المسيحية . فدخلت فى محالفات مع هذا الطرف ضد الطرف الآخر لتضمن الدفاع عنها عند تعرضها لأى هجوم. فقد تحالفت فى البداية مع مملكة أرجونة ؛ وكانت تدفع لها الجزية، ثم تحولت إلى حلف قشتالة – ليون . فتعرضت بذلك لعداء أرجونة . وقد انتهزت هذه الأخيرة فرصة سير فرناندو الأول نحو أشبيلية سنة ١٠٦٣م. فسيرت جيوشها لمهاجمة سرقسطة، ولكن فرناندو الأول عجل بإرسال ابنه سانشو لمساعدة سرقسطة، وكان فى فرسانه السيد القمبيطور، فدارت عن بلدة "جرادوس" معركة حامية بين الجيش الإسلامى المسيحى لسرقسطة وقشتالة . وكان على رأسه المقتدر أحمد بن هود وسانشو والسيد القمبيطور- وبين جيش أرجونة، على رأسه الملك راميدو أو(رنمير). انتصر الجيش الإسلامى القشتالى على جيش أرجونة انتصارا كبيرا حتى ليقال إن راميدو قتل فى المعركة. وهكذا كان أول قتال للسيد القمبيطور فى صفوف المسلمين .

وفى الفترة التالية دخل الصراع بين الممالك الأسبانية وبعضها البعض طوراً آخر، ذلك أن فرناندو الأول مات بعد معركة جرادوس بعامين بعد أن قسم مملكته بين أبنائه الثلاثة. فتولى سانشو عرش قشتالة ، وتولى الفونسو السادس عرش ليون، وتولى جارسيا عرش جليقية (غاليسيا). وسرعان ما نشبت الحرب بين الأخوة ، ولكن سانشو بمساعدة القمبيطور هزم أخويه وضم إليه أملاكهما . ولجأ الفونسو إلى أمير طليطلة المسلم ، المأمون بن ذى النون ، فأكرم لجوءه وعاش عنده مكرما حتى سنة ١٠٧٢ م .

وقد رد الفونسو السادس على هذا الجميل فيما بعد بالإستيلاء على طليطلة!! ذلك أن وجوده فى هذه الإمارة طوال عامين قد مكنه من معرفة

مواطن الضعف والقوة فيها . وقد انتفع بهذه المعرفة عندما آل إليه ملك قشتالة وليون . ففى سنة ١٠٧٢م، قتل سانشو الثانى عند أسوار سمورة . ولـم يجـد رجال قشتالة وليون بداً من استدعاء الفونسو السادس من منفاه فـى طليطلـة وتوليته العرش طبقا للقانون . فاستدعاه القمبيطور ، وجعله يقسم بين يديه فـى جمع حافل من رجال قشتالة وليون، أنه لم يكن له ضلع فى قتل أخيه سانشو الثانى . ولكن الفونسو السادس لم يكد يستقر علـى العـرش حتـى عـزل القمبيطور من قيادة الجيش . لما لاقاه على يديه من الهزيمة أثناء قتاله مع أخيه سانشو الثانى (٢٧) .

ومنذ ذلك الحين أخذ السيد القمبيطور ينزع إلى الإستقلال فى تصرفاته. فمع أن الفونسو السادس ، استبقاه فى خدمته إلا أنه دخل فى الصراع الدائر بين أشبيلية التى كان يحكمها المعتمد بن عباد وبين غرناطة وعلى عرشها عبـد الله بن زيرى : وانتصر لأشبيلية على الرغم من أن غرناطة هـى التـى كانـت متحالفة مع الفونسو السادس ، بل حارب فى صف المعتمد بـن عبـاد ضـد جيوش بلده قشتاله ، وانتهى الأمر بغضب الفونسو السادس عليه وإصدار قرار بنفيه خارج البلاد (٢٨) .

وقد كان هذا القرار بالنفى قراراً قاسياً ، إذ كان يتعين على المنفى ترك أملاكه والخروج مع أتباعه ومحاولة الإلتحاق بخدمة سيد آخر ، وهذا ما فعله السيد القمبيطور. إذ خرج من قشتالة سنة١٠٨١م ومعه نحو٣٠٠ فارس من أتباعه ، وعرض نفسه على المؤتمن يوسف بن هود، أمير سرقسطة ، فقبل . وبذلك بدأت صفحة جديدة فى الصراع المعقد بين الدويلات الأندلـسية وبـين الدول المسيحية لعب فيها السيد القمبيطور دورا هاماً . ذلـك أن القمبيطـور أدى خدمات جليلة لبنى هود طوال السنوات الخمس التى قضاها فى خـدمتهم، ولم يتردد فى محاربة أرجونة وبرجلونة لحسابهم . وكانت إمارة سرقسطة حين دخلها القمبيطور بين شقى الرحى بين صاحب كتالونيا وبرشـلونه وأرجونـة

منجهة ، وبين صاحب قشتالة من جهة أخرى. وقد قاد القمبيطور جيوش يوسف المؤتمن بن هود إلى النصر ، فهزم الكونت رامون برنجار صاحب كتالونيا عند المنارة وأسره ، ثم أطلق سراحه، فعل نجمه وتناقل الناس قصص بطولته وفى الوقت نفسه فإن وجوده فى سرقسطة جعل الفونسو السادس يتجنب الهجوم عليها ليذيقها ما أذاق طيطلة فما بعد.

وقد كان أثناء خدمته لبنى هود أن تسمى باسم " السيد " فقد كان أفراد الجيش الإسلامى ينادونه(بياسيدى) وقلدهم فى ذلك جنده الأسبان فصاروا يخاطبونه بـ" ميوثيد " Mïocid . أى يا سيدى. فلزمته هذه التسمية من ذلك الحين واشتهر بها فى التاريخ ، أما كلمة القمبيطور فقد نالها أثناء مبارزته مع فارس نافلرى حين كان فى خدمة سانشو، وفاز بها "كامبيادور " Campeador ومعناها : الفارس النبيل . ومن هنا عرف بالسيد النبيل (السيد القمبيطور) .

وبعد معركة الزلاقة التى انتصر فيها يوسف بن تاشفين على الفونسو السادس سنة ١٠٨٦م. إنتقل السيد القمبيطور إلى الفونسو السادس من جديد، ذلك أن هزيمة الزلاقة هزت نفسه على الرغم من أنه لم يشترك فيها إلى جانب أخوته المسيحيين. فترك خدمة بنى هود، وصالح الفونسو السادس فى أواخر سنة ١٠٨٦ م . وجعله هذا قائداً على فرقة قشتالة مهمتها العمل فى شرق الأندلس . فبدأت مرحلة نضالية جديدة [٢٩].

فقد اتجه السيد القمبيطورإلى تحقيق أطماعه فى بلنسية متمرداً مرة أخرى على الفونسو السادس وفرض حمايته على القادر بن ذى النون . ولكن أهل بلنسية ، خلعوا القادر وولوا مكانه القاضى جعفر بن جحاف . فكان فى هذا تحديا للسيد القمبيطور، فحاصر المدينة حصاراً شديداً. ولكن المرابطين أرسلوا جموعاً كبيرة تحت قيادة الأمير أبى بكر ابراهيم اللمتونى ،وأدرك القمبيطورالخوف من قوة المرابطين؛ فبعث يستنجد بالفونسو السادس ، واقترب المرابطون من بلنسية . وتراءت لأهلها طلائع الإنقاذ فازداد دفاعهم عن بلدهم.

على أن انسحاب القائد المرابطى على هذا النحو كان سببا فى سقوط بلنسية فى يد السيد القمبيطور. فقد أيقن أهل بلنسية بالهلاك ، فى الوقت الذى زادت فيه المجاعة داخل المدينة، ولم يجد القاضى بن جحاف بداً من التسليم شرط ألا يؤذى القمبيطور أهل المدينة ، ودخل السيد المدينة فى مايو سنة ١٠٩٤ م ليخطب فى أهلها باللغة العربية ؟! معلناً عزمه على أن يحكم بالعدل والإنصاف" وقررت أقعد لسماع ظلماتكم يومين فى الأسبوع، الأثنين والخميس. وإذا وجد أحدا منكم مظلوما ، فليأتى أى يوم أراد ، فسيجدنى سميعاً ، ذلك لأننى لا أنفق وقتى مع النساء أو على الشراب وسماع الغناء كما يسمع ويفعل أصحاب الأمر فيكم ، أولئك الذين لم تكونوا تستطيعون رؤيتهم إذا أمست حاجتكم إلى ذلك . وأريد أن أكون لكم رفيقاً، أحميكم كما يحمى الصديق صديقه والقريب قريبه . ومهما وقع بينكم من منازعات وخصومات فسأقضى بينكم بالحق"(٣٠) .

بهذا الخطاب، أصبح السيد القمبيطور أميراً على بلد إسلامى، وكون إمارة من العسير تكييفها ، فلم يكن رئيس" دولة " لها كيان ونظام، وإنما كان قائد جماعة مرتزقة فيها القشتالى والليونى والمسلم والمسيحى . لم يكن داخلاً فى نطاق دولة كبيرة يعمل لحسابها. بل كان يعمل لحسابه الخاص.وإن كان بعض المؤرخين اعتبره أمير طوائف آخر استبد بناحية بلنسية. وإن كان أميراً مسيحياً وهو أمر فى ذاته طريف فى ذلك العصر الحاوى لكل طريف غريب فى بلاد الأندلس .

ومهما كان الأمر، كان سقوط بلنسية فى يد القمبيطور إيذانا بمرحلة جديدة بينه وبين المرابطين دخلت التاريخ تحت عنوان : " الصراع بين يوسف بن تاشفين والسيد القمبيطور" ذلك أن صراعاً عنيفاً نشب بين المرابطين فى دانية ومرسلية وبين القمبيطور فى بلنسية. وهو صراع اصطبغ بالأساطير . فقد صورت المراجع الأجنبية المواقع التى خاضها القمبيطور على أنها انتصارا

كلها ، وصورت كفاح المرابطين بأنه هزائم متلاحقة . فقد ذكر المؤرخان بيدال ودوزى أن محمد بن عائشة حاول أن يسترد بلنسية بجيش تعداده ١٥٠ألف فارس ، وثلاثة آلاف راجل وعسكر عند مدينة كوبرته Cuetra ولكن القمبيطور خرج إليه وهزمه بعد قتال دام عشرة أيام وكبده خسائر فادحة . وقد تصدى المؤرخون العرب لهذه القصة بالتشكيك ، فقد ذكر البعض أنه ليس من المعقول أن يهزم القمبيطور جيشاً قوامه ١٥٠ ألف فارس وثلاثة آلاف راجل من المرابطين، بقيادة بن عائشة مدوخ الفونسو السادس .وأنه لو حدث ذلك فعلاً ، فما كان الذى يمنع للقمبيطور بعد ذلك من الإنقضاض على دانية ومرسية ؟ بل وإخراج المرابطين من شرق الأندلس نهائياً وفرض سيطرته الكاملة عليها ؟.

من الواضح أن القوات المرابطية التى اقتربت من بلنسية كانت قوات قليلة العدد بقيادة أحد رجال بن عائشة ؛ بدليل أنه عندما أراد القمبيطور بعد ذلك أن يتوسع خارج بلنسية، لقيته قوات المرابطين بقيادة بن عائشة فناوشته وقاومته – كما يقول دوزى نفسه – الأمرالذى يبين أن هذه الحروب كانت مجرد اشباكات ومناوشات فقط، تبادل فيها الطرفان الهزيمة والنصر ، وليست معارك فاصلة[٣١] .

فقد حصل القمبيطور على نصر فى "بيرين" سنة ١٠٩٤ م . حين سيّر يوسف بن تاشفين قوة كبيرة من قواته إلى شاطبة شمال مرسية ، ولكن القمبيطور استنجد بملك أرجونة ، وعقد معه تحالفاً واستطاع بفضل هذا التحالف الحاق الهزيمة بقوات المرابطين عند بلدة بيرين Berien ، ثم الاستيلاء على قصبة" مربيطر " سنة ١٠٩٨م .

على أن المرابطين لم يلبثوا أن انتقموا لهذه الهزيمة بمعركة "كونسويجرا – Consuegra فى نفس العام ١٠٩٨م، حين أطبقت قوات محمد بن الحاج على

قوات الفونسو السادس عند هذا الموقع وأنزلت به هزيمة ساحقة وقتلت ديجو ابن القمبيطور ، الذى كان في التاسعة عشر من عمره ، وملأت قلب أبيه المغامر بمرارة الألم الذى لم يعرفه من قبل .

كذلك تمكنت قوات المرابطين من الحاق الهزيمة الثانية بالعدو "القمبيطور" على مقربة من جزيرة شقر Alcira فكانت فجيعة السيد فى ابنه ، ثم هزيمته فى " شقر" من الأسباب التى عجلت بوفاته سنة ١٠٩٩م بعد أن ظل سيد بلنسية خمس سنوات [٣٢].

على أن وفاة القمبيطور أعفته فى الحقيقة من تلقى الصدمة الثالثة بضياع بلنسية ذاتها. إذ سار محمد بن مزدلى أعظم قوات المرابطين إلى بلنسية لاستعادتها وقد حاولت "خيمينا" زوجة القمبيطور الدفاع عنها. ولكنها لم تستطع، وبعثت تستنجد بالفونسو السادس، فأقبل لنجدتها بقوات كبيرة ، ولكنه عندما رأى حجم قوات المرابطين، أدرك أنه لا فائدة من قتالهم، فانسحبت خيمينا من البلد، وعاد الفونسو السادس إلى طليطلة.وتبينت القوات المدافعة عن المدينة قلة جدوى المقاومة. فأحرقت البلد حتى جعلتها كومة رماد . وخرجت ودخلت قوات المرابطين المدينة فى منتصف رجب سنة٤٩٥هـ / أوائل يوليو١١٠٢ م ، واعتزلت خيمينا فى دير سانبدرودى كاردينا الذى دفنت فيه رفات القمبيطور .

وبانتهاء المرابطين من أمر السيد القمبيطور ، بطل الملاحم الأسبانية . على هذا النحو ، وباستردادهم بلنسية ، بقى أمر الفونسو السادس ملك قشتالة ، وبطل حركة الإسترداد المسيحى للأندلس " وقد كان حظ هذا الملك مع المرابطين هو الهزيمة على الدوام. فقد رأينا هزيمته فى الزلاقةسنة ٤٧٩هـ /١٠٨٦م . ومع أن المرابطين شغلوا بعدها بالجهاد فى الشرق الأندلسى ضد السيد القمبيطور ، إلا أنهم لم يغفوا عن أمر الفونس السادس . بل وقفوا له بالمرصاد وبينما كانوا يوطدون أقدامهم فى منطقة مرسلية ودانية . ويتطلعون

إلى استعادة بلنسية ،إشتبكت قواته مع قوات قشتالة عند بلدة "جيان " وأوقعت بالفونسو الهزيمة؛ ومزقت شر ممزق سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م . فكانت زلاقة أخرى فى آثارها العسكرية. ثم ألحقت الهزيمة بقوات الفونسو مرة أخرى عند كونيسويجرا – كما ذكرنا–عام ١٠٩٨ م/ ٤٩١هـ. وواصلت انتصاراتها ، فاشتبكت فى معركة حامية مع قوات الفونسو عند كاونكة (قونكة) الذى تسميه المراجع العربية " البرهانس" وهو فارس ليونى كبير (٣٣) .

وفى عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م ، توفى يوسف بن تاشفين بعد أن ثبت لواء الإسلام فى أرض الأندلس ،وأجج الحرب المقدسة التى خبت جذوتها فى عهد ملوك الطوائف ،واعاد الوحدة الإسلامية التى كانت قد تمزقت .وأعاد الأندلس مرة أخرى إلى القوة فى التعامل مع أوروبا . وكسر المد الإستردادى الذى قادته قشتالة تحت ملكها الفونسو السادس . وأضعف مملكته . ولكنه لم يقدر له أن يرى نهاية عدوه الفونسو السادس. بل قدر لولده على يوسف بن تاشفين أن يجنى ثمرة هذا النضال وهو ما حدث عن أقليش . فلم يكد يوسف بن تاشفين يختفى من المسرح السياسى، حتى ظن الفونسو السادس أن انتصار المرابطين كان بسبب يوسف بن تاشفين ، وليس بفضل النظام السياسى والاجتماعى الذى أرسوه فأخذ يتجرأ على الحدود .

على أن على يوسف بن تاشفين، بعد تلقيه البيعة فى المغرب ، سارع إلى الإنتقال بسرعة إلى الأندلس لاشعار العدو بأنه قائم فى الميدان، وأسند أمر الأندلس إلى أخيه أبى الظاهر تميم ، وأمره بالغزو.

وقد اختار أبو الطاهر حصن اقليس الذى كان العدو قد استولى عليه فى أعقاب استيلائه على طليطلة من يد أسرة ذى النون . وكان هذا الحصن قد سقط فى يد العدو مع أكثر الحصون الداخلة فى حوزة طليطلة. وقد اتجه إليه الطاهر فى ١٠ رمضان وضرب الحصار حوله فى ١٤شوال وشلت المفاجأة

العدو ، فانهارت مقاومته .واقتحم الملثمون السور ودخلوا المدينة، وسارع فرسان العدو إلى الاحتماء فى قصبة المدينة .

وقد لعب" المدجنون" (وهو الاسم الذى يطلق على المسلمين الذين يعيشون تحت الحكم المسيحى فى الأراضى الأندلسية المحتلة . ويقابل الاسم الذى يطلق على المسيحيين الذين كانوا يعيشون فى كنف الدولة الإسلامية فى الأندلس وهو اسم " المستعربين" لعبوا دوراً هاماً فى مساعدة القوات المرابطية . كما كان يفعل المستعربون فى مساعدة القوات المسيحية فى حركة الإسترداد الأسبانية [٣٤] .

وعندما علم الفونسو السادس بسقوط مدينة اقليش، حشد قوات كبيرة استعد بها لإنقاذ واسترداد المدينة. ولكن فتى صغيراً من المدجنين، كان أسيراً، هرب إلى جيش أبى الطاهر، وأبلغه بأخباره . وهنا كما يقول !الأمير أبو الطاهر تميم فى رسالته إلى أخيه على بن يوسف بن تاشفين . " استدنيت القائدين بين المجريين ابن عائشة وابن فاطمة وعبأنا الجيش ، وتحركنا مع الفجر يوم الجمعة، وكأن العدو فى دروع كالبوارى ، ورماح كالصوارى كأنما سجنوا فى الحديد واشتبكت الطوالع ، ثم تواقف القوم فبرز فارس من العرب ، فطعن فارسا منهم ، فأذراه من مركبه . ثم اختلطت الخيل فما نجا من العدو إلا أقلهم، وملأنا الأيدى بالسلب خيلاً وبغالاً وسلاحاً ومالاً ، مما طرحه العدو ساعة الفرار ، أما الحامية التى اعتصمت بالمدينة فأنها استسلمت بحيلة دبرناها وأخذناهم وقتلناهم.

كانت موقعة إقليش زلاقة أخرى بطلها الأمير أبو الطاهر تميم، وهى تشبه واقعة كونسويجرا فى تأثيرها على الملك الفونسو السادس [٣٥].

وهكذا بعد أن افتتح يوسف بن تاشفين عهده بهذه الانتصارات الرائعة. وثبت هيبة الدولة المرابطية، بعد أن كان العدو الأسبانى يتوقع زوالها. واصل

أبنائه من بعده هذه الانتصارت أبوالطاهر يوسف ، وعلى يوسف على العدو الأسبانى فى الأندلس .

على أن خطورة انتصارات المرابطين فى المغرب الإسلامى (أى بلاد الأندلس) هى أنها تمت فى مناخ اندلاع ما اصطلح عليه المؤرخون بـ "الحروب الصليبية" التى اشتعلت فى المشرق الاسلامى فى ذلك الحين . فاعادت التوازن إلى ميزان القوى إلى حين.

الأندلس الإسلامية والحروب الصليبية :

إذا كان الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس قد انتهى بهزيمة مسيحيوا الأندلس على يد الطاهر بن يوسف بن تاشفين أواخر القرن الخامس الهجرى، أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (٤٩١هـ /١٠٩٨م) واستقر الوضع فى الأندلس بنجاح المرابطين. فإن الغرب الأوربى قد نقل دائرة الصراع إلى الشرق فى بلاد الشام تحت شعار "الحرب المقدسة" والتى عرّفها المؤرخون بـ " الحروب الصليبية" ولسنا هنا بصدد متابعة هذه الحروب فى الشرق ولكن نتناول مايسمى بالحروب الصليبية فى بلاد الأندلس . وهى لا تنفصل أبدا عن دائرة الصراع بين المسلمين والغرب الأوربى ، فأى مكان أو زمان فهو صراع بين المسلمين والأوربيين مع اختلاف التسمية لهذه الحرب أو تلك .

ففى الوقت الذى كنا نتحدث فيه عن أحوال المسلمين فى الأندلس وصراعهم مع القوى الأوربية هناك . فإننا الآن نتناول هذا الصراع تحت اسم " الحروب الصليبية ضد المسلمين فى الأندلس" .

فلم تعبر الروح الصليبية عن نفسها تعبيراً عملياً فى الشرق الأدنى فحسب ، بل ظهرت هذه الروح العدائية ضد المسلمين فى المغرب (أى بلاد الأندلس) أيضا حيث دارت منذ القرن الحادى عشر الميلادى - كما أسلفنا -

حرب بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس لم تنته إلا بعد عدة قرون بطرد المسلمين من الأندلس .

ومن الملاحظ أن المؤرخ ابن الأثير، قد ربط بين الحرب الصليبية فى الشرق وبينها فى الأندلس، مما يوضح أن هذا المؤرخ الواسع الأفق ربط ربطاً قوياً بين أطراف الحركة الصليبية فى أسبانيا وصقلية وشمال أفريقيا والشام .

والواقع أن استيلاء المسلمين على أسبانيا أوائل القرن الثامن الميلادى وإقامة دولة إسلامية قوية بها ، كان أمرا لا يمكن أن تقبله الكنيسة الغربية أو شعوب أوربا المسيحية . فأسبانيا كانت من أولى البلاد الأوربية التى وصلتها المسيحية ،وظلت تحتل مكانة كبيرة فى العالم المسيحى الغربى بفضل ما صار فيها من أماكن مقدسة فى نظرالمسيحيين يحجون إليها من مختلف أنحاء العالم الأوربى الغربى لذلك ظلت القوى المسيحية فى غرب أوربا تتحين الفرصة المناسبة لاسترداد هذا الجزء المفقود من الوطن المسيحى . وحسبنا ما قام به شارلمان فى حرب ضد المسلمين فى أسبانيا فى أواخر القرن الثامن الميلادى/ الخامس الهجرى. وهى الحرب التى حرصت أغنية رولان فى القرن الحادى عشر الميلادى على إكسابها طابعا صليبياً واضحاً[٣٦] .

والملاحظ أن المسلمين فى الأندلس، لم يستطيعوا مطلقاً فى وقت من الأوقات أن يسيطروا سيطرة تامة على شبه جزيرة أيبريا : وإنما ظلت بعض الجهات وبخاصة فى الشمال الغربى خارجة عن نفوذ المسلمين، فقامت بها أربع دويلات مسيحية هى : مملكة ليون ومملكة نافارى، وكونتية برشلونة وكونتية قشتاله[٣٧] . ومن هذه الوحدات المسيحية انبعث الخطر الذى ظل دائماً يهدد المسلمين فى الأندلس . فى الوقت الذى تدهورت فيه الخلافة الأموية فى قرطبة حتى سقطت فعلاً سنة ١٠٣١م ولم يلبث أن وصل التوسع المسيحى على حساب المسلمين فى الأندلس درجة خطيرة فى عهد الفونسو السادس –

كما أسلفنا من قبل - وهو ملك ليون وقشتالة (١٠٥٥ - ١١٩٠) وهو الذى أوغل فى وادى نهر تاجة حتى استولى على مدريد ثم على طليطلة نفسها سنة ١٠٨٥ م، وبذلك خسر المسلمون معقلاً من أهم معاقلهم فى الأندلس[٣٨].

وكان لسقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ م دوى هائل فى أرجاء العالم المسيحى الغربى.إذ استثار الشعور والحماسة لطرد المسلمين كلية من أسبانيا . أما فى الجانب الإسلامى، فإن ضياع تلك المدينة ، التى هى من أهم البلاد وأحصنها [٣٩] هز المسلمين جميعا فى المشرق والمغرب . وجعل مسلمى الأندلس يفكرون فى طريقة فعالة لوقف الخطر المسيحى من ناحية ، واسترداد ما فقدوه من أراضى وبلاد من ناحية ثانية. وهنا لم يتردد ملوك الطوائف فى الإستعانة بالمرابطين - كما ذكرنا آنفا - فى شمال أفريقية .

وإذا كنا قد توقفنا باستيلاء المرابطين على بلاد الأندلس الإسلامية بأكملها، عدا مدينة طليطلة. فإنه بزوال دولة المرابطين من شمال افريقيا وحل محلها دولة الموحدين؛ فأن الموحدين قد فكروا بوصفهم ورثة المرابطين فى ضم الأندلس إلى ملكهم، واستطاع قائدهم عبد المؤمن أن ينجح فى ذلك سنة ١١٤٦م[٤٠] .

وفى ذلك الوقت كان المسيحيون فى أسبانيا قد وجدوا بطلا جديدا فى شخص ألفونسو الأول ملك أرغونة (١١٠٤ - ١١٣٤م) وقد استطاع الفونسو الأول هذا أن يواصل إغاراته العنيفة على المسلمين فى الأندلس حتى وفاته أمام أسوار بلنسية سنة ١١٣٤م عندما كان يستعد على رأس حملة لمواجهة المسلمين[٤١]. ولم تقتصر جهود المسيحيين فى تلك الفترة على ما قامت به أرغونة وملوكها ، إذ استطاع ريمون برنجار الرابع ، كونت برشلونة ، أن يغزو طرطوشة سنة ١١٤٨م . أما فى الجهة الغربية ،فقد تمكن الفونسو الأول ملك البرتغال من التوغل داخل الأراضى الإسلامية وراء نهر تاجة[٤٢] .

وثمة أهمية خاصة تسترعى الإنتباه ، للجهود الصليبية التى قام بها الفونسو الأول هذا ضد المسلمين بالأندلس ، وهو أنه استعان سنة ١١٤٧م/ ٥٤٣ هـ بأسطول صليبى يحمل جماعة من الأنجليز والفلمنكيين والألمان كانوا فى طريقهم إلى للشام للمشاركة فى الحملة الصليبية الثانية ، فاستوقفهم الفونسو الأول ، وتمكن بمساعدتهم من طرد المسلمين من لشبونة التى غدت عاصمة مملكة البرتغال الناشئة(٤٣) . وهكذا لم يقتصر ميدان الحروب الصليبية لذلك العصر على المشرق الإسلامى والأراضى الفلسطينية ، بل شمل أيضا بلاد المغرب وأسبانيا ، فأسهم الصليبيون الفرنسيون والألمان والأنجليز فى فتح لشبونة . كما اشترك الصليبيون الفرنسيون فى مساعدة برنجار كونت برشلونة وبروفانس . هذا فى الوقته الذى مد فرسان الداويى والإسبتارية نشاطهم إلى وادى نهر ابرو فى أسبانيا فضلاً عن بلاد الشام(٤٤). ولم تلبث هيئة الرهبان السسترثيان أن أقامت لنفسها مركزاً فى أسبانيا سنة ١١٤٩م / ٥٤٥هـ . حيث قامت قوة حربية للدفاع عن مصالحهم من ناحية ولحرب المسلمين من ناحية ثانية ، ثم تكاثرت بعد ذلك فى أسبانيا المنظمات الدينية ذات الصبغة العسكرية ، مثل هيئة (ست يوحنا) أو ست جوليان) التى أسسها ملك ليون سنة ١١٥٢م / ٥٤٧هـ . والتى اتخذت بعد ذلك سنة (١٢١٨) اسم منظمة القنطرة ؛ وذلك عندما استولى المسيحيون على بلدة القنطرة الواقعة على نهر تاجة، واتخذها أولئك الفرسان مركز لنشاطهم الدينى والعسكرى(٤٥) .

ولم تتردد البابوية فى تشجيع تلك المنظمات الدينية التى نهضت فى أسبانيا بالدور نفسه الذى قامت به هيئة الداوية والإسبتارية والتيتون فى بلاد الشام . بل إن الفضل يرجع إلى البابا اسكندر الثالث والبابا إنوسنت الثالث فى قيام أشهر منظمة دينية حربية عرفتها أسبانيا وهى منظمة سنتياجو .

وبفضل نشاط هذه الهيئات وجهودها إشتدت حماسة المسحيين فى حرب المسلمين فى الأندلس ، كما أخذ الطابع الدينى يغلب على هذه الحرب ليجعل

منها حرباً صليبية مقدسة - فى نظر الأوربيين - لا تقل أهمية فى نظر الأوربيين المعاصرين عن الحرب الصليبية الدائرة فى المشرق الإسلامى(٤٦). وهكذا دخل الصراع بين المسيحيين فى أسبانيا دوراً جديداً لم يعد فيه حرب محلية متفرقة بين حكام المسلمين والمسيحيين ،وإنما أصبح صراعاً شاملاً بين حضارتين مختلفتين وديانتين سماويتين متباينتين. ظلا يتقاسمان النفوذ ويتنازعان السيادة على ذلك الركن الجنوبى الغربى من أوربا طوال عدة قرون (الأندلس) (٤٧) .

وفى هذه الحروب أظهر الموحدون (ورثة المرابطين) مقاومة عنيفة حتى أنزلوا هزيمة ساحقة بالفونسو التاسع ملك قشتالة سنة ١١٩٥م /٥٩٠هـ فى موقعة الأرك (٤٨) . على أن البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) وهو صاحب الفضل فى إثارة الحملة الصليبية فى أسبانيا وتشجيع المتطوعين من أهالى البلاد الغربية على المشاركة فى الحرب الدينية . ضد المسلمين - لم يستطع أن يسكت على هزيمة الأرك . ولم يلبث هذا الباب أن أعلن الحرب الصليبية ضد مسلمى الأندلس ، فاجتمع عدد كبير من فرسان أوربا للمشاركة فى تلك الحرب تحت زعامة رئيس أسقاف ناربون (٤٩) . وكان أن تضافرت فى تلك الحرب جهود ملك أرغونة وملك نافارى ، وملك قشتالة ، مما ساعد على انزال هزيمة كبرى بالموحدين فى موقعة العقاب سنة ١٢١٢م(٥٠). ولم تقم قائمة للموحدين بعد ذلك بالأندلس . وأخذت المدن والمعاقل الإسلامية فى أسبانيا تتساقط الواحدة بعد الأخرى فى قبضة المسيحيين ، بحيث لم يتبق للمسلمين فى أسبانيا عند منتصف القرن /١٣ م سوى مملكة غرناطة الصغيرة فى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة الأيبرية . وفى تلك الرقعة الضيقة بين جبال نيفادا والبحر ، قدر لبقايا دولة المسلمين أن تعيش فترة أخرى من الزمان بلغت نحواً من قرنين ونصف(٥١) .

على أن حركة التوسع المسيحى فى أسبانيا أخذت تسير بخطى سريعة على حساب المسلمين فى القرن الثالث عشر الميلادى ؛ فلم يكد فردناند الثالث ملك قشتالة (١٢١٧- ١٢٥٢م) يحقق الوحدة مع ليون سنة ١٢٣٠م ، حتى فتح قرطبة ، المقر الرئيسى السابق للخلافة الأموية بالأندلس سنة ١٢٣٦م . وحول جامعها إلى كتدرائية[٥٢]. وفى سنة ١٢٤٤م استولى فردناند الثالث على أشبيلية من المسلمين ؛ كما استولى على قادس وشريش سنة ١٢٥٠م ، وبذلك وصل إلى شاطئ المحيط الأطلسى فى حين استولى خليفته الفونسو العاشر على مرسية سنة ١٢٦٦م بمساعدة جيمس الأول ملك أرغونة [٥٣] . هذا فى الوقت الذى وصلت فيه البرتغال سنة ١٢٦٢م إلى حدودها الحديثة ، بعد أن انتزعت اقليم الجرف (الغرب) من المسلمين .

وهكذا لم يبق للمسلمين سوى مقاطعة غرناطة – كما أسلفنا- ولم تلبث أن تعرضت مملكة قشتالة للضعف فى أواخر القرن الثالث الميلادى ، فجاء ذلك مشجعاً للمسلمين فى محاولة لاسترداد سلطانهم المفقود بالأندلس . وكان أن عبر أمير فاس مضيق جبل طارق على رأس جيش كبير ، حيث انضم إليه أمير غرناطة وأخذ المسلمون يحاصرون طريف[٥٤] وهنا أحست قشتالة بالخطر ،فأسرع ملكها الفونسو الحادى عشر (١٣١٢- ١٣٥٠م) إلى تهدئة الموقف الداخلى فى بلاده ، ثم تقدم سنة ١٣٤٠ م لحرب المسلمين، فنجح فى أنزال الهزيمة بهم ، واستولى على بعض معاقلهم ، مما جعل أمير فاس ينسب إلى أفريقية [٥٥].

وكان الفونسو الحادى عشر يطمع فى الإستيلاء على جبل طارق ليحول دون وصول أمدادات فى المستقبل من مسلمى افريقية إلى أخوانهم فى غرناطة . ولكن الوباء الأسود الذى انتشر فى أوربا سنة ١٣٥٠م والذى شل حركة الحكام والمحكومين ، حال دون تنفيذ ذلك المشروع .

وإذا كان المسلمون قد وجدوا فى ضعف قشتالة منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ضمانا لبقائهم فى غرناطة. حيث ظلوا قابعين فى ذلك الركن الجنوبى من شبه الجزيرة يسالمون جيرانهم المسيحيين ، ويدفعون لهم الجزية ، اتقاء خطرهم ، فإن الموقف تبدل بعد توحيد قشتالة وأرغونة وزواج فردناند الكاثوليكى ملك أرغونة (١٤٧٩- ١٥١٦) من إيزابيلا ملكة قشتالة (١٤٧٤ – ١٥٠٤) . ويبدو أن مسلمى غرناطة فى القرن الخامس عشر ، غرهم الهدوء النسبى الذى ساد الحدود الفاصلة بينهم وبين جيرانهم المسيحيين فانقسموا على أنفسهم، وبددوا جهودهم فى محاربة بعضهم بعضاً دون أن يعملوا حسابا للقوة المسيحية الموحدة التى قامت على حدودهم . وفىالوقت الذى اشتد النزاع فى غرناطة بين أبى عبد الله الزغيبى من ناحية ، وأبيه أبى الحسن وعمه الزغل من ناحية أخرى ، حتى ارتمى أبو عبد الله الزغيبى بين أحضان المسيحيين وقصد قرطبة حيث تحالف مع فردناند الخامس وايزابيلا ، فى ذلك الوقت كان الملكان الكاثوليك – فردناند وإيزابيلا يعدان العدة لطرد المسلمين نهائيا من غرناطة[٥٦].

وأخيراً بدأ الهجوم المسيحى على غرناطة سنة ١٤٨١م ، فأخذت المدن والقلاع الإسلامية تتساقط واحدة بعد أخرى فى أيدى المسيحيين . ولم يتحرج أبو عبد الله الزغيبى فى تلك المرحلة الحرجة من تاريخ المسلمين فى الأندلس من محالفة الأعداء وإحباط الجهود التى بذلها عمه الزغل فى مقاومة النفوذ المسيحى[٥٧]. وكان الأوربيون قد تعلموا من العرب استخدام البارود والأسلحة النارية؛ فلجأ المسيحييون فى أسبانا إلى طعن المسلمين بسلاحهم، واستخدموا ذلك السلاح الجديد فى انتزاع حصن لورة ثم لوشة من المسلمين. أما مالقة فقد قاومت مقاومة عنيفة بفضل شجاعة قائدها حامد الزغبى؛ فلجأ المسيحيون إلى بث الألغام تحت أسوارها؛ وحضرت ايزابيلا بنفسها لتثير الشجاعة فى قلوب رجالها، حت نفذت الأقوات فى المدينة

فاستسلمت للغزاة المسيحيين[٥٨] وفى سنة ١٤٨٨م جدد فردناند هجماته على المسلمين فهاجم "بسطة" التى استمرت تقاوم الحصار ستة أشهر أنزلت فيها خسائر جسيمة بالمهاجمين حتى سقطت أخيرا سنة ١٤٨٩[٥٩].

وبسقوط "بسطة" أدرك الزغل أنه لافائدة من المقاومة، وأن دولة المسلمين بالأندلس زالت ، فعبر البحر إلى فاس حيث أساء إليه سلطانها وعذبه تعذيبا وحشياً ثم سمل عينيه وتركه يهيم فى الأرض شريداً [٦٠] .

ولا زالت غرناطة تقف وحدها بأيدى المسلمين ،وأخذ أميرها أبو عبدالله ينتظر الدائرة، التى لن تلبث أن دارت عليه ، وكان الزغيبى أضعف من أن يواجه جيوش فردناند وإيزابيلا - حليفيه القديمين - ولكن أهل غرناطة بزعامة الفارس موسى بن أبى الغسان صمموا على المقاومة،حتى اضطرت غرناطة إلى إلقاء السلاح قرب نهاية ١٤٩١م ، بعد أن وجدت نفسها وحيدة وسط محيط المسلمين، وبعد أن طال انتظارها لوصول النجدة المزعومة من مماليك مصر، أو سلاطين العثمانيين[٦١]. وبذلك زالت دولة الإسلام فى أسبانيا.

وهنا نؤكد أن تلك الحروب التى دارت بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا إنما كانت فى حقيقة أمرها حلقة أخيرة فى سلسلة الحروب الصليبية التى شنها الغرب الأوربى على المسلمين فى الشرق والغرب على السواء[٦٢].

وهكذا أعقب سقوط غرناطة موجة من التعذيب الوحشى الذى حل بمن بقى فى البلاد من المسلمين .ولم تنته هذه الموجة إلا فى القرن السابع عشر ، بعد أن عذب من المسلمين من عذب، وشرد من شرد ، وقتل من قتل . حتى لقد ثبت أن جملة من نفى من مسلمى الأندلس عقب سقوط غرناطة ، بلغت ثلاثة ملايين نسمة. وأغلق الستار على الصراع الصليبى الإسلامى فى الأندلس على هذا النحو .

هوامش الفصل الرابع :

(1) Cam. Med Hist. Vol. 3 , p. 425 .
وراجع : لين بول ، العرب فى أسبانيا، ص ١٥٤ .

(2) Dozy . op. cit , p. 511 .
وراجع أيضاً : سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٢٢.

(3) Dozy . op. cit , p. 139 .
وراجع أيضاً : لين بول ، المرجع السابق ، ص ٩٣- ٩٤ .

(٤) ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٣٢. وأنظر :
السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ،المجلد الثالث، العدد الأول ،مايو ١٩٥٠ ، ص ٥٩- ٦١ .

(5) Cam. Med Hist. Vol. 3 , p. 438 .
وراجع أيضاً : عاشور، المرجع السابق، ص ٥٢٨.

(6) Barker, the European Inhertance, Vol, I, pp. 376 – 377.

(7) Painter , A Hist. of the Middle Ages, p. 193 .
وانظر : عاشور، المرجع السابق، جـ ١ ، ص ٥٣٠.

(8) Tout , the Empire and the papcy, pp. 466 – 467.

(9) Chapman, A Hist . of Spain, p. 58 .
وانظر : أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، (عصر ملوك الطوائف).

(10) Tout op. cit, pp. 367 – 368 .

(11) Watts, Spain, London , 1893 , pp. 67 – 68.
وراجع: عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٣٣.

(12) Cam. Med Hist. Vol. 6 , p. 393 .

وانظر : أحمد مختار العبادى ، المرجع السابق ، (عصر ملوك الطوائف).

(١٣) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، تحقيق ابراهيم الأبيـــارى ص ١١٨-١١٩. وابن عذارى المصدر السابق ،جـ٢ ، ٧٥ - ٧٧.

(14) Dozy . op. cit , pp. 694 – 695 .

وراجع: عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٣٣.

(15) Watts, Op. cit, p. 67.

(16) Chapman, op. cit. pp. 70 – 71, and See am. Med. Hist, vol, 6, 393.

(١٧) محمد عبد الله عنان وتحقيقه لكتاب ابن الخطيب (الإحاطة فـــى أخبـــار غرناطة، المجلد الأول ، القاهرة، ١٩٧٣م ، ص ١٣٤ .

(١٨) محمد عبدالله عنان ؛ دولة الإسلام فى الأندلس ، العصرالأول، الطبعـــة الرابعة، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٢٤٣ وما بعدها .

(١٩) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، ص٢٢٣-٢٢٥. وراجع أحمد مختار العبارى ، المرجع الـــسابق ص ١٢٩-١٣٠ وما بعدها .

(20) Watts , op. cit, p. 105 .

(21) Stephenson; Portugal , pp. 18 – 19.

وراجع: عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٣٦.

(22) Panter, A Hist of the Middle Ages,pp. 193 – 194.

(٢٣) المقرى ، نفح الطيب ، المجلد الثانى ، ص ١١-١٣ .

(٢٤) ابن حزم ، جمهرة أنساب العـــرب ،ص ٤١٩، وراجـــع أحمـــد مختـــار العبادى، المرجع السابق ، (مرحلة الصراع بين يوسف بن تاشفين والسيد القمبيطور .

(25) Huici Miranda, A; Histoire musulmana de Valencia Ysuregion. Tomo, II, P.7, Ynota I.

(26) Alfonso El Sabio; primera Cronica general de Espana tomo, II,publicadopor Ramon Menendez pedal, Madrid, 1955, 562.

(٢٧) كمال السيد محمدأبو مصطفى ؛ تاريخ مدينة بلنسية الإسلامية حتى سقوطها فى أيدى المرابطين، رسالة ماجستير غير منشورة، اشراف الدكتور السيد عبد العزيز سالم، كلية الآداب-جامعة الاسكندرية،١٩٨١م، ص ١١٧-١٢٧ .

(٢٨) ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث ،المجلد الأول ،الدار العربية للكتاب ، ليبيا- تونس ١٩٨١ ، ص ٩٧ -٩٩ .

(٢٩) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ٣٢، ١٤٩. وراجع: سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٣٤.

(30) Menendez Pidal ; op. cit ,pp. 428 – 429.

(٣١) ابن عذارى ، جـ ٤ ، ص ١٥٠ ،اعمال الإعلام ، القسم الأندلسى، ص ٢١٣.

(٣٢) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف،ص ٢٤٢ – ٢٤٣. وراجع: سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٣٣.

(33) Cam. Med Hist. Vol. 3 , p. 394 .
وانظر: سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٣٤.

(٣٤) أحمد مختار العبادى ، المرجع السابق ، (حالة الصراع بين الموحدين والسيد القمبيطور) .

(٣٥) ابن الخطيب ، الإحالة فى أخبار غرناطة، م/١ نحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٧٣م ، ص ١٣٤-١٣٧.

(٣٦) : سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ١٩٢- ١٩٣. جـ٢، ص ٢٤٨.

(37) Tout , The Empire and the papacy, p. 366 .
وراجع ، عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٣٧.

(38) Dozy, Spainsh Islam , pp. 569– 592 .

(39) Champ. A Hist of Spain p. 72.

(٤٠) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، حوادث ٤٧٨هـ .

(41) Cam. Med Hist. Vol. 6 , p. 407 .

(42) Tout , op.cit, p. 470 .

(43) Stephenson , Portugal , pp. 18– 19 .

(44) Panter ; A History of the Middle Ages,P. 194.
وانظر، عاشور ، المرجع السابق ، جـ ١، ٥٣٤، نفسه" الحركة الصليبية ، جـ١، ص ٧٢.

(45) King ; The Knights Hospitallers in the Holy Land, p.133.

(46) Tout , op. cit , 470 – 471.
وراجع، عاشور ، المرجع السابق ، جـ ١، ٧٣.

(47) Chapman , op. cit , pp. 94 – 95 .

(48) Tout , op. cit ,p. 471.

(49) Com . Med. Hist. Vol, 6, 409 .

(٥٠) د. عبد اللطيف عبد الهادى السيد، السياسة الصليبية للبابا أنوسنت الثالث ، الاسكندرية ، ط ٢٠١٠م .

وراجع : Panter , op. cit, p. 105.

(51) Com . Med. Hist. Vol, 6, 416 .

(٥٢) لين بول :العرب فى اسبانيا ، ص ١٨٤ -١٨٥

وراجع ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٧٤.

(53) Tout The Empire and the papacy p . 473.

(54) Com . Med. Hist. Vol, 1, p. 415 .

(55) Lodge, The Close of the Middle Ages , p. 471.

(56) Watts , Spain , pp. 182 – 183 .

(٥٧) سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٥٦٥.

(58) Cam . Op. Cit , pp. 290 – 297.

(59) Ibid . Vol , 6, p. 489 , and See, Watts, op. cit, pp. 297 – 298.

(60) Cam. Med. Hist .Vol, 6,p. 489 .

وانظر ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١٢٥٦.

(٦١) لين بول :العرب فى اسبانيا ، ص ٢٠٥ .

وراجع ، سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ١٢٥٦.

(٦٢) لين بول : العرب فى اسبانيا ، ص ٢١٣ .

الفصل الخامس
حضارة الأندلس الإسلامية

- تمهيد
- اختلاف الآراء بين المؤرخين حول أصول الحضارة الإسلامية.
- تصدى العرب للدفاع عن عروبة الأندلس .
- تقسيم المؤرخين للحضارة الإسلامية فى الأندلس، إلى ثلاث مراحل تاريخية.
- اللغة العربية والقرآن الكريم كأساس فى الحضارة الإسلامية.
- مظاهر الحضارة الإسلامية فى الأندلس .

١ - مجال التشريع - القضاة فى الأندلس .
٢ - المجال الأدبى (الشعر، النثر ، الموشحات).
٣ - الحياة التربوية والتعليمية فى الأندلس .
٤ - فى مجال العمران .

إن الحديث عن حضارة الإسلام في بلاد الأندلس يجعلنا نقف على طبيعة بلاد الأندلس قبل دخول الإسلام فيها، وكيف كانت تعيش هذه البلاد، في شكل إمارات وممالك مسيحية متجانسة في بعضها ومتنافرة في البعض الآخر ، وكان يسودها نظام الإقطاع الظالم في قوانينه وتشريعاته ، التي تجعل من السيد سيداً ومن العبد عبداً ، حتى أننا عند تعرضنا لتناول تاريخ أسبانيا على نحو ما مرّ بنا في الفصول السابقة وجدنا جيش المسلمين لم يعان كثير في فتح هذه البلاد من جنوبها إلى شمالها ومن شرقها إلى غربها باستثناء بعض الممالك المسيحية خاصة تلك التي كانت في الشمال والشمال الغربي على وجه التحديد.

وعندما دخل الإسلام بلاد الأندلس، وساد نظام الإسلام السياسي والديني والإجتماعي رأى أهالي الأندلس أن حياتهم في كنف الإسلام أفض لهم بكثير من حياتهم في كنف نظام إقطاعي فاسد ظالم ، واقتنع الأندلسيون بهذا الدين الجديد فدخل فيه أعداد كبيرة اعتنقوا الإسلام عن رضا نفس وراحة ضمير .

ولعل ما دفع الأندلسيون إعتناق الإسلام والترحيب به في معظم بلاد الأندلس يرجع إلى أسس ومقومات هذا الدين القائم على العدل والرحمة والمساواة وتسامح بين الناس . وهذا ما جعل الإسلام يبقى في الأندلس كنظام سياسي ثمانمائة عام نعم فيه الأندلسيون بحياة كريمة وخلف الإسلام في الأندلس حضارة لازال العالم الإسلامي وغير الإسلامي يتغنى بها حتى اليوم في شتى مناحي الحياة .

لقد ارتفع الأندلس حضاريا في العصور الوسطى إلى درجة كبيرة، عالية المستوى عما كانت عليه قبل دخول الإسلام فيها. حضارة إسلامية في الأندلس، اعترف بها الأصدقاء والأعداء على حد سواء. فهي الأندلس التاريخ وهي الأندلس الحضارة وهي الأندلس المفقودة وهي الأندلس الموجودة، وهي أيضا في نظر المؤرخين الأسبان: هذا الأندلس، مركز وفنار أشرق ذات يوم،

وكانت اشراقاته مطمح الأطماع، ومحط الأبصار، النهمة الجامحة إلى العلم، بل فى أى فرع من فروع المعرفة. "آه. كم كانت هذه الفترة زاهية ومقدسة"[١] .

ولا أهدف إلى حصر ما قبل فى هذه الحقبة التاريخية لأن ذلك ليس سراً [٢] بل هو شائع فى كافة الكتابات المتعلقة بهذا العصر الإسلامى فى الأندلس الذى امتد طوال ثمانمائة عام تقريباً (١٣٨هـ/ ٨٩١هـ). وإنما السر الحقيقى، هو ذلك التنازع والخلاف فى تحديد الأسباب والعوامل التى أدت إلى قيام هذه الحضارة. وليس ذلك بالأمر الشاذ ، فالحضارة الأندلسية بما سطرته على جبين التاريخ سواء فى مجال الكم أو الكيف جديرة بأن تثير الخلاف بين المؤرخين ، وأن تبعث على الجدل والنقاش الدائمين، وذلك أيضا أحد أسرار عظمتها الخالدة.

يضاف إلى ذلك النهاية المأسوية التى أطاحت بهذه الحضارة بأن سكبت المزيد من الزيت على نار الآراء المشتعلة، وفتحت منابر وصنابير عدة من الأبحاث والدراسات التى تناولتها .

إنصبت جهود الباحثين والدارسين فى مجال الحضارة الأندلسية على إبراز أصولها. ودرجة تطورها وكذلك علاقتها بالثقافة والحضارة القوطية والرومانية . ومدى صلتها بالثقافة الشرقية ، ودورها التأثيرى على الحضارة الأوربية فى العصور الوسطى، ومدى التأثير فيما بعد على النهضة الأوربية الحديثة . وفى كل مجال من هذه المجالات تباينت آراء العلماء واختلفت ، وحاول كل منهم تأييد وجهة نظره التى يحبذها فالمستشرقون عامة، والأسبان منهم خاصة ، يحاولون إضفاء دور هام للأحوال الثقافية والحضارية السائدة فى أسبانيا القوطية ، كما يحاولون أسناد دور أساسى فى هذه الحضارة إلى العوامل البيئية الأسبانية إلى حد التطرف الذى يقلل من شأنها ، إن لم ينكر دور العرب المسلمين فى صنع هذه الحضارة .

ويزداد الحديث فى أسبانيا يوماً بعد الآخر عن أهمية الفترة السابقة على عصر الرومان والقوط فى بناء الحضارة الإسلامية فى الأندلس . ويؤكد ذلك – على سبيل المثال– الدكتور / سلفادور غوميس – دون الاعتماد على وثائق واضحة : فيقول خلال حديثه عن الفلسفة الإسلامية :" ليس من السهل على الإطلاق الإشارة إلى وثائق تاريخية للدلالة على هذا التأثير بالنسبة للفلسفة الأسبانية الإسلامية . وذلك لسببين رئيسيين هما : الإهتمام المتزايد لعدد كبير من المؤرخين العرب لإخفاء ما فى أصولهم وكتاباتهم مما يرجع لأسبانيا قبل الإسلام ، وذلك بغرض عدم إثارة الشك حول معتقداتهم وأفكارهم. ومن هنا فإن اجتهادهم فى الصمت عن كل ما هو أسبانى أصلاً فى كتاباتهم ومعتقداتهم يعتبر شيئاً بديهياً " .

أما السبب الثاني: فإنه يأتى من أن الكثير من المصادر الثقافة الإسلامية تتحدث عن أسبانيا، لا عن الطريق المباشر للأسبان– ولكن عن طريق مصادر شرقية استطاعت أن تنقل هذه الأفكار فى مضمون ثقافى مختلف عن الأسبانى. بمعنى أنه أصبح من الصعب جداً – على سبيل المثال – التفريق بين ماخلفه الرومان فى الحضارة الإسلامية عن طريق بيزنطة، أو عن طريق المستعمرات الرومانية الموجودة فى أسبانيا (٣) .

ويواصل نوغاليس عرض أفكاره قائلاً : إذا كان قد سمح بالقول بأن حضارة أسبانيا الإسلامية تتمتع بصفات خاصة ، وشخصية مستقلة ، فعلينا أن نحلل إلى أى مدى تأثرت هذه الشخصية بالعوامل البيئية المحضة، أو بالمناخ الذى ربطها بأناس ذوى سجايا مختلفة، ويذهب فى هذا الى الاستشهاد بما قاله سانشيث البرنوس فى كتابه "أسبانيا قبل الإسلام – أسبانيا الإسلامية" والذى عرض فيه أعداد العرب الذين قدموا إلى شبه جزيرة أيبريا فى بداية الأمر حتى يصل إلى قول المؤرخ الأسبانى P. Perez بأنه " لم يدخل فى التركيب الاجتماعى للمسلمين الأسبان من العناصر العربية الأصلية إلا جرعات متناهية

فى الصغر[٤] ثم يواصل نوغاليس حديثه إلى أن يختمه بعبارة سانشيث القائلة: "نتيجة لهذا فمن المفروض أن التأثير العربى فى العادات والثقافة كان سلبيا خلال عشرات وعشرات السنين فى بلد كأسبانيا ذات الأصل والحياة والثقافة الغربية [٥] .

وما يتعلق بفكرة الأصل الأسبانى لمسلمى الأندلس ، يقول جوليان ريبيرا J.R. "أن العرب الذين دخلوا شبه جزيرة أيبريا أيام الفتح ،إنما دخلوا – كما هو معروف – على هيئة جنود ، ولم ينتقلوا إليها كأسرى . وكان لابد لهؤلاء المحاربين من أن يكونوا البيوت وينجبوا النسل . وكانت الأسبانيات الجانب الآخر فى تكوين ذلك الأسر – وانجاب ذلك النسل. وقد أقبل على هذا الزواج المختلط أول أمير عربى ولى الأندلس بعد الفتح ، وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير، مما أقبل عليه غيره من العرب ، حيث شرع لهم أمراؤهم سنة الزواج بالأسبانيات . وليس من المبالغة القول بأنه قد ثبت أن جميع أمراء وخلفاء الأسرة الأموية فى الأندلس كانوا أبناء لغير عربيات ، وإذا كان الولد – فى الحقيقة – ابنا لأبيه كما هو ابناً لأمه ؛وإذا كانت خصائص الوراثة يأخذها الوليد عن أسرة أمه ، كما يأخذها عن أسرة أبيه ، إذا كان ذلك ؛ أمكن القول بأن العرب الداخلين قد ذابوا فى الجنس الأسبانى حتى لم يعد للواحد منهم سوى قطرات قليلة من الدم العربى تمتزج بدمه الأسبانى ، الذى يكاد يكون خالصاً " [٦] .

ويتصدى المؤرخون والكتاب العرب للدفاع عن عروبة الأندلس ، وعن نسبة الحضارة الأندلسية إلى الحضارة العربية، وحتى لا تفقد هذه الحضارة درة ثمينة ولؤلؤة نادرة ، وعقداً فريداً مثلما هى الحضارة الأندلسية ، فينبرى الدكتور أحمد هيكل للرد على خوليان ريبيرا مفندا نظريته فى معظم أجزائها التى وإن كانت تعتبر بالأندلسيين ، وتحاول كسبهم إلى التراث الأسبانى . إلا أننا لا نستطيع أن نجرد الأندلسيين من عروبتهم. ولا نستطيع

أن نسلم بالتجربة التى أجراها على الأسرة الأموية وحاول من خلالها أن يثبت ذوبان الدم العربى فى الدم الأسبانى . وذلك أننا لا نتصور أن كل الذين جاءوا إلى الأندلس من الرجال قد تركوا نساءهم فى المشرق . ولأننا لانتصور أن الوفود إلى الأندلس كان من نصيب الرجال دون النساء . ولأننا أيضا لا نتصور أن كل عربى فى الأندلس كان ينجب دائماً من أسبانيات ، وأن نتاجهم دائماً كان من الرجال الذين يتزوجون بدورهم من أسبانيات. وهكذا.

ويذكر البعض، أنه إذا كان الأندلسيون من حيث الأصل شعباً تجرى فيه دماء عربية، ودماء أسبانية، وأن كانوا مولدين جنساً، فهم عرب فى قوميتهم، وأنهم عرب فى عقيدتهم وثقافتهم ولغتهم وكل جوانب حضارتهم، كما أنه ليس لنا إلا أن نشكر المستشرق الأسبانى ومن جاراه إعجابهم بأبناء عمنا الأندلسيون، ومحاولة إلصاقهم بهم وضمهم وتراثهم إلى ما للأسبان من تراث .

أما عن تأثير حضارة ما قبل الإسلام فى أسبانيا الإسلامية فيقول بعض المؤرخين:" انه لم يجد المسلمون فى البلاد المفتوحة حضارة كاملة أو متكاملة، وإنما بقايا حضارة غاربة، تعيش منعزلة منزوية ، وعناصر متعددة ، كل واحد منها يخشى الآخر، ويستعبد القوى منها الضعيف – كما أسلفنا فى مقدمة هذا الفصل – كماأن العصر القوطى السابق على العصرالإسلامى فى الأندلس بكل أعوامه لم يخلف وراءه حضارة متميزة فى أى جانب ، لا نعرف له ثقافة ولا كتابة ولا أدباً. والمكتبات قليلة، ولدينا عنها إشارات شاحبة، بل إن بعض المؤرخين يؤكد على أنه لم يصلنا منها شئ ، ويظن أنه كانت ملحقة بالأديرة(٧).

ولست فى مجال عرض لباقى الآراء التى وصلت إلى حد دراسة الأدب الأندلسى، كجزء من الأدب العباسى إمعاناً فى دمج الحضارة الأندلسية ضمن الحضارة الشرقية، التى فرضت نفسها على التاريخ كحضارة أندلسية ليست شرقية ولا غربية وأنها اتشحت بثيابها الخاصة ،واكتست

ملامحها المستقلة التى تميزها عن الحضارات المعاصرة لها أوالتى استمدت أصولها منها .

ويمكن تقسيم الحضارة الأندلسية إلى ثلاث فترات رئيسية دون أن يعنى ذلك الفصل بين هذه الفترات، اللهم بغرض الدراسة لا أكثر .

الفترة الأولى: ويمكن تعريفها بأنها مرحلة التكوين، وهى الممتدة من عام ٩٥هـ- ١٨٠هـ/٧١٤- ٧٩٦م .

الفترة الثانية: مرحلة النمو والتطور وهى الممتد من عام ١٨٠هـ- ٣٠٠هـ /٧٩٦-٩١٢م .

الفترة الثالثة: مرحلة النضج والإزدهار وهى ما بعد عام ٣٠٠هـ /٩١٢م حتى غروب شمس المسلمين فى الأندلس ١٤٩١ م . لتخلف وراءها تلك الحضارة التى أعجب بها الصديق والعدو معاً .

أولا: مرحلة التكوين: وتبدأ بعودة القائدين موسى بن نصير وطارق بن زياد غلى بلاد المشرق ، وتولى عبدالعزيز بن موسى بن نصير أمورالأندلس فى عام ٩٥هـ/٧١٤م؛ وتستمرحتى نهاية عصر الأمير هشام بن عبدالرحمن الداخل المتوفى سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م وهى فترة شغل تاريخها السياسى كثير من الحروب ، والغزوات لاستكمال فتح الأندلس .أو فى محاولات فتح جنوب غاليا (فرنسا) – كما أن هذه الفترة قد حفلت بالثورات الداخلية والصراع بين القبائل العربية والبربرية – كما أسلفنا فى فصول الكتاب السابقة .

وشهدت هذه الفترة كذلك من الناحية السياسية ،استقلال الأندلس عن جسم الدولة الإسلامية حينما تمكن عبد الرحمن الداخل عام ١٣٨ هـ / ٧٥٦ من الاستيلاء على قرطبة، وقضائه جل فترة حكمه فى صراع مع العناصر المناوئة وتثبيت عرش بنى أمية فى الأندلس.

ومع هذا ، فإن هذه الفترة هى التى شـهدت وضـع البـذور الأولـى للحضارة الأسلامية فى الأندلس. حيث أن الجيوش التى دخلت إلى الأنـدلس، وإن كانت فى غالبيتها من البربر الذين صحبو العرب إلى الأنـدلس : هـؤلاء الأخيرين قد حملوا معهم بطبيعة الحال ثقافة البيئة العربية الممثلة فى الثقافـة الدينية من حفظ للقرآن أو بعض سوره وأجزائه ، وحفظ بعـض الأحاديـث النبوية . وكذلك بعض ما كان يجرى فى بلادهم الأصلية (العربية)من أشعار أو أحاديث أدبية . وتجدر الإشارة هنا إلى أن العرب الفاتحين كـانوا يمثلـون الجيل الرابع من المسلمين العرب . وأقصد بذلك أن الفتح الإسلامى للأندلس قد تم خلال الأعوام العشرة الأخيرة من القرن الأول الهجرى . أى ما يزيد على قرن من الزمان منذ ظهور الديانة الإسلامية وما يقـرب مـن ٧٥ عامـاً مـن الاستقرار فى بلاد الشام ومصر وبلاد الرافدين ومروراً بشمال أفريقية .

وعلى هذا، فإن الأجيال التى دخلت بلاد الأندلس هى التى تربت ونمت فى أحضان تلك الأجواء الثقافية النامية فى تلك البلاد (مصر والشام والعـراق). ومن ناحية أخرى فإن الفترة السياسية كانت تشهد نوعاً من الإستقرار فى عهد الخليفتين ، عبدالملك بن مروان والوليد بن عبدالملك ، وشهدت تبعاً لذلك نوعاً من الازدهارفى المشرق. وقد يساعدنا هذا ، على تصور الحالة الثقافية التـى جاء بها العرب إلى أسبانيا مع الفتح مباشرة أو بعده .

من ناحية أخرى، يتفق المؤرخون على أن الجيـوش الإسـلامية التـى توجهت للفتح العربى فى شمال افريقية، وبعد ذلك الأنـدلس كانـت مـصحوبة بمجموعة من الصحابة والتابعين، وأن لم يكـن ذلـك مؤكـداً مـن وصـول بعضالصحابة إلى الأندلس. إلا أنه من المؤكد عبور بعض التـابعين؛ اختلـف المؤرخون فى أعدادهم وأسمائهم. وينقل الحميدى عـن عبـد الله بـن حبيـب (١٧٩هـ - ٧٩٦/٨٥٣م) ملاحظة يقول فيها: "ودخل الأندلس مـن التـابعين،

سوى منت لا يعرف نحو من عشرين رجلاً ، بهؤلاء وغيرهم إلى موسى بن نصير "(٨) .

وعبارة بن حبيب " سوى من لا يعرف " تبين أن هناك غيرهم دخلوا إلى الأندلس، وربما جاء بعض التابعين بعد الفتح بغرض المشاركة في الجهاد، والدعوة أيضا .

ولقد كانت المهمة الأساسية لهؤلاء التابعين هى نشر الدين الإسلامى ، واللغة العربية بين المسلمين الجدد ، وفى تلك الأراضى التى افتتحها المسلمون . ومن هنا فإنه من الممكن القول : – دون المبالغة –أن الحياة الفكرية فى الأندلس قد بدأت بعد أقوام قليلة من الفتح، وأنها " اتسمت بطابع البساطة، وتركزت فى تعلم اللغة العربية والدين الإسلامى(٩). ومع بدايات القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى ، شهدت منطقة شمال افريقية والأندلس، ثورة البربر ضد العرب ، مما حدا بالخلفاء الأمويين إلى إرسال جيوش عربية كثيفة إلى هذه المناطق لإخماد هذه الثورات وعبرت منها إلى الأندلس قوات كثيرة العدد ، منها الطبقة المعروفة تاريخيا باسم " بلج القشيرى" وكان جلها من عرب الشام. وتمكنت هذه القوات من إخماد ثورة البربر فى الأندلس، وساهمت فى تكثيف الوجود العربى هناك، ومن ثم سرعة تعريب هذه المنطقة .

كما أن هذه الفترة من ناحية أخرى ، قد شهدت فى بلاد المشرق الإسلامى، ازدياد ثورات الخوارج والشيعة . واحتدم الصراع بين الدولة والخارجين عليها ، وفى ظل هذه الظروف ربما كانت البلاد ، المغرب والأندلس ملجأً أقل خطراً . فلجأ إليها بعض الفارين من وجه الدولة، يحملون معهم آرائهم وأفكارهم الدينية ، وانتقلت هذه الأفكار ، بطبيعة الحال إلى الأندلس لتلعب دورها فى الصراع الدائر هناك، ولتساهم فى نفس الوقت فى توليد الأفكار ، وتصارع الآراء الذى يشكل الأساس – دائماً – لبناء الحياة الفكرية والتطور الثقافى(١٠) .

وإلى جانب هذه العوامل التى نعتقد أنها جذبت الكثيـر مـن العـرب وغيرهم إلى أسبانيا، فإننا نضيف إلى ذلك طبيعة وجغرافية الأندلس ، بموقعها ومناخها ، والتى لقيت قبولا كثيراً من العرب حتى أنهم شبهوها فى كتاباتهم وأشعارهم ببلادهم الأصلية. وأطلقوا على المدن الأندلسية أسماء مدنهم الشامية، ويقول عنها أبو عبد الله البكرى: الأندلس شامية فى طبيعتها وهوائها يمانية فـى اعتدالها واستوائها، هندية فى عطرها وذكائها، هوازية فى عظم جباياتها، صينية فى جواهر معادنها ، عدنية فى منافع سواحلها وهوائها[١١].

وعلى هذا، فلقد جذبت الأندلس إليها أعدادا هائلة غيـر معروفـة مـن العرب. نستطيع أن نلمسها فى صيحاتهم المدوية فى أرجاء الأندلس، وثـوراتهم التى لاتكاد تنقطع، كما نتبين ذلك فى السرعة الكبيرة التى تم بها انتشار الإسلام فى الأندلس، وتحويل الغالبية العظمى من سكانه إلى الدين الجديد .

ويمثل انتشار الإسلام واللغة العربية فى الأندلس خطوة هامة فى مجـال قيام حضارة إسلامية أندلسية.وتجمع كل المصادر التاريخية على سـرعة هـذه العملية بصورة لافتة للنظر بحيث نجد أنه حين حاول الخليفة عمـر بـن عبـد العزيز أخلاء الأندلس من المسلمين- كما ذكرنا من قبل – خوفـاً علـيهم أو " خشية تغلب العدو عليهم "كما يقول بن القوطية [١٢] أو "لانقطـاعهم مـن وراء البحر عن المسلمين " . على ما يقول صاحب الأخبار المجموعة[١٣] رد عليـه السمح بن مالك يعرفه بقوة الإسلام وكثرة مداينهم ، وشرف معاقلهم ؛ وذلك فى عام مائة من الهجرة/ ٧١٩م ، أى بعد خمس سنوات فقط من انتهاء عمليـة الفتح، وعودة القائد بن موسى وطارق إلى المشرق الإسلامى ، وتحليل ذلـك يرجع فى المقام الأول حسب آراء المؤرخين إلى قضاء الإسلام على الأوضاع السيئة التى كانت سائدة فى العصر القوطى بحيث لم تعد هنالك طبقة متحكمة متمثلة فى الأسر الحاكمة والنبلاء . وزال سلطان الكنـسية ونفـوذ رجالهـا ، وانتهت عبودية الأرض وأسرع العبيد لكى يتحرروا من العبودية إلى اعتنـاق

هذه الديانة من جهة أخرى ، فإن بعض الولاة اعتبروا نشر الإسلام رسالتهم الأساسية . ومثالنا على ذلك : الوالى عقبة بن الحجاج السلولى الذى كان صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة فى نكاية المشركين ؛ وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام حيناً ، ويرغبه فيه ويبصره بفضله ، ويبين له عيوب دينه الذى هو عليه . فيذكر أنه أسلم على يديه بذلك الفعل الفا رجل(١٤). ولقد كانت السياسة التى اتبعها الولاة مع السكان الأصليين، والقائمة على تركهم أحراراً فى معتقداتهم ذات أثر كبير فى تأليف قلوبهم ؛ ودعوتهم بطريقة غير مباشرة إلى اعتناق الإسلام . ويعترف بذلك المؤرخ الإسلامى " التاميرا" Altamera ، حيث يقول : " بأن العرب لم يحترموا فقط ، بصورة مؤكدة العقائد الدينية وأنما احترموا أيضا الحياة الخاصة للشعوب التى خضعت لهم وصارت تحت سيادتهم " .

ثم يواصل قائلاً : " لقد واصلت غالبية الشعب الأسبانى تحت الحكم الإسلامى ، حياتها العادية ، بما كان لها من كونتات وقضاة وقساوسة وحافظوا على كنائسهم . وباختصار شديد حافظوا على كل استقلالهم المدنى ، ولم يأخذ منهم الأمراء والحكام الجدد ، إلا الجزية الشرعية المفروضة" (١٥) .

غير أننا لا نعرض هنا – الآن – مجالات الحضارة الإسلامية الأندلسية إلا بعد أن نعرض للمرحلتين الأخريين :

المرحلة الثانية : ***وهى مرحلة النمو والتطور*** ، والتى امتدت ما يقرب من قرن وربع قرن تقريبا، وقد حدث اختلاط وتفاعل بين المسلمين من العرب والبربرمن جهة وبين شعوب البلادالأصليين من الأسبان بمختلف دياناتهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية . وكان نتيجة لسماحة الدين الإسلامى ومبادئه أن تقبل السكان الأصليين عن رضى وقناعة العرب بدياناتهم الجديدة ، اللهم قيام البعض بالثورات والاضطرابات الداخلية من قبل الممالك المسيحية المعروفة فى أشبيلية وليون وطليطلة ونافارى وغيرها .

لم تكن الثورات التى قامت من قبل الملوك المسيحيين أو غيرهم من أصحاب الأطماع فى الحكم عائقاً فى سبيل الأخذ بأسباب النهضة والتقدم وتحسين أوضاع الناس فى الأندلس .

لقد بدأت المرحلة الثانية فى بناء الحضارة الإسلامية الأندلسية على وجه الدقة فى عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل وابنه الحكَم بن هشام (١٨٠هـ - ٢٠٦هـ /٧٩٦ -٨٢٢) وحتى نهاية عصر الإمارة فى عهد الأمير عبدالله بن محمد (٢٧٨هـ/٨٩١م) . حيث قام الأمراء بحركة إصلاح داخلى برزت فيها معالم الحضارة الإسلامية الأندلسية فى صورتها المميزة ، والتى تؤكد على الإطار العام للحضارة الإسلامية .

وكنا قد عرضنا لأهم مظاهر تلك الحضارة التى نمت وتطورت فى ثوبها الجديد، ودخلت بيوتات الأندلسيين ، بل وتأثر بها الأعداء أنفسهم خاصة فى مجال العمارة وفنون الحرب والقتال ، حتى أنه فى بعض المواجهات العسكرية كان الأعداء قد اقتبسوا البارود والنار والقاذفات الإسلامية ضد المسلمين أنفسهم حتى أن بعض المؤرخين ذكر أن الملوك المسيحيين قد حاربوا المسلمين فى الأندلس ببعض أسلحتهم .

وعلى الرغم ،أننا قد عرضنا فى أعقاب كل أمير جانباً من الحضارة الإسلامية الأندلسية فى كافة المجالات، إلا أننا سوف نعرض لتلك المجالات بصورة واضحة جلية فى السطور والصفحات القادمة.

المرحلة الثالثة : وتشتمل على الفترة الممتدة من ٣٠٠هـ/ ٩١٢م، إلى نهاية عصر الخلافة الأموية، وقيام عصر ملوك الطوائف المشئوم الذى نعتبره أداة ومعول هدم بدأ فى هذا العصر وانتهى بدعوة البابوية الغرب الأوربى بضرورة طرد المسلمين من الأندلس، فأعلنوا الحرب المزعومة (المقدسة) من أجل استرداد الأندلس من أيدى المسلمين،ومحاولة طمس آثارهم فى الأندلس مهما كلفهم هذا الأمر .

ومع هذا العمل الإجرامى العدوانى من قبل الغـرب الأوربـى فـى محاولة لطمس الهوية الإسلامية فى الأندلس ، إلا أن الحـضارة الأندلـسية ظلت شامخة معلنة عن نفسها فى عقر دار الأعداء ، وقد قبلهـا المعتـدلون منهم ونفرها الحاقدون عليها . وإليك أيها القارئ الكريم بعـض معـالم تلـك الحضارة العريقة السامية .

أولاً - فى مجال التشريع الدينى :

لاشك أن هذه العلوم هى أول ما تردد على أرض الأندلس (اسبانيا)لأن أقوال التابعين وأحوالهم ، وآرائهم فى توزيع الغنائم والأسلاب ،هى المـصادر الأولى للعلوم التشريعية على أرض الأندلس . وبعد فترة الفتح ، فلا شك فـى استمرارية هذه القواعد أو الآراء وسريانها على عصر الـولاة إلـى أن نلتقـى بالقضاة الأوائل الذين حفظت المصادر التاريخية أسماءهم من أمثال : مهـدى بن مسلم وعنترة بن فلاح ، وخالد بن يزيد التيجيى ، ومعاويـة بـن صـالح الحضرمى . أما الأول من هؤلاء فقد وضع نصاً نثرياً فقهياً سنشير إليـه عند الحديث عن النثر ، يقررفيه مجموعة من القواعد التشريعية الهامة ؛ والتى يجب أن تسود فى مجال الفقه والتشريع . أما معاوية بن صـالح الحـضرمى ، فقد تمتع بشهرة واسعة ،وخاصة فى الشرق فى علم الحـديث ،وهـو أحـد الأوائل الذين نشروا هذا العلم على أرض الأندلس .

تبنت الأندلس فى مجال التشريعى المذهب الأوزاعى ،وهو مذهب عبد الرحمن ابن عمرو الأوزاعى والمولود عام ٨٨هـ/ ٧٠٧ م. وقضى معظـم حياته فى بلاد الشام . وتوفى سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٧م ،ودفن فى بيروت .

كان الأوزاعى من أبرز الفقهاء الذين ظهروا بالشام، وكان يرى اتباع السلف. ولا يبدى برأيه إلا فى حالة عدم وجود نص .وكان يعتمد على أقوال السابقين ، حيث يقول: أصبر نفسك على السُنة .وقف حيث وقف القوم، وقل

بما قالوا وكف عما كفوا ، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما يسعهم[١٦] .

وأول من أدخل هذا المذهب إلى الإندلس هو صعصعة بن سلام المتوفى سنة ١٨٠هـ / ٧٩٦م ؛ وهو فقيه من أصحاب الأوزاعى ، وكانت الفتية(الفتيا) دائرة عليه أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية[١٧]. بينما يرى بعض المؤرخين ، أن أول من أدخل مذهب الأوزاعى إلى الأندلس هو قاضى "البيرة " أسعد بن عبد الرحمن السبئى المتوفى سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م [١٨] .

عاش هذا المذهب فى الأندلس فترة طويلة ؛ على الرغم من أنه اعتباراً من عهد الأمير هشام الرضى والحكم الأول، فإن المذهب المالكى كان قد بدا يأخذ طريقه إلى الحياة التشريعية فى الأندلس . إلا أن المذهب الأوزاعى ظل محتفظا ببعض الأوفياء له من أمثال : زهير بن مالك البلوى المتوفى سنة ٢٥٠هـ /٨٦٤م . والذى كان فقيهاً على مذهب الأوزاعى على ما كان عليه أهل الأندلس قبل دخول بنى أمية إليها [١٩] .

ومع دخول الأمويين واستقرار الأوضاع لهم فى الأندلس ازداد انسياب العلوم الشرقية إلى الأندلس ، ومنها بطبيعة الحال المزيد من العلوم التشريعية ؛ ورحل الأندلسيين إلى الشرق وتتلمذوا على مالك بن أنس بالمدينة وعادوا معهم كتابه المشهور" الموطأ "وبدأوا فى نشر مذهبه فى الأندلس ابتداءً من عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن . وأوائل من حملوا هذا العبء ، الغازى بن قيس ، المتوفى سنة١٩٩هـ/ ٨١٥م. وزياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون "والمتوفى سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩م ، وعيسى بن دينار، قاضى طليطلة المتوفى سنة٢١٠هـ / ٨٢٥ م . وأخيراً تلك الشخصية البارزة ، يحيى بن يحيى الليثى المتوفى سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ ويقول بن فرحون عن عيسى بن

دينار ويحيى الليثى:" وبه وبيحيى انتشر علم مالك بن أنس ، ورجعت الفتيا إلى رأيه " (٢٠) .

ثانياً - فى المجال الأدبى :

تكمن الصعوبة حقيقة فى تحديد بدايات النشاط الأدبي على أرض الأندلس ، سواء فى مجال الشعر أو فى مجال النثر، ويرجع ذلك إلى اختلاف الآراء فى هوية الأندلس ،وإلى أن القائلين شعراً أو نثراً خلال هذه الحقبة إنما طرأوا على الأندلس ، ولهم أصولهم الشرقية الواضحة .

وما دمنا قد تحدثنا عن يحيى بن حكم الغزال . فلنقف وقفة قصيرة عند الفكر الأندلسى الذى بدأ يستقل عن الفكر المشرقى ، ويظهر فى صورته الناطقة بشخصيته ابتداء من ذلك العصر ، واستمر فى تطوره فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن ومن جاء بعده ، إلى أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط.

أما النثر الذى ظهر فى الأندلس ، فلم يكن نثراً أصيلاً من طراز الجاحظ أو ابن المقفع أو غيرهما من جهابزة الشعراء العرب ، وقد نشأ الشعر الأندلسى محاكياً للشعر المشرقى . عندما ثبتت أقدام المسلمين فى الأندلس كان عصر الشعر العربى الإسلامى الخالص قد انقضى بذهاب بنى أمية . ذهبت أيام جرير والفرزدق والأخطل وذى الرمة. وانعقد لواء الشعر للمحدثين أو الكلاسيكيين المحدثين من أمثال أبى نواس وبشار بن بُرد ، وأبى تمام ابن الرومي وابن المعتز ، وهؤلاء الخمسة بالذات كان لهم أثر بعيداً جداً فى تكوين مدرسة مماثلة فى الشعرالأندلسى . فنجد عند كبار الشعراء فى عصر الأمراء من أمثال " ابن عبد ربه ، ومؤمن بن سعيد ، ويحيى بن حكم الغزالى ، ومحمد بن يحيى القلفاط صوراً شعرية متشبهة من شعر أولئك الفحول وأبو تمام بالذات ، كان له أثر عميق جداً عند شعراء الأندلس لرصانة شعره وجودة

معانيه وديباجته العربية الخالصة ،ويلى أبى تمام فى ذلك ابن الرومى ابن المعتز .وأما الأول فقد فتن فيه الأندلسيون بسهولة شعره وسلامة نظمه وجمال الصور التى يأتى بها - وأما الثانى ، فأعجبتهم فيه الضنة والرقة والحديث الكثير عن البساتين والرياض والزهور والربيع . وما إلى ذلك من مظاهر الطبيعة.

على أنه تجدر الإشارة إلى أن الفروق التى كانت بين الأدب المشرقى الإسلامى وأدب الأندلس يرجع إلى عاملين أساسيين :

. أولهما : الحالة السياسية للفترة وما اعتراها من صراعات وحروب متواصلة .

وأما الثاني : فهو الإيغال فى البعد تاريخياً ، حيث نتناول بالدراسة فترة تبتعد عنا بما يقرب من أثنى عشر قرنا من الزمان .

ولنا أن نتصور أنه كما صاحب جيوش الفتح الإسلامى عدد من علماء الدين ، فإنها ولا شك قد ضمت جوانحها بعض الأدباء والشعراء والقصاصين، أو بعض حملة نصيب من الثقافة السائدة حين ذاك فى بلاد الحجاز والشام ومصر ،والذى عرضنا لهم ،وكان هذا القدر من الثقافة – ولوكان قليلاً- الأساس الذى تطورت عليه فيما بعد الثقافة الأندلسية .

وكذلك لاشك فى أنه قد ورد إلى الأندلس بعد الفتح الإسلامى واستقرارالأمر بعض ممن كانوا يقرضون الشعر ، وحفظت لنا المصادر قليلا من أشعارهم . ومن هؤلاء الشاعر أبو الخطار حسام بن ضرار ؛ وجاء إلى الأندلس واليا فى سنة ١٢٥هـ/٧٤٢ م على عهد هشام بن عبد الملك. وكان الصراع فى الأندلس محتدم بين القيسية واليمنية، وكان هشام يميل إلى القيسية ؛ فلما اشتد عليه الأزمات شاور العباس بن الوليد، فنصحه بالعودة إلى- تأييد

اليمنية، وقال له :" يا أمير المؤمنين ليس يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح أوله، فاصرف نظرك وحسن رأيك إلى هذه القطمانية[٢١] يشير ذلك إلى نصر اليمنية للأمويين فى معركة مرج راهط .

وعلى هذا ، ولّى هشام حنظلة بن صفوان الكلبى على أفريقية وأمروه أن يولى بن عمه أبا الخطار على الأندلس ؛ فكان ذلك سنة ١٢٥هـ ومن الطبيعى أن هذا الأمير الشاعر قد قرض الشعرعلى أرض الأندلس واستشهد فى إدارته للبلاد أو صراعه مع الخارجين على سلطته ، حتى أن بعض المؤرخين لقبه " بعنترة الأندلس"[٢٢].

وممن طرأ على الأندلس منم الشعراء فى هذه الفترة أبو الأجرب جعونة بن الصمة؛ الذى عرف بهجائه للصمويل بن حازم زعيم القيسية ، وأحد زعماء الأندلس المعروفين، ويقول عنه الحميدى نقلاً عن ابن حزم، وإذا ذكرنا أن الأجرب جعونة بن الصمة لم نباريه إلا جريراً والفرزدق لكونه فى عصرهما . ولو أنصف لاستشهد بشعره، فهو جار على أوائل مذاهب العرب لا على طريق المحدثين.

وكان لهذا الشاعر سمعة فى بلاد المشرق ، حتى يقال أن أبا نواس سأل عنه عباس بن ناصح الأندلسى ، وطلب أن يسمع شيئاً من شعره (أى من شعر جعونة) وذلك حين التقيا معاً فى العراق [٢٣] .

إلى جانب ذلك هناك بعض الأبيات التى قيلت فى الصراع الذى كان يجرى هناك . ومنها مثلاً ما أوردته المصادر حين الحديث عن الصمويل بن حاتم وأثناء حصاره فى سرقسطة ، أرسل فى طلب النجدة فقام إليه بعض العرب ومعهم عبد الله بن خالد، وعبيد الله بن عثمان وهما رأس الأموية فى الأندلس . فلما بلغوا وادى طليطلة بلغهم أن الحصار اشتد وأضر

بالصمويل . فقدموا رسولا من قبلهم وقالواله . أدخل في جملة المحاربين للسور، فإذا قربت منه أرم بهذه الحجارة وفي كل واحد منها بيتان وهما :

الا ابشر بالسلامة يا جدار اتاك الغوث وانقطع الحصار
اتتك بنات اعوج ملجمات عليها الاكرمون وهم نذار (٢٤)

أما الصمويل نفسه فتحتفظ لنا المصادر ببيت من الشعر قاله حين رأى ماله ينتهب على يد الطائيين بعد انتصار عبد الرحمن الداخل وهو :

الا إن مالي عند طي وديعة ولا بد يوما أن ترد الودائع (٢٥)

وإذا كان المصادر مجدبة فيما احتفظت به من أخبار شعراء الفترة الأندلسية، فليس ذلك مما يدفع إلى القول بعدم وجود هؤلاء الشعراء أو خلو الفترة الأندلسية من قرض الأبيات، وذلك بأن الظروف المضطربة والصراع القبلي، والتنافس والتنابز والأثارة عوامل مشجعة للناس على الصياغة والنظم .فإذا أضفنا إلى ذلك طبيعة الأرض الجديدة المغايرة لطبيعة بلاد العرب . وأثر ذلك في تفجير ينابيع الشعر لأمكن لنا أن نتصور البداية التي ارتقى عليها بعد ذلك الشعر الأندلسي .

الفترة الثانية : وتأتي هذه الفترة ، وهي تتسم بوصول أفواج جديدة من العرب إلى الأندلس ،مع ظروف سقوط الدولة الأموية في المشرق ووصول عبد الرحمن الداخل إلى قرطبة سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥م . وتزداد الشواهد الأدبية، وتكثر الأبيات الواردة في المصادر.

ومن أهم شعراء هذه الفترة ،الأمير عبد الرحمن الداخل نفسه والذى كان شاعراً مجيداً وناثراً بليغاً ،ولم يكن من الغريب أن يأتي شعر الداخل مصوراً لجوانب حياته المتقلبة والمتباينة . فنظم في الغربة والحنين إلى الوطن، كما أنه نظم في الفخر والحماسة وكفاحه الفذ من أجل إقامة دولة أموية

فى الأندلس خلفا لتلك التى بادت فى الشام " ودمشق". وهذه الأبيات فى الحنين إلى الأهل :

أيها الراكب الميمم أرضى ... أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما تراه بأرض ... وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى لله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضى[٢٦]

وهو الذى صاغ تلك العلاقة الفريدة بين نخلة زرعها العرب فى أرض الأندلس فجاءت يتيمة نوعها هناك غريبة ، وبين حالتها فأنشد قائلاً :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن باد النخل
فقلت : شبيهى فى التغرب والنوى ... وطول التنائى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى[٢٧]

ولعبد الرحمن الداخل أشعار أخرى فى المصادر التاريخية. منها ما قاله حين كتب إليه بعض من وفد عليه من قريش يستقصره فيما يجريه عليه ، ويسأل الزيادة ،ويستطيل عليه، فكتب عبد الرحمن الداخل يقول :

شتان من قام ذا امتعاضى ... منضى الشفرتين نصلا
مجاب قفرا وشق بحرا ... ساميا لجة محلا
فبز ملكا وشاد عزا ... ومنبرا للخطاب وفصلا[٢٨]

وهناك من ينسب إليه هذه الأبيات مع اختلاف فى الكلمات حين ذكروا له تفاخراً ما كان من الخمر بين يزيد مع عبد الله بن على بن عبد الله العباسى[٢٩] .

وذات يوم كان عبد الرحمن الداخل خارجاً إلى الثغر فى بعض غزواته فوقعت غرانيق (طيور مائية بيضاء اللون ، طويلة السيقان ، لها قنازع ذهبية اللون) فى جانب، عسكره ؛ وأتاه ما كان يعرف كلفه بالصيد يعلمه بوقوعها . ويشهيه بها، ويحضه على اصطياها ، فأطرق عنه قليلاً ثم جاوبه :

دعنى وصيد وقع الخرانق
فإن همى اصطياد المارق
فى نفق كان او فى حالق
إذا إلتفت هواجر الطرائق[٣٠]

وحتى لا نسترسل فى الحديث فى مجال الأدب عن عبد الرحمن الداخل ،فإننا لبعض الشعراء الآخرين من أمثال : عاصم بن زيد العبادى المعروف باسم "أبو المخشئ" وكان والده ممن وفد على الأندلس فى فترة الولاة ، ونزل منطقة البيرة. ونشأ أبو المخشئ فى المنطقة الأندلسية، وقرض الشعر حتى أصبح ألمع شعراء عصره؛ بل بلغ إلى أنه كان شاعر الدولة المروانية فى الأندلس .

وأشعار هذا الرجل التى وصلت إلينا قليلة . وتروى المصادر ميله لعبد الرحمن الداخل ومدحه له. كذلك انحيازه لسليمان بن عبد الرحمن مما عرضه لغضب هشام بن عبد الرحمن، وكان بين الأخوين بعض المنافسة .

ويقال أن هشاماً تمكن من الشاعر فقطع طرف لسانه وسمل عينيه. وكانت تجربة قاسية صاغها الشاعر أبياتا حارة مؤثرة، حركت قلب عبد الرحمن الداخل لمواساته ، وأغضبته على ابنه هشام ، ويقال أن الأمير هشام نفسه قد ندم على فعله وحاول تعويض الشاعر ما أمكن .

ويرى مؤرخو الأدب ، أن الشاعر أبا المخشى يمثل الشعر الأندلسى فى فترة التأسيس أصدق تمثيل. فهو يمثله فى ظهوربعض السماته الأندلسية الخاصة من تجديد فى الموضوعات ، ومحاولة التجديد . كما أنه يمثله فى مسيرته البدوية المحافظة المقلدة لأشعار عرب ما قبل الإسلام .ويستدلون بأبياته التى حاول فيها معالجة تجربته الجديدة فى فقدان البصر . ومن أجمل ما قال هذا الشاعر :

وهم ضافنى فى جوف ليل ... كلا موجيهما عندى كبير
فبتنا والقلوب معلقات ... وأجنحة الرياح بنا تطير

وله أبيات أخرى كثيرة حللها أحمد هيكل في كتابه عن" الأدب الأندلسى "[٣١]. أورد له دكتور / محمود على مكى ترجمة كاملة ومعظم ما حفظ من أشعاره فى رسالته عن المؤثرات الشرقية فى الثقافة الأندلسية[٣٢]. ولن استطرد أكثرمن ذلك فى شعراء تلك الحقبة والذين كثر عددهم ،ليشمل أمراء البيت الأموى، من أمثال: هشام وابنه الحكم الأول، وليضم أيضا بعض الشخصيات المعروفة من أمثال عباس بن نصاح الجزيرى. والشاعر أبو الحسين وإبنته حسانه التميمى. ويكفى ذلك للدلالة على أسس الإنطلاقة الشعرية قد توطدت، وأن راحلة القوافى قد بدأت مسيرتها لتنشئ للشعر الأندلسى مجاريه ضمن واحات الشعر العربى .

وفى عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط نرى طلائع الشعر الشعبى الأندلسى وهو شعر يصاغ فى عامية أهل الأندلس ،ولكنه يلتزم أوزان الشعر العربى وخاصة السهل الجارى منها كالرمل والرجز ، وقد عرف هذا الشعر بالزجل .والزجل الذى يقال فى كل بلاد العروبة ولد فى الأندلس فى الغالب ، ونحن نسمع عنه أول ما نسمع فى تلك البلاد .

وعامية أهل الأندلس خليط من العربية والبربرية والأيبرية والرومانية . فإن الأندلسى كان يقول :" كيروكاس دالما" ،" (اريد كأس ماء) ، وهى " آلما حزين دام اليوم "(نفس حزينة اليوم)، "اشتريت من السوكوسبانية بلانكا"(اشتريت من السوق غطاء فراش أبيض) ... وهكذا.

وهذه اللغة هى التى كان الناس جميعاً يتحدثون بها ويفهمونها فى الأندلس. وهى كذلك كانت لغة الزجل الذى سيبلغ أوج ازدهاره فى عصر الطوائف،على يد زجالين موهوبين أشهرهم أبو بن قزمان.

بعد ذلك ، ظهر الموشح «والغالب أيضا أنه ابتكار أندلسي ، فكانوا يأخذون مركز" إحدى الأغاني الشعبية باللغة الأسبانية الدارجة «وينسجون في منواله أربعة أشطار أو خمس تنتهي بذلك المركز الذي يسمى " خرجة" أو أربعة أبيات أخرى عربية تنتهي بنفس الخرجة .. وهكذا.

السحر حق
وانا به اشهد
اضل العشق
مهجتي ولاينفذ
واين صدقوا
كم غريدة تنشد

فجر ضياء بالغ الجمال
عندما يطلع يبعث الحب
فجر له ضوء ساطع جميل
عندما يأتي طالبا للوصال

وقد انتقل الموشح الأندلسي إلى بلاد الإسلام كلها، وأصبح نوعا جارياً من الشعر، يجمع بين العربية الفصيحة والعامية الدارجة. وكان أول ظهوره على يد "مقدم بن معافى القبرى" الضرير الذى نشأ في أيام عبد الرحمن الأوسط.

أما النثر: فإن طبيعة الأمور تحتم وجود ثروة نثرية كبيرة على الرغم من ندرة ما وصل إليها من نصوص نثرية ، ونتعمد في قولنا بوجود ثروة نثرية على أساسين واضحين ، أولهما : الحاجة الملحة إلى استخدام الكلمة الحسنة ، والأسلوب الواضح في مجال الدعوة إلى الإسلام ، وأقامة الشعائر وخاصة الصلاة الجامعة أيام الجُمع والأعياد. أما الأساس الثاني : فهو الحاجة الملحة إلى استعمال الكلمة لها للحث على الحروب الأهلية أو شجبها ،

كما أن الكتابة كانت حاجة ملحة فى هذه الفترة تتطلبها ظروف الفتح والحكم والإدارة ؛ كما تتطلبها مناسبات رسمية وأخرى شخصية مثل كتابة العهود ، أو وضع شروط الصلح أو توجيه بعض المكاتبات .

وأول نثر عربى ابتدعه خيال المؤرخين ليرتبط بأرض الأندلس يتمثل فى تلك الخطبة الرائعة التى نسبت إلى طارق بن زياد ، والتى القاها لاشعال حماسة جنوده قبل اللقاء الحاسم فى معركة وادى لكه. وتتلون تلك الخطبة فى صيغتها التى وصلت إليها عن عبارات ذات صبغة عربية قُحة (خالصة)، ولكلماتها رنين قوى ، وأفكارها أفكار حربية ، تشجع الجنود على النصر وتحذرهم الهزيمة . لكن هذا النص الأدبى رغم أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بأرض الأندلس ، لا يمكن تضمينه هذه الدراسة ؛ وذلك للشك الكبيرفى صحته تاريخياً . وعدم وجود أدلة قوية على نسته لطارق بن زياد ، وذلك لأن قائله، وإن كان قد قاد عملية الفتح ، إلا أنه عاد الى المشرق بعد ذلك . وظل هناك حتى نهاية حياته.وهناك أيضا بعض النصوص المنسوبة إلى موسى بن نصير والى مغيث الرومى. لكن تلك النصوص مثله مثل نص طارق بن زياد تتعرض لكثير من النقد ، ويعتقد أنها كتبت بعد عصرهم ونسبت إليهم.

ومن النصوص النثرية الأولى التى وصلت إلينا ، صيغة الكتاب الذى قدمه عبد العزيز بن موسى بن نصير إلى تدمير حاكم منطقة مرسية، وتحدد فيها نوع المعاملة التى يجب أن تسود بين الفريقين، ويبدأ الكتاب بالصيغة التالية:

"بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد العزيز إلى تدمير ، أنه نزل على الصلح وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عن ملكه ولا أحد من النصارى عن أملاكه ، وأنهم يقتتلون، ولا يسبون أولادهم ولا نساؤهم ، ولا يكرهون على دينهم ... الخ (٣٣) .

أما النص الآخر الذى تتجلى فيه روعة الأسلوب مع وضوح الفكرة فهو المنسوب إلى صياغة القاضى مهدى بن مسلم ،قاضى عقبة بن الحجاج السلولى، والذى تولى الأندلس فى سنة ١١٦هـ، وظل بها حوالى٥ ،سنوات، إلى أن استشهد فى جهاده فى أرض خاله. والرسالة من صياغة القاضى ، والذى طلب منه وإليه الحجاج كتابة العهد ، فكتب رسالة ذات مستوى لغوى سليم ، موضحا بها بعض النقاط الهامة فى "المساواة بين الخصوم بنظرة استفهامه ولطفه ولحظة استماعه" وأن يفهم من كل أحد حجته ومايدلى به، ويستأنى كل عيبى اللسان، ناقصى البيان، فإن استقصاء الحجة ما يكون لحق الله تعالى عليه قاضياً، وللواجب فيه راغباً فقد يكون الحجة بحجته وأبلغ فى منطقه، وأسرع فى بلوغ المطلب، وألطف حيلة فى المذهب وأذكى ذكاءاً وأحضر جواباً من بعض، وإن كان غير الصواب مرماه، وخلاف الحق منهاه"[٣٤].

وكذلك احتفظت لنا المدونات بجزء من رسالة يوسف الفهرى آخر ولاة الأندلس والتى وجهها إلى عبد الرحمن الداخل حين نزل بأرض الأندلس يعرض عليه بعض الشروط لكى يتجب الحرب. ولكن فشلت هذه الرسالة فى إحلال الصلح بين الطرفين ، وذلك بسبب غرور كاتبها خالد بن يزيد .ويروى لنا كتاب أخبار مجموعة أن خالداً حمل كتاب يوسف إلى عبد الرحمن،وكان أديبا عاقلاً،إلا أنه زل ،وكان هو معلى الكتاب ، فأن له العجب وقديما ما أهلك دين الرجال ودنياهم، فقال : يا أبا عثمان : لتعرقن إبطك قبل أن تخير فيها جوابا فغضبت أبو عثمان وسبه وفشلت الوساطة ، وأخذ خالد بن يزيد أسيراً [٣٥] .

ومن كُتاب هذه الفترة ، لدينا أسماء خالد بن يزيد ،وأمية بن يزيد ، وكانا من كتاب يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ؛ ثم انتقلا بعد ذلك إلى خدمة عبد الرحمن الداخل .

وتصف الكتابات الأدبية نثر هذه الفترة الأولى من تاريخ الأدب الأندلسي، بأنه كان يحمل الخصائص الفنية للنثر الشرقي، كما أنه نثر يميل إلى الإيجاز ، ويعنى بقوة العبارةأكثر من عنايته بتحميلها؛ ثم هو لا يعرف تلك المقدمات الطويل أوالألقاب المتعددة مثلما هو الحال بالنسبة للعصور التالية:

وكما كان وصول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس علامة بارزة في تطور الشعر ، فهو كذلك أيضا فى مجال النثر ، لأن الأمير كان شاعراً جيداً وناثراً مفحماً، ومما ينسب إليه قوله حين قتل المغيرة ولد أخيه الوليد:

ياعجبى ألا من هؤلاء القوم ، سعينا فيما يضجعهم فى مهاد الأمن والنعمة ، وخاطرنا بحياتنا ، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا، ويسر الله تعال به حتى أمنوا وردت عليهم أخلاق النعم ، هزواً أعطافهم، وشمخوا بآنافهم ، وسموا إلى العظمى، فنازعونا فيما منحه الله تعالى ....[٣٦].

وقد احتفظت لنا المصادر بالكثير من النصوص النثرية المتعقلة بعبد الرحمن الداخل ، ومنها خطبة قالها بعد انتصاره فى معركة المصارة سنة ١٣٨هـ /٧٥٥م : ورسالة منه إلى سليمان الأعرابى ، حاكم برشلونة الذى أعلن العصيان وتحالف مع شارلمان.

ولم تقتصر الحياة الفكرية فى الأندلس خلال ذلك التاريخ البعيد على تلك الشواهد الأدبية شعراً أو نثراً . وإنما بدأت العلوم الإسلامية التى كانت قد نضجت فى الشرق فى الإنسياب نحو الأندلس . فبدأت قليلة تشق طريقها بثبات إلى هناك إلى أن حضرت مجرى واسماً انتقلت خلاله معظم هذه العلوم والآداب لتعيش على أرض الأندلس .ولتصبغ هناك بطبيعة هذه الأرض وسجايا الناس ولتتحول إلى جزء لا يتجزأ من الحضارة الأندلسية .

ومن أوائل من حملوا العلوم الإندلس نجد زياداً بن عبد الرحمن المتوفى سنة١٩٩هـ ، وهو أول من أدخل إلى الأندلس فقه مالك بن أنس ،

وكانوا قبل ذلك على المذهب الأوزاعي[٣٧] . وهو " أول من أظهر سنة تحويل الأودية في الإستسقاء [٣٨].

وفي أيام عبد الرحمن ابن معاوية دخل الغازى بن قيس الأندلس بالموطأ عن مالك بن أنس رحمه الله ، وبقراءة نافع بن أبى نجيم وفى أيامه دخل أبو موسىالهوارى عالم الأندلس ، وكان قد جمع علم العرب إلى علم الدين . وكانت رحلتهما من الشرق إلى الأندلس بعد دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، ودخل الأندلس قبل دخول الأمام عبد الرحمن بن معاوية، وكان من جلة أهل العلم ، ورواة الحديث . وكانت له مكانة عظيمة لدرجة أنه سئل محمد بن وضاح : هل جمع أهل الأندلس علم معاوية بن صالح؟ فأجاب بالنفى ، فقيل له : وما منعكم من ذلك ؟ قال : قدم بلدا لم يكن أهله يومئذ أهل علم فقيل له أضعتم والله علماً عظيماً "[٣٩] .

وانتهت إلى الأندلس أمهات الكتب فى النحو منذ أواخر القرن الثانى الهجرى، فأدخل جودى بن عثمان العبسى المتوفى سنة ١٩٨هـ كتاب الكسائى، وكان قد رحل إلى الشرق . وأخذ عن الرياضى والفراء والكسائى[٤٠] .

كذلك بدأ استخدام علم التنجيم فى هذه الفترة الباكرة من تاريخ الأندلس حيث أن هشاماً بن عبد الرحمن الداخل حينما تولى، حيث طلب المنجم فى الجزيرة الأيبرية، فقال له: لست أشك أنك قد عذبت بأمرى إذ بلغك، فناشدتك الله ألا أخبرتنى بما ظهر لك، فقال له "الضبى المنجم" ناشدتك الله ألا أعفيتنى من هذا، فأعفاه ،فلما كان بعد أيام كشف عنه . فقيل له خاطر بعث فبعث فيه وقال له: إن الذى أسألك : لست والله أصدق به على الحقيقة، ولكن أريد أن أسمعه ولئنى أوردت على مايغمنى ، لا أعاقبنك ولأكسونك ولأحبونك ، وأكافئك كما كنت أكافئك على أن تورد على ما يسرنى ، فقال له الضبى: ما بين الستة

والسبعة. فأطرق عنه ساعة ، ثم رفع رأسه إليه فقال له : يا ضبى والله لو أنها سجدة فى سبيل الله لهانت (٤١) .

الحياة التربوية فى الأندلس :

لاشك أن عمية التطور الثقافى والفكرى التى أشرنا إليها قد مضت فى طريقها معتمدة على انتشار اللغة العربية والإسلام ، وتعمقها فى نفوس أهل الأندلس . كما أنها قد صاحبها نشاط تربوى وتعليمى ، يحسن بنا أن نشير إليه ، باعتباره مظهراً من مظاهر الحضارة الأندلسية . كما أنه الأساس الراسخ الذى بنيت عليه هذه الحضارة .

بدأت الحياة التعليمية فى الأندلس بعد الفتح مباشرة وتمثلت فى بداية الأمر تعليم اللغة العربية والدين الإسلامى ، وقام بهذه المهمة مجموعة من العلماء الدينيين الذين رافقوا الجيوش الإسلامية فى عبورها إلى أرض شبه الجزيرة الأيبيرية (الأندلس) أو من هاجر إلى هناك بعد الفتح .

اتجه التعليم – كما هو طبيعى ومنطقى– فى بداية الأمر إلى الكبار، سواء من سكان الأرض الأسبانية أو من البربر حديثى العهد بالإسلام ، وهو أمر كان يحرص عليه الذين اهتموا بتعليم لغة الفاتحين من أجل مصالحهم الخاصة ، أو ممن اعتنوا بالاسلام ، وحاولوا معرفة لغة دينهم .

وفى نفس الوقت فإنه لم تنقض فترة طويلة حتى بدأت فى الظهور أجيال جديدة من أبناء الفاتحين وزوجاتهم الأسبانيات (المولدين) ومع هذه الأجيال تجلت الحاجة إلى تعليم الأطفال اللغة العربية والقرآن الكريم .

ولدينا من البيانات التاريخية ما يثبت وجود الكتب فى الأندلس على عهد الولاة حيث يحكى أن الصميل بن حاتم قد مرّ يوما بمعلم يعلم الصبيان وهو يقرأ "وتلك الأيام نداولها بين الناس" ودار بينه وبين المعلم جدل

غريب يمكن أن نفسره بأكثر من معنى(٤٢). كما أن الزبيدى في كتابه طبقات النحويين ، ينقل لنا نصا قيماً عن الغازى بن قيس . المتوفى سنة ١٩٩ هـ / ٨١٤ م . يمكن لنا أن نستنتج منه أنه في أيام دخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ؛ كان الغازى يمارس التأديب ، بل أن هذه المهنة كانت شائعة؛ ويمارسها عدد كبير من الناس وأن هؤلاء كانوا يشعرون بأنهم يمارسون حرفة معينة ؛ يجب أن يتقاضوا في مقابلها أتعاباً، ويتجمعون للدفاع عنها(٤٣) .

وما من شك في أن عدد الذين تعلموا خلال هذه الحقبة كان كبيراً ، وبعض هؤلاء هم الذين أتيح لهم على عهد عبد الرحمن الداخل القيام بالرحلة إلى الشرق وعادوا- كما أشرنا- حاملين معهم مزيداً من الثقافة إلى الأندلس مما دفع بهذه الحضارة الأندلسية خطوات على طريق التطور والأرتقاء .

في مجال العمران :

مما يلفت النظرفي دراسة هذا الجانب من جوانب الحضارة الأندلسية عدم قيام المسلمين هناك بتأسيس مدن خاصة بهم رغم أهمية هذا العمل في الاستقرار في البلد الجديد وتحويله إلى العربية لغة والإسلام ديناً. وتفسيرذلك تفسيراً علمياً يتطلب دراسة مستقلة عن دور المدينة الإسلامية في تعريف الأوطان الجديدة ونشر الإسلام بها ، وخاصة أن الأمثلة السابقة لا تحدد لنا بالضبط ، لماذا تم بناء هذه المدن ، ففي العراق ، وهو بلد كثيف السكان تم بناء البصرة والكوفة. أما بلاد الشام فلم تبن بها مدن جديدة . ومصرحظيت ببناء الفسطاط ، وافريقية بالقيروان أولا ثم تونس بعد ذلك.

وجاء بناء المدن في الأندلس فيما بعد في فترة الأزدهار الحضارى ، وتمثل في إقامة أماكن خاصة للخلفاء مثل الزهراء والزاهرة أو إقامة مدن بحرية مثل مدينة المرية .

أما مظاهر العمران التى قام بها المسلمون هناك فتتمثل فى إنشاء المساجد حيث تجمع المصادر التاريخية على أن أول شئ أقامه موسى بن نصيرهو مسجد الرايات فى الجزيرة الخضراء التى يقول عنها الأدريسى: "إنها أول مدينة افتتحت فى ذلك الوقت وبها على باب البحر مسجداً " مسجد الرايات "ويقال إنه هناك اجتمعت رايات القوم للرأى" (٤٤).

كما ان حنش بن عبد الله الصنعانى - أحد التابعين الذين لا خلاف عليهم حول دخولهم الأندلس مع الفتح - قد قام بتأسيس عدة مساجدهناك. فيذكرالحميدى حين يترجم له أنه: غزا الأندلس مع موسى بن نصير، وله بها آثار ، ويقال :إن بناء جامع سرقسطة من ثغور الأندلس من بنائه ، وأنه أول من اختطه(٤٥) . كذلك تذكر بعض المصادر الأندلسية إلى تأسيس حنش الصنعانى، بالتعاون مع غيره مساجد مدن :البيرة ، وقرطبة، وسرقسطة، وربما غيرها (٤٦).

وإذا كانت هذه المساجد قد أقيمت خلال مرحلة الفتح نفسها فانها استمرت بعد ذلك طوال التاريخ الأندلسى ، فاهتم الولاة والأمراء والأفراد بها. ومثالنا على ذلك قيام عبد العزيز بن موسى بن نصير أول وال فى الأندلس. ورغم أنه لم يحكم إلا بضعة شهور ، إلا أنه قام ببناء مسجد أشبيلية أمام داره، وهو المسجد الذى قتل فيه حين خرج لإمامة المسلمين (٤٧).

وما يقوله " النباهى" عن معاوية بن صالح أنه " من القضاة المتقدمين ،خرج من الشام إلى الأندلس فوصلها ١٢٣ هـ . فاستوطن مدينة مالقة ، وبنى بأسفل قصبتها مسجداً هو منسوب إليه حتى الآن(٤٨).

وغذا لم تكن متوفرة لدينا المعلومات الفنية عن مساجد هذه الفترة البعيدة من التاريخ الأندلسى، إلا أن أرادة الله لم تشأ أن تحرمها من الخلود حين هيأ لها

عبد الرحمن الداخل لكى يبدأ فى بناء مسجد قرطبة الجامع، والذى أصبح فيما بعد مفخرة فى البناء المدنى الأندلسى. وكان وما يزال درة غالية فى مجال فن البناء الإسلامى والحضارة الأندلسية خاصة والإسلامية عامة .

بدأ عبد الرحمن الدخل بناء هذا المسجد سنة١٧٠هـ / ٧٨٦م وجلب إليه الأعمدة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد ، وتوفى قبل إتمامه ، وأكمله ابنه هشام ، وزاد فيه أمراء بنى أمية وخلفاؤهم من بعد – كما أسلفنا – حتى غدا أعظتم مسجداً فى بلاد الأندلس ، وبلغ ما أنفقه عليه عبد الرحمن الداخل وحده زهاء ثمانين ألف دينار*[٤٩]، وفى بضع المصادر مائة ألف دينار .

واتجه المسلمون إلى الاهتمام تبحسين المرافق القائمة . فقد تنبه الوالى السمح بن مالك الخولانى إلى تهدم قنطرة قرطبةبعد أن استشار الخليفة عمر بن عبدالعزيز، الذى أمر بتجديد بنائها من صخر سورالمدينة وأن يبنى سور المدينة بالطوب اللبن، إذ لا يجد له صخرا ، فوضع – أى السمح – أساس بناء القنطرة فى سنة أحدى ومائة (١٠١هـ)[٥٠]، وعدت هذه القنطرة والمسجد الجامع من أهم معالم مدينة قرطبة ،وإذا كان هذان البناءان من وضع فترة التأسيس الحضارى ، فإن المدينة لم تضف إليها بعد ذلك إلا الزهراء وتميزها بالعلم حيث يقول الشاعر عنها :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة
منهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة
والعلم افضل شئ وهو رابعها[٥١]

وشهد عصر عبد الرحمن الداخل إهتماما بالمدينة، وركز اهتمامه على قرطبة التى حاول أن يجعل منها صورة لمدينة دمشق الإسلامية فى بلاد الشام حيث مجد أمجاده.

"فحصنها بالمنشآت الضخمة والرياض اليانعة، وكان أول ما أنشأ بها على عهده" منية الرصافة "التى أنشأها فى شمال غربى قرطبة، وأنشأ بها قصرا تحيط به الحدائق، وجلب إليه مختلف الغروس والبذور والنوى من الشام وأفريقية وأسماها الرصافة تخليداً لذكرى الرصافة التى أنشأها جده هشام بن عبد الملك فى الشام؛ واتخذها مقاما ومنتزها ومقراً للإمارة . وكانت حدائق الرصافة " أما " لحدائق الأندلس ، ومنها انتشرت غروس الشام وأفريقية .

وفى سنة ١٥٠هـ. بدأ عبد الرحمن بانشاء سور قرطبة الكبير واستمر العمل فيه عدة أعوام. كما أنشأ فى قرطبة وباقى مدن الأندلس مساجد محلية عديدة .

وهكذا وضعت الأسس التى تطور عليها فن العمارة الأندلسية لكى يثمر بعد ذلك عقوداً من الأعمال الفنية والمعمارية الخالدة والتى انتظمتها كتب تراث المسلمين الفنى والمعمارى .

وتجدر الإشارة هنا، أننى لا أستطيع تكرار ما ذكرته فى متن الجزء السياسى من الأعمال الحضارية وأهم مظاهرها فى أعقاب كل والى أو أمير أو خليفة طوال فترة الحكم الإسلامى بالأندلس. وإن كنت قد خصصت هذا الفصل لأعرض فيه الأسس التى قامت عليها الحضارة الأندلسية الإسلامية .

فإلى جانب هذا الفصل المستقل ، هناك فى جميع فصول الكتاب الجوانب الحضارية التى خلفتها لنا أعمال الولاة والأمراء والخلفاء المسلمين ، دون الفصل عن الجانب السياسى حتى تكتمل الصورة الحضارية فى نشأتها وتطورها خلال السيادة الإسلامية فى الأندلس والتى استمرت هناك ما يقرب من ثمانمائة عام تقريباً تذخر بكل ما هو رائع وفخر للإسلام .

هوامش الفصل الخامس :

(1) Conzales Prats ; Antonio : Altura en les ciencias Medicas en el Rieno de Al-Andalus ,p. 20.

وراجع أيضا : ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط ، المجلد الثاني ، ١٩٨٣ . ص ٢٦٧.

(٢) د. عبد اللطيف عبد الهادى السيد، "موسوعة التاريخ الإسلامى" مجلد ٩، ١٠ط / الاسكندرية، ص١٠ ٢٠١٠م .

(3) Gomez Nogales ; La Filozofia Musulmans, pp. ٩ - ١٠ .

(4) Ibid . Op. cit , p. 130 .

(5) Ibid . pp. 130 – 131 .

(٦) أحمد هيكل ، الأدب الأندلسى ، ط /٢٨ ، ص ٣٥

وراجع : ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، ص ٢٦٨.

(٧) الطاهر مكى؛ حضارة الإسلام فى الأندلس، عدد خاص من مجلة الهلال، يونيو سنة ١٩٧٦م ،ص ٩٣ .

(٨) د. محمد عبد المجيد عيسى، تاريخ التعليم فى الأندلس، ص ٧١ – ٧٣ ، دار الفكر العربى١٩٨٢ م .

(٩) أحمد هيكل، المرجع السابق، ص ٦١ – ٦٢ .

(١٠) حسين مؤنس، فجرالأندلس، ص ١٤٨ وما بعدها .

(١١) محمد عبد الحميد عيسى ، المرجع السابق ، ص ٧٤ .

(١٢) ابن القوطية، افتتاح الأندلس، ص ٣٨، طبعة الأبيارى، القاهرة، ب– ت.

(١٣) المؤلف المجهول " أخبار مجموعة " ص ٣٠ طبعة الإبياري . دار الكتاب المصري، القاهرة ، ١٩٨٢ م .

(١٤) الخشني : قضاة قرطبة ، ص٦ طبعة الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ب.ت .

(15) Altamera, Ho de Espana ٤ de la Civilization Espanola, p.229, 30 Edcian , Barcelona 1913 .

(١٦) خليل داود الزرو : الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني من الهجرة، بيروت ،١٩٧١م ،ص ١٠٤ .

(١٧) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٢٢٧.

(١٨) محمود على مكى في :

Euzayos Sbore las aportacione .s Orientales, en la Espania musulmana.

(١٩) ابن الفرض: علماء الأندلس، ص١٨١، والحميدي، ص٢٠٥، وانظر أسماء أخرى في: محمد عبد الحميد عيسى" تاريخ التعليم في الأندلس" ص٧٥.

(٢٠) ابن فرحون : الديباج المذهب في تاريخ أعيان المذهب ، جـ ٣ ، ص٦٥- ٦٦ .

(٢١) ابن القوطية ،إفتتاح الأندلس ، ص ٤٢ .

(٢٢) أحمد هيكل ،الأدب في الأندلس ص ٦٢ .

(٢٣) المرجع السابق نفسه ، نفس الصفحة.

(٢٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٤٣.

(٢٥) ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٥١ .

(٢٦) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ٤٣ ، وراجع : جودت الركابى: فى الأدب الأندلسى . ص ٨٣ .

(٢٧) ابن عذارى ،المصدر السابق،جـ٢ ، ص ٦٠

(٢٨) مؤرخ مجهول ، أخبار مجموعة ،ص ١٠٦، وراجع: ابن سعيد، المغرب فى حلى المغرب ، جـ ٢ ، ص ٥٩ .

(٢٩) على أدهم : صقر قريش ،المقتطف ١٩٣٨م .

(٣٠) أخبار مجموعة ، ص ١٠٧.

(٣١) أحمد هيكل ، المصدر السابق ، ص ٩٨ – ١٠٢ .

(٣٢) محمود مكى ، فى الرسالة المشار إليها ، ص ١٤٠ – ١٤٢ .

(٣٣) عبد الرحمن على الحجى، التاريخ الأندلسى ، ص ٨٠ .

(٣٤) الخشنى ؛ قضاة قرطبة ،ص ٩ : ١١،حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص٦٤٦ : ٦٤٨.

(٣٥) أخبار مجموعة ، ص ٧٥ – ٧٦ .

(٣٦) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٧٢ – ٧٣ ، طبعة حسان عباس .

(٣٧) الحميدى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٣٨) الخشنى ، قضاة قرطبة ، ص ٢٧ .

(٣٩) ابن الفرضى ؛ علماء الأندلس ،جـ ٢ ، ص ١٣٨- ١٤٠ .

(٤٠) لطفى عبدالسميع ، الإسلام فى أسبانيا ص ٧٣ .

(٤١) ابن القوطية، المصدر السابق ، ٦١ .

(٤٢) محمد عبد الحميد عيسى ، التعليم فى الأندلس ، ص ٢١٩.

(٤٣) نفسه ، نفس المرجع ، والصفحة .

(٤٤) الإدريسى: نزهة المشتاق، ص١٧٧؛ الحجى : المصدر السابق ، ص١٤٦ .

(٤٥) الحميدى، المصدر السابق، ص ١٨٩- ١٩٠، ابن الفرضى، علماء الأندلس، جـ١، ص ١٢٧ .

(٤٦) الحجى ، المصدر السابق ،ص ١٤٦.

(٤٧) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، التعليق رقم (١). ص٢٣ .

(٤٨) النباهى : قضاة الأندلس ، ص ٤٣ .

(٤٩) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ،ص ٢٠٠- ٢٠١ .

(٥٠) أخبار مجموعة ، ص ٣٠ -٣١.

(٥١) عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس، ص٣١٠ .

ملحق الكتاب
حول مذهب
الإمام مالك فى الأندلس

فى عصر الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالرضا (١٧٢- ١٨٠هـ/ ٧٨٩- ٧٩٦م) نعمت بلاد الأندلس بقدر من الإستقرار والنضوج، لاسيما بعد أن قضى الأمير هشام الأول هذا، على معارضيه، أهمهم أخوة سليمان الذى سانده الحزب الشامى الأندلسى، فأسفر ذلك عن التخلص تدريجياً من التأثير الشامى، فضلاً عن أن التراث الشامى لم يعد ملائماً لإمداد الأندلس بمقومات حياته الفكرية وعلى الأخص فى مجال الحياة الدينية، فبدأ الأندلسيون يتطلعون إلى حضارة جديدة، وتراث جديد، فإتجهت أنظارهم إلى الحجاز يستمدون منه قوام حياتهم الروحية. وكانت المدينة المنورة حاضرة دينية ممتازة فى العلوم الدينية آنذاك، يقيم فيها الإمام مالك بن أنس(1) صاحب المذهب المعروف باسمه، ومقدم مدرسة أهل الحديث فى الفقه، وكان يعاصره فى العراق الإمام أبو حنيفة النعمان المتوفى (١٥٠هـ/ ٧٦٩م)، صاحب المذهب المنسوب إليه الذى إنتشر فى العراق لمواءمته البيئة العراقية، وعقلية أهل العراق؛ وهو مقدم مدرسة أهل الرأى والقياس فى الفقه. وكان من الطبيعى أن يتجه أهل الأندلس إلى مذهب إمام دار الهجرة "الإمام مالك" لاسيما فى الفكر الدينى الذى بدت فيه سمات خاصة وبوادر معينة جعلته أقرب إلى تأييد بنى أمية ومعارضة العباسيين فى أى فكر آخر.

ولكن كيف تسنى للمذهب المالكى أن يحتل مكان الصدارة فى الأندلس بمثل هذه السرعة؟ وما أهم العوامل والأسباب التى مكنته من ذلك؟ وللإجابة على تلك الأسئلة، نقول: إن المذهب المالكى إنتشر فى الأندلس وحل محل المذهب الأوزاعى الدمشقى بسرعة كبيرة، ربما لقوة المذهب ذاته، وملائمته لأفكار كثير من الناس من ناحية، ومن ناحية أخرى يرجع إلى أسباب سياسية تتمثل فى إستقلال الدولة الأموية فى الأندلس عن الخلافة العباسية فى بغداد (أصحاب مذهب أبى حنيفة النعمان) الأمر الذى دفع الأمويين فى الأندلس إلى الاتجاه بسرعة نحو مذهب الإمام مال بن أنس فى المدينة المنورة، والذى أبدى

إعجاب الأندلسيين به الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، ومدحه فى إحدى مجال العلم الطلاب الأندلسييون بقولهم له: "تسأل الله أن يزيم حرمنا بملككم"[٢]. ولعل ذلك يؤيد ما ذهب إليه عالم محدث من أن مذهب الإمام مالك بن أنس إنتشر فى الأندلس بسلطان الدولة[٣].

وهذا، فضلاً عن أن المجتمع الأندلسى كان يضم فيما يضم عناصر عربية من أصول حجازية دون العراقيين الذين لم يشاركوا فى جيوش الفتح والطوالع التى وفدت إلى الأندلس مما أدى إلى أن يفكر عدد كبير من الحجازيين فى العودة إلى بلادهم لزيارة أهلهم ولتأدية فريضة الحج. فلما عادوا كانوا أكثر تأثراً بمذهب مالك بن أنس ونشروه فى الأندلس "ولم يكن للعراقيين نصيب فى هذا المذهب داخل الأندلس، وإقتصر الأندلسيين على الأخذ من علماء المدينة وشيخهم "مالك" وشيوخه من قبله، وتلميذه من بعده، فرجع أها المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره، ممن لم تصل إليهم طريقته"[٤]. وقد ساعد ذلك بطبيعة الحال على إتصال الأندلسيين بالإمام مالك والإلمام بمذهبه السائد فى المدينة المنورة والأراضى الحجازية.

على أن ابن خلدون يضيف عاملاً آخر لإنتشار المذهب المالكى فى الأندلس فيقول: "فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعاينون الحضارة التى لأهل العراق؛ فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكى غضاً عندهم، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع فى غيره من المذاهب"[٥]؛ ومع إحترامنا لرأى المؤرخ الكبير "ابن خلدون" ومع ما لرأيه من وجاهة، إلا أننا نعتقد أن أهل الحجاز وغيرهم من سكان البداوة قد تغير فكرهم ومفهومهم للحياة بشكل أوسع فى ظل العصر الموى الذى بلغت فيه الحضارة الإسلامية مبلغاً كبيراً من الرقى والتقدم بسبب فتوحاتهم الواسعة وإختلاطهم بشعوب وأجناس ذات تباين وتوجهات مختلفة عن حياة البداوة فى الحجاز أو المغرب أو حتى فى الأندلس.

فخروج العرب من جزيرتهم إلى بلاد الشام وفارس وحتى الهند والصين شرقاً أدى إلى تغيراً واضحاً فى حياة المسلمين خاصة فى الجانب الإقتصادى والذى أغدق فيه الخلفاء الأمويون ومن بعدهم العباسيون على الحواضر الإسلامية مما تفيض به هذه البلاد أو تلك، وكثر التنعم ونبغ الشعراء فى مجال الغزل، وكثر الغناء الحضرى، بل أمدوا به بغداد حاضرة الخلافة العباسية. وإذا سلمنا بما قدمه ابن خلدون من أن حواضر الحجاز يسكنها البدو، فلا يجوز أن نسلم بذلك فى الأندلس فأهل الأندلس كانوا أصحاب حضارة دون شك لموقعها فى قلب البحار والمحيطات؛ وقد سبقت الحضارة الإسلامية إليها الحضارة الفينيقية القديمة بخاصة، ثم الحضارة الرومانية ثم القوطية، التى لا زالت آثارها باقية حتى اليوم إلى جانب ما خلفته الحضارة الإسلامية هناك[٦].

وهكذا، إنتشر المذهب المالكى فى التدلس، وحل محل المذهب الأوزاعى الدمشقى، غير ان الأندلسيين إحتفظوا بمسألة غرس الشجر فى صحون المساجد[٧]؛ متتبعين فيه مذهب الإمام الأوزاعى، ومذهب مالك يكره ذلك؟![٨]. وهذه المسألة ميزت المالكية الأندلسية عن غيرها حتى إنتهاء دولة الإسلام فى الأندلس.

ولا خلاف بين المصادر الأندلسية فى أن دخول المذهب المالكى فى الأندلس، وإنتشاره هناك كان على أيدى الأندلسيين أنفسهم الذين درسوا على الإمام مالك بن أنس فى المدينة المنورة ثم عادوا إلى بلادهم ونقلوا فقهه إليها.

وأول من نقل هذا المذهب من تلاميذه هو زياد بن عبد الرحمن اللخمى، المعروف بشبطون (ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م)[٩]. ويذكر المقرى أنه "كان فقيه الأندلس على مذهب الإمام مالك، وهو أول من أدخل مذهبه الأندلس[١٠]، ويضيف قائلاً "هو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس مكملاً متقناً، فأخذه عنه يحى بن يحى" الليثى (ت ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م)[١١].

ثم إنتشر المذهب المالكى فى الأندلس على يد الفقيه المحـدث الواسـع الشهرة "يحى الليثى" الذى سماه مالك بـ "عاقل الأندلسى" "الرشـيد"(١٢). وكـان "يحيى الليثى" هذا عميد فقهاء الأندلس(١٣). قد بلغ مكانة سامية لدى الأمير هشام الملقب بالرضا، وجعل للفقهاء والقضاة منزلة كبيرة فى عصره، فـإرتقوا أهـم المناصب، وإعتمد عليهم الأمير هشام وقربهم إليه، وهو بطبيعته كـان تقيـاً(١٤) فكان يستمع إليهم، وينفذ مشورتهم، فكثر تدخلهم فى شئون الدولة.

وهكذا، إنتقلت الفتوى فى الأندلس إلى رأى مالـك بـن أنـس، وأهـل المدينة، فإنتشر علم مالك ورأيه فى حواضر بلاد الأندلس(١٥) فيما عـدا أربـع مسائل خالف فيها مالكية الأندلس مالكية المشرق، فأخذوا ثلاثاً منها من مـذهب الإمام الليث بن سعد، وأخذوا الرابعة من مذهب الإمام الأوزاعى(١٦). والمسائل الأربعة هى: ان لا يحكموا بالخلطة، ولا بالشاهد اليمين وأجازوا كـراء الأرض بالجزء مما يخرج منها، وهو مذهب الليث ابن سعد، وأجازوا غرس الشجر فى المسجد، وهو مذهب الأوزاعى(١٧).

وهكذا إنتشر مذهب الإمام مالك بن أنس (فقيه المدينـة المنـورة) فـى الأندلس من حيث الأسباب التى عرضنا لها، وكذلك إعتلائه مكان الصدارة بين المذاهب الأخرى هناك.

هوامش الملحق :

(١) هو عبدالله مالك بن أنس بن أبى عامر بن عمرو الأصبحى، ولد بالمدينة المنورة فى سنة ٩٧هـ/ ٧١٥م، وقيل فى سنة ٩٣هـ/ ٧١١م، وينسب إلى أهل ذى أصبح الحميرى، الذى كان ملكاً ممن ملوك حمير. أخذ مالك عن الزهرى المحدث، ونافع القارئ وغيرهما؛ ومن مصنفاته كتاب "الموطأ" أى السهل الواضح، رتب فيه أبواب الفقه على الحديث معاً، تذكر فيه الأحاديث فى الموضوع الفقهى الذى يجتهد فيه ثم عمل أهل المجمع عليه، ثم رأى من إلتقى بهم من التابعين، وآراء الصحابة والتابعين الذين يلتقى بهم، كسعيد بن المسيب، وفيه الآراء المشهورة بالمدينة، وقد روى بعده روايات، وأشهر الروايات له روايتان: أحدهما، رواية يحيى بن يحيى الليثى الأندلسى المتوفى عام ٢٣٤هـ. والأخرى، رواية محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة؛ وتوفى الإمام مالك بالمدينة المنورة سنة ١٧٩هـ/ ٧٩٦م، أى عن عمر يناهز "٨٢ عاماً".

أنظر: إبن فرحون (ابراهيم بن على): الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب، تحقيق دكتور. محمد الأحمدى أبو النور، جـ١، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٩٧٢، ص٨١ وما بعدها.

(٢) ابن القوطية القرطبى (أبو بكر محمد): تاريخ إفتتاح الأندلس، نشر دون جوليان ريبيرا، مدريد، ١٩٢٦م، ص٤٣.

(٣) الإمام محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية فى السياسة والعقائد والمذاهب الفقهية، دار الفكر العربى، (ب. ت) ص١٣٠.

(٤) إبن خلدون، المقدمة، ص٨٠٥.

(٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٨٠٥- ٨٠٦.

(6) Agude Bleye; Manuel de la histoire de Espana; tomo, I, Madrid; 1947, pp. 15 – 16.

(٧) النباهى، المرقبة العليا، ص٥١ – ٥٢.

(٨) عندما كانت دمشق حاضرة الخلافة الأموية قبل قيام الخلافة العباسية فى بغداد، فلا غرابة فى أن يظل مذهب الإمام الأوزاعى فى الأندلس إلى جانب المذهب المالكى، وإن كان لا يضاهيه من حيث القوة والمنعة هناك. فهو ولا غرابة كان مذهب الأمويين فى المشرق. "المؤلف".

(٩) الخشى، قضاة الأندلس، ص٣-٤ ، وأنظر أيضاً :

ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، ص١٥٤، (ترجمة ٤٥٨) والحميدى، جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦، ص٢١٨. وإبن فرحون، الديباج، الجزء الأول، ص٢٧٠.

(١٠) المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الثانى، بيروت، ص٤٥.

(١١) المقرى، نفس المصدر والجزء، ص٤٦.

(١٢) ابن القوطية، المصدر السابق، ص٣٥، وأيضاً الخشنى، المصدر السابق، ص٣٥- ٣٦، ابن الفرضى، المصدر السابق، قسم/٢، ص١٧٩- ١٨١، وراجع: ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام. نشره ليفى بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦م، ص١٥.

(١٣) ابن حيان، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق الدكتور محمود على مكى، دار الكتاب العربى، بيروت ١٩٧٣م، ص٨٣. وراجع: ابن عذارى المراكشى؛ البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، جـ٢، تحقيق كولان وليفى دارالثقافة، بيروت، (ب – ت)، ص٦٥- ٦٦.

(١٤) ابن عذاري، المصدر السابق، نفس الصفحات.

(١٥) ابن الخطيب؛ الإحاطة فى أخبار غرناطة، م/١، تحقيق محمد عبدالله عنان؛ القاهرة، ١٩٧٣م، ص١٣٤.

(١٦) النباهى، المرقبة العليا، ص٥١، وأنظر أيضاً:
Mahmud Makki, op. cit; pp. 227 – 231.

(١٧) النباهى، المصدر السابق، نفس الصفحة.

الخاتمة

الخاتمة :

من الملاحظ بعد ما قدمنا فى فصول الكتاب الخمسة السابقة وما سبقها من تمهيد، أن المسلمين فى الأندلس لم يستطيعوا مطلقاً فى وقت من الأوقات ان يسيطروا سيطرة تامة على جميع أنحاء شبه جزيرة أيبريا، وإنما ظلت بعض الجهات - ويخاصة فى الشمال الغربى - خارجة عن نفوذ المسلمين فقامت بها أربع دويلات نصرانية (أو أربع ممالك) هى: مملكة ليون، ومملكة نافارى، وكونتية برشلونة وكونتية قشتالة النصرانية[١]. ومن هذه الوحدات السياسية إنبعث الخطر الذى هدد المسلمين فى الندلس على الدوام. وفى الوقت الذى تدهورت فيه الخلافة الأموية فى قرطبة حتى سقطت فعلاً سنة ١٠٣٢م[٢]. ولم يلبث أن بلغ التوسع المسيحى على حساب المسلمين بالأندلس درجة خطيرة فى عهد الفونسو السادس ملك ليون وقشتالة (١٠٩٥- ١١٩٠م). وهو الذى أوغل فى وادى نهر تاجه - كما مر بنا - حتى إستولى على مدريد ثم على طليطلة نفسها سنة ١٠٨٥م. وبذلك خسر المسلمون معقلاً من أهم معاقلهم بالأندلس[٣].

وكان لسقوط طليطلة سنة ١٠٨٥م دوى هائل فى جميع أنحاء أوربا الغربية، إذ إستثار الشعور والحماسة لطرد المسلمين كلية من أسبانيا.

أما فى الجانب الإسلامى فإن ضياع تلك المدينة، التى هى "من أكبر البلاد وأحصنها"[٤]. هذا المسلمين جميعاً فى المشرق والمغرب، وجعل مسلمى الأندلس يفكرون فى طريقة فعالة لوقف الخطر المسيحى من ناحية، وإسترداد ما فقدوه من أراض وبلاد من ناحية. وهنا لم يتردد ملوك الطوائف فى الإستعان بالمرابطين فى شمال أفريقية - بعد تردد بين ملوك الطوائف - وهم أقرب قوة إسلامية يمكنها أن تدرأ خطر المسيحيين عن مسلمى الأندلس[٥]. ولم يلبث أن عبر يوسف بن تاشفين - ملك المرابطين - مضيق جبل طارق سنة ١٠٨٦م على رأس جيش كبير من البربر الأشداء، حيث إلتقى مع إلفونسو السادس فى

موقعة الزلاقة فى أكتوبر سنة ١٠٨٦م. وحلت الهزيمة بالقشتاليين، وفرَّ الفونسو السادس مع فلول جيشه مخلفاً وراءه عدة آلاف من لبقتلى والأسرى فى حين قفل يوسف بن تاشفين راجعاً إلى شمال أفريقية(٦).

وقد أدى تجدد الخطر المسيحى على المسلمين بالأندلس من ناحية، وإتساع الخلاف بين ملوك الطوائف المسلمين من ناحية ثانية إلى عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية سنة ١٠٩٠م، ليشن حرباً على ملوك الطوائف المسلمين، فضلاً عن المسيحيين، ولم يلبث المرابطون أن إستولوا على بلاد الأندلس الإسلامية بأكملها، عدا مدينة طليطلة. وعندما ذالت دولة المرابطين وحل محلها دولة الموحدين فى شمال أفريقية، فكر الموحدون - بوصفهم ورثة المرابطين - فى ضم الأندلس إلى ملوكهم، وإستطاع قائدهم عبد المؤمن أن ينجح فى ذلك سنة ١١٤٦م(٧).

وفى ذلك الوقت كان المسيحيون فى أسبانيا قد وجدوا بطلاً جديداً فى شخص ألفونسو الأول ملك أرغونة (١١٠٤ - ١١٣٤م) وقد إستطاع هذا الملك أن يواصل إغاراته العنيفة على المسلمين فى الندلس، حتى وفاته أمام أسوار بلنسية سنة (١١٣٤م)(٨). كذلك إستطاع ريمور برنجار الرابع كونت قشتالة، أن يغزو طرطوشة سنة ١١٤٨م، وفى الجبهة الغربية تمكن ملك البرتغال ألفونسو الأول من التوغل داخل الأراضى الإسلامية وراء نهر تاجة(٩).

وقد أوضحت الدراسة أيضاً ان ألفونسو الأول قام بجهود صليبية ضد المسلمين فى الأندلس، حيث انه إستعان بأسطول صليبى سنة ١١٤٧م يجمل جماعة من الإنجليز والفلمنكيين والألمان - كان فى طريقهم إلى الشام للمشاركة فى الحملة الصليبية الثانية - فإستوقفهم ألفونسو الأول لمساعدته. وتمكن بمساعدتهم من طرد المسلمين من لشبونة التى غدت عاصمة البرتغال، المملكة الناشئة(١٠). وهكذا لم يقتصر ميدان الحروب الصليبية فى ذلك العصر على

المشرق والأراضى الفلسطينية فقط، بل شمل أيضاً المغرب وأسبانيا فأسهم الصليبيون الوافدون من إنجلترا وألمانيا فى فتح لشبونة. كما إشترك الصليبيون الفرنسيون فى مساعدة برنجار كونت برشلونة وبروفانس؛ هذا فى الوقت الذى مد فرسان الدولة والإسبتارية نشاطهم إلى وادى نهر إيرو بأسبانيا فضلاً عن بلاد الشام(١١). ولم تلبث فرسان السسترثيان أن أقامت لنفسها مركزاً فى أسبانيا سنة ١١٤٩م للدفاع عن مصالحهم من جهة ومحاربة المسلمين من جهة ثانية. ثم تكاثرت بعد ذلك المنظمات الدينية العسكرية مثل هيئة (ست - جوليان) التى أسسها ملك ليون سنة ١١٥٢م والتى إتخذت فيما بعد اسم منظمة القنطرة سنة ١٢١٨م(١٢).

ولم تتردد البابوية فى تشجيع تلك المنظمات فى أسبانيا بالدور نفسه الذى قامت به الأسبتارية والداوية والتيتون فى بلاد الشام - والفضل هنا يرجع إلى البابا إسكندر الثالث والبابا إنوسنت الثالث، فى قيام أشهر منظمة دينية حربية عرفتها أسبانيا وهى منظمة "سنتياجو"(١٣). وبفضل نشاط هذه الهيئات إشتدت حماسة المسيحيين فى حرب المسلمين فى الأندلس. كما أخذ الطابع الدينى يغلب على هذه الحرب ليجعل منها حرباً صليبية مقدسة لا تقل أهمية فى نظر الأوربيين المعاصرين عن الحرب الصليبية الدائرة فى المشرق(١٤). وهكذا دخل الصراع بين المسيحيين فى أسبانيا دوراً جديداً لم يعد فيه مجرد حروب محلية متفرقة بين حكام الفريقين. وأنما أصبح صراعاً شاملاً بين حضارتين مختلفتين وديانتين سماويتين متباينتين، ظلا يتقسمان النفوذ، ويتنازعان السيادة على ذلك الركن الجنوبى الغربى من أوربا طوال عدة قرون(١٥).

وفى هذه الحروب أظهر الموحدون مقاومة عنيفة، حتى أنزلوا هزيمة ساحقة بألفونسو الرابع ملك قشتالة فى موقعة الأرك سنة ١١٩٥م(١٦).

على أن البابا إنوسنت الثالث لم يسكت على هزيمة الأرك، إذ لم يلبث أن أعلن الحرب الصليبية ضد مسلمى الأندلس، وتضافرت فى تلك الحملة على

الأندلس جهود ملك أرغونة وملك نافارى وملك قشتالة، وجعل الحملة تحت رئاسة أساقفة ناربون[١٧] مما أنزل هزيمة كبرى بالموحدين فى موقعة العقاب سنة ١٢١٢م[١٨].

ولم تقم قائمة للموحدين بعد ذلك بالأندلس، فأخذت المدن والمعاقل الإسلامية تتساقط الواحدة بعد الأخرى فى قبضة المسيحيين، بحيث لم يتبق للمسلمين فى أسبانيا عند منتصف القرن الـ ١٣ م. سوى مملكة غرناطة الصغيرة فى الطرف الجنوبى لشبه جزيرة إيبيريا. وفى تلك البقعة الضيقة بين جبال نيفادا والبحر، قدر لبقايا دولة المسلمين أن تعيش فترة أخرى من الزمان، بلغت بعد ذلك نحواً من قرنين ونصف[١٩] حتى كان طرد المسلمين العرب من أسبانيا نهائياً أواخر عام ١٤٩١م[٢٠].

وهكذا، بدأ الفتح الإسلامى للأندلس فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥- ٧١٥م) بعد نجاحهم فى القضاء على دولة القوط الغربيين (الوندال)، وإنتهى أجل المسلمين هناك أواخر عام ١٤٩١م، عندما تأخرت النجدات الإسلامية من قبل المماليك فى مصر والشام، وكذلك الدولة العثمانية[٢١].

وكان ما أهم ما توصل إليه البحص هنا، هى تلك الحضارة الإسلامية التى لم تزول وتتدهور بنفس السرعة التى إنتهت عندها النفوذ السياسى للمسلمين فى الأندلس: ذلك أن حضارة العرب الفكرية لم تبلغ ذروتها فى الأندلس إلا فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى، على عصر الفيلسوف الأندلسى الذائع الصيت ابن رشد (١١٢٦- ١١٩٨م) وهو العصر الذى إشتد فيه أيضاً إقبال الأوربيين على ترجمة علوم المسلمين ونقلها من أسبانيا إلى مختلف أنحاء أوربا[٢٢]. وعلينا أن نلفت الإنتباه هنا، إلى أنه فى الوقت الذى أخذ فيه نجم المسلمين فى أسبانيا فى الأفول، كانت أوربا آخذه نحو النهضة، حيث بدأت تتفتح أمم الغرب آفاق جديدة بدت واضحة فى النشاط الإقتصادى والإستقرار الإجتماعى والتنظيم السياسى[٢٣].

الواقع أن الرقى الحضارى الذى بلغته أسبانيا فى ظل الحكم الإسلامى، يعتبر أبرز ناحية فى تاريخها طوال العصور الوسطى. فبالفتح الإسلامى إنتهى عصر الفوضى والإضطراب والتدهور الذى أصاب شبه جزيرة أيبيريا فى عهد القوط الغربيين، وأخذ المسلمون ينشرون فى البلاد جواً من الاستقرار والتسامح، وينصرفون إلى الإنتاج وإستثمار موارد البلاد فى صورة لم تعرفها البلاد من قبل. ولم تلبث أن تحولت مروج أسبانيا فى ظل الحكم العربى إلى حقول زراعية مثمرة إنتشرت فيها أشجار التين والزيتون والنخيل، فى حين أدخلت زراعة القصب (قصب السكر) والأرز فى الأجزاء الشرقية، والقطن والكتان فى الإقليم المحيط بأشبيلية، والتوت وصناعة الحرير فى الجنوب حول غرناطة(٢٤). هذا فضلاً عن تربية الماشية فى المراعى الواسعة للإستفادة من أصوافها وألبانها ولحومها. وقد صحب هذا النشاط الزراعى فى الأندلس إهتماماً كبيراً بالرى ووسائله، إذ أدخا العرب فى أسبانيا نظامهم فى الرى الذى لم يصل إلى الأسبان من قبل ولا من بعد(٢٥)، حتى أن المصطلحات المستخدمة فى الزراعة والرى فى أسبانيا الحديثة ما زالت حتى اليوم تحمل أسماء عربية او ذات أصل عربى(٢٦). أما المدن فقد أصبحت مركزاً انشاط تجارى وصناعى واسع؛ إذ كان يتم فيها تصنيع وبيع وشراء الجزء الأكبر من المحاصيل الزراعية. وكانت أهم الصناعات، صناعة المعادن والخزف والزجاج والمنسوجات القطنية والكتانية والحديدية، فضلاً عن التطريز. وقد إشتهرت قرطبة مركز الخلافة الأموية بالأندلس، بصناعة الخزف والفخار، كما إشتهرت بالجلود التى نسبت إليها؛ فى حين عرفت طليطلة بالسيوف والأسلحة الحربية(٢٧).

لقد أبرزت الدراسة أهمية قرطبة الحضارى ووجهها المشرق فى ظل الحكم الإسلامى. فقد بلغت درجة كبيرة من الازدهار فى ذلك العصر، بعد أن أصبحت مركزاً تجارياً وصناعياً وعلمياً عظيماً، هذا بالإضافة إلى أن المسلمين قد أدركوا أهمية موقعها ومميزاتها التى تفوق تلك التى تمتعت بها طليطلة -

عاصمة القوط الغربيين - فإتخذوها حاضرة لهم، وأقاموا فيها الجسور والمساجد والأسواق ذات الفن العربى الرفيع، والتى ما زال بعضها، باقياً حتى اليوم يشهد على عظمة حضارة الأندلس الإسلامية. وقد أجمع المؤرخون على أنه لم توجد مدينة أخرى معاصرة فى أوربا - خلاف القسطنطينية - بلغت ما بلغته قرطبة فى العصر الإسلامى، من تقدم الحضارة ورخاء الحياة(٢٨). ذلك ان عدد سكانها بلغ يتراوح - آنذاك - بين المليون ونصف المليون نسمة، وبلغ عدد منازلها مائتى ألف، ومساجدها - حينئذ - ثلاثة آلاف مسجداً، وحماماتها العامة ثلاثمائة، حتى صارت شهرتها بعيداً إلى قلب ألمانيا، فذكرتها الراهبة الألمانية "هوسويثا - Horswitha " فى شعرها، وأطلقت عليها اسم "جوهرة الدنيا"(٢٩).

ويكفى قرطبة فخراً أن أهلها كانوا يستطيعون السير فى طرقاتها بعد غروب الشمس فى ضوء المصابيح العامة. فى حين ظلت لندن سبعة قرون بعد ذلك لا يوجد بها مصباح عامي واحد يضيء ظلمة شوارعها(٣٠).

كذلك أوضحت الدراسة أن قرطبة فى العصر الإسلامى سرعان ما غدت مركزاً للشعراء والأدباء والعلماء، وبخاصة منذ عهد الحكم المستنصر، الذى أرسل فى شراء أمهات الكتب من القاهرة وبغداد ودمشق والاسكندرية. فإذا تعذر شراؤها أرسل من يقوم بنسخها وإحضارها إلى قرطبة، حتى أصبحت مكتبة قصر الخليفة تضم أكثر من أربعمائة ألف مجلد. وقد صحب هذا النشاط العلمى إزدياد عدد المدارس - كما أوضحنا فى الكتاب - وعلى رأسها يأتى مسجد قرطبة الجامع الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل سنة ٧٧٤م وأتمه إبنه هشام سنة ٧٩٣م؛ ثم أصبح بمثابة جامعة علمية ضخمة من الطراز الأول تدرس فيه جميع ألوان المعرفة من علوم دينية كالفقه والحديث والشريعة إلى الأدب شعراً ونثراً، إلى علوم بحته كالطب والفلك والجغرافيا والطبيعة والكيمياء والفلسفة. وهكذا قصد قرطبة طلاب العلم من مختلف الجهات حتى أخذت تنازع بغداد مكانتها كأعظم مركز للنشاط الفكرى فى العالم الإسلامى(٣١). وقد إشتهر من

علماء الفقه واللغة فى جامعة قرطبة، أبو على القالى، وأبو بكر بن معاوية القرشى، وابن القوطية[٣٢]، ومن علماء الطب والجراحة، أبو الطيب خلف وابن زهر؛ ومن علماء النبات ابن البيطار، ومن الفلاسفة بن رشد .. وغير هؤلاء كثيرون[٣٣].

على أنه ينبغى أن ندرك ان التعليم فى الأندلس لم يقتصر على قرطبة وجامعتها، بل إنتشر التعليم الأول فى جميع انحاء الأندلس فى ظل الحكم الإسلامى، حتى كاد ينمحى الجهل بين الناس، وأصبح كل فرد يعرف القراءة والكتابة، فى الوقت الذى ظل الجهل فاشياً فى أنحاء أوربا الغربية، حتى بين أرقى الطبقات وذوى المناصب السامية، بحيث لم يعرف القراءة والكتابة سوى قلة معظمها من رجال الدين[٣٤]. ومع ذلك، فقد ظن الخليفة الحكم المستنصر أن التعليم فى بلاده أقل مما يجب أن يكون عليه، فأنشأ فى قرطبة سبعاً وعشرين كُتّاباً لتعليم أبناء الفقراء بالمجان على حسابه الخاص[٣٥].

وهكذا، كانت الأندلس الاسلامية صفحة مشرقة فى تاريخ الأمة الإسلامية بخاصة والعالم أجمع بعامة.

هامش الخاتمة :

(1) Tout ; The Empire and the papacy; pp. 365 – 366.

(2) Dozy, Spanish Islam, pp. 589 – 592.

(3) Chapman , A Hist. of Spain, p. 72.

(٤) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، حوادث ٤٧٨هـ .

(5) Dozy , Op. cit,pp. 694 – 695.

(6) Cam . Med. Hist. Vol, 6, pp. 398 – 399.

(٧) حسنى أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين، ص ٢٧٦ .

(8) Cam. Modern Hist. Vol, 6. p. 07, and See also, tout. Op. cit. p.470.

(9) Stephenson, Portugal, pp. 18 – 19, and See Chapman, Op. cit, p. 76.

(10) Panter, A Hist. of Middle Ages, p. 194 .

(11) King , the knights Hospitallers in the Holy land. P. 133.

(12) Tout , op. cit , p. 471 .

وراجع سعيد عاشور ، الحركة الصليبية،جـ ١ ، ص ٧٢-٧٣ .

(١٣) عبد اللطيف عبد الهادى السيد ، السياسة الصليبية للبابا أنوسنت الثالث فى ق/١٣م.

(14) Chapman , op. cit,pp. 94 – 96.

(15) Tout . op. cit, pp. 470 – 471.

(16) Cam. Med.Hist. Vol. 6, p. 409 .

(17) Panter , op. cit, p. 195.

(18) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 410.

وراجع عبد اللطيف عبد الهادى السيد ، المرجع السابق .

(١٩) لين بول : العرب فى أسبانيا ، ص ١٨٤ -١٨٥ .

وراجع: سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، جـ ١، ص ٧٤ .

(٢٠) سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، جـ ١ ، ص ٥٥٧.

(21) Chapman , op. cit, pp. 204 – 205.

(٢٢) ما يتعلق بابن رشد ، انظر :

Eyre; European civilization, Vol, 3, the Middle Ages, London, 1935.

وراجع أيضا : Barjer, the European Inheritance, Vol. I,pp. 376 – 377.

(23) Eyre, op. cit – pp. 128 – 129.

(24) Diehl , Marcais , op.cit,p. 407.

(٢٥) لين بول : العرب فى أسبانيا ، ص ١٢٢ .

(26) Cam. Med. Hist . Vol. 3 ,pp. 431 – 432.

وراجع عاشور ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٥٢٩ .

(27) Draper;A Hist. of the Intellectual Developmont, Vol. 2, pp. 28 – 29.

(٢٨) لين بول : العرب فى أسبانيا ، ص ١٢٠.

(29) Dozy, Op.Cit, pp. 446 – 447.

وراجع عاشور ، المرجع السابق ، جـ ١،ص٥٢٧.

(30) Draper , Op. Cit.Vol, 2, pp. 29 – 30.

وراجع عاشور ،المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٥٢٧.

(31) Cam. Med. Hist. Vol, Vol. 3 , pp. 434 – 435.

(32) Dozy, Op. Cit. p. 455.

(٣٣) لين بول : العرب فى أسبانيا ، ص ١٣٢ - ١٣٣.

(34) Dozy, Op.Cit, pp. 455 – 456.

(35) Ibid . p. 455 .

فهرس الكتاب

الفهرس

الموضوع	من : إلى
- المقدمة	٣ : ١٠
المدخل تعريف ببلاد الأندلس - طبوغرافية بلاد الأندلس - ديمغرافية الأندلس - العرب قبل الإسلام فى شبه جزيرة أيبريا - الأوضاع السياسية فى أسبانيا قبل الفتح الأسبانى - فتح العرب والمسلمين لأسبانيا - مراحل لافتح العربى للأندلس - فتوحات طارق بن زياد للأندلس - العرب وأهل البلاد الأصليين.	١١ : ٣٠
الفصل الأول **الأندلس فى عصر الولاة** - عبد العزيز بن موسى بن نصير - ولاية السمح بن مالك الخولانى - عنبسة بن سحيم الكلبى - عبد الرحمن بن عبدالله الغافقى - معركة بلاط الشهداء ١١٤هـ/ ٧٣٢م- عبد الملك بن قطن الفهرى - عقبة بن الحجاج السلولى - عبد الملك بن قطن للمرة الثانية - بلج بن بشر وثعلبة بن سلامة - ولاية أبة الخطار الحسام بن ضرار الكلبى - يوسف بن عبد الرحمن الفهرى آخر ولاة الأندلس - احوال الأندلس قبل قيام الدولة الأموية فيها	٣١ : ٧٤
الفصل الثانى **قيام الدولة الموية بالأندلس (عصر الإمارة)** - سقوط الدولة الأموية فى دمشق - هروب عبد الرحمن بن معاوية إلى أفريقية - عبد الرحمن يتطلع إلى الأندلس -	٧٥ : ١٥١

الموضوع	من : إلى
عبدالرحمن الداخل وإحياء الدولة الأموية فى الأندلس - الصعوبات التى واجهت عبدالرحمن وكيف تغلب عليها - موقعة المصارة والإستيلاء على قرطبة - قضاء عبدالرحمن الداخل على كل من يوسف الفهرى والصمويل - موقف عبدالرحمن الداخل من ثوار العرب والبربر والأقارب - موقف عبدالرحمن الداخل من المؤامرات التى تحاك ضده فى الداخل والخارج - عبدالرحمن الداخل وإصلاحاته الداخلية	
الفصل الثالث **عصر الخلافة الأموية**	١٥٣ : ٢٢٦
- عبدالرحمن الناصر وتأسيس الخلافة الأموية - عبدالرحمن الثالث (الناصر) ومواجهة المتمردين - علاقات عبدالرحمن الناصر بملوك قشتالة وبنبولة - علاقة عبدالرحمن الناصر بالدولة الفاطمية بالمغرب - موقف عبدالرحمن الناصر من الأقارب فى قرطبة - إنشاء مدينة الزهراء بالأندلس وتوسيع المسجد بها - خلافة الحكم المستنصر سنة ٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٩٦١- ٩٧٦م - سياسة الحكم المستنصر فى الأندلس - موقف الندلس من خلافات المغرب - هشام المؤيد سنة ٣٦٦-٣٩٩هـ/ ٩٧٦- ١٠٠٩م - مصير الأندلس تحت رحمته الأوصياء بعد هشام - محمد بن أبى عامر والسلطان - محمد بن أبى عامر وإنشاء جيش من المرتزقة - غزوات محمد بن أبى عامر - محمد بن أبى عامر يتخذ لقب الحاجب المنصور - ابن عامر ونقل الخلافة إلى البيت العامرى.	

الموضوع	من : إلى
الفصل الرابع **عصر الملوك الطوائف** - تمهيد - المرابطون وإنقاذ الأندلس - معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م - الأندلس بين يوسف بن تشفين والسيد القمبيطور - الأندلس الإسلامية والحروب الصليبية - بابوات روما وتجيش الجيوش لطرد المسلمين من الأندلس - زوال دولة المسلمين فى أسبانيا بعد ثمانية قرون.	٢٧٠ : ٢٢٧
الفصل الخامس **حضارة الأندلس الإسلامية** - تمهيد - اختلاف آراء المؤرخين حول أصول الحضارة الإسلامية - تصدى العرب للدفاع عن عروبة الأندلس - تقسيم المؤرخين للحضارة الإسلامية فى الأندلس إلى ثلاث مراحل تاريخية - اللغة العربية والقرآن الكريم كأساس فى بناء الحضارة الإسلامية فى الأندلس - مظاهر الحضارة الإسلامية فى الأندلس - مجال التشريع والقضاء فى الأندلس - المجال الأدبى (الشعر، النثر، الموشحات) - الحياة التربوية والتعليمية فى الأندلس - فى مجال العمران	٣٠٦ : ٢٧١
ملحق الكتاب حول مذهب الإمام مالك بن أنس فى الأندلس وكيف إنتشر فيها بسرعة	٣١٥ : ٣٠٧
الخاتمة وتتضمن أهم الإستنتاجات فى المجال السياسى والحضارى للإسلام فى الأندلس خلال ثمانية قرون	٣٢٩ : ٣١٧

من : إلى	الموضوع
٣٣١ : ٣٣٦	فهرس الكتاب وتتضمن فصول الكتاب والمقدمة والخاتمة.

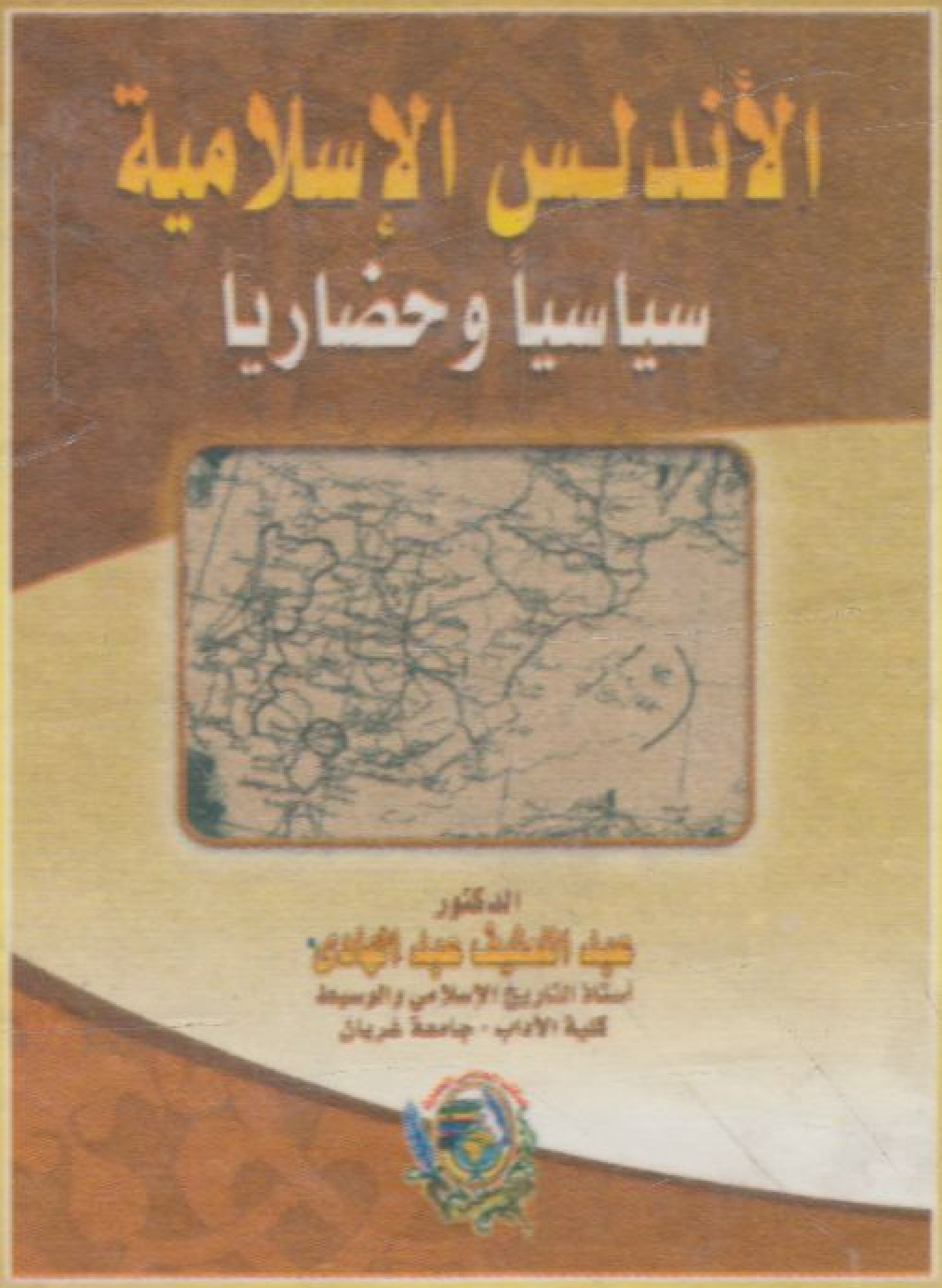

Bibliotheca Alexandrina

المكتب الجامعى الحديث

مساكن سوتير - أمام سيراميكا كليوباترا
عمارة (5) مدخل (2) - الأزاريطة - الإسكندرية
تليفون : 4818707 / 03 - تليفاكس : 4865277 / 03 / 002
E-mail: modernoffice25@yahoo.com